

مَنشُورَاتُ الجَامِعَةِ اللُّبْنَانِيَّةِ  
قِسْمُ الدِّرَاسَاتِ التَّارِيخِيَّةِ

٢٧

## الْحَضَارَةُ الْعَبَّاسِيَّةُ

٢٨٥

تأليف  
وليم الخازن



طبع السن

بيروت ١٩٨٤

---

التوزيع: المكتبة الشرقية، ص.ب. ١٩٨٦، بيروت - لبنان





## كتب للمؤلف

---

- ابن زيدون ، أثر ولادة في حياته وأدبه - بيروت ١٩٦١ .
- شبكة المصير - بيروت ١٩٦٤ .
- كتب وأدباء - بيروت ١٩٧٠ .
- ابن زيدون في مقاييس الشعر العربي الجديد - المغرب ١٩٧٥ .
- الحضارة العباسية - بيروت ١٩٨٣ .
- الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية - بيروت ١٩٧٩ .
- الولادة الجديدة وقصص أخرى - بيروت ١٩٧٩ .
- مظاهر الحضارة اللبنانية زمن الدولة العباسية - بيروت ١٩٨٣ .



مكتبة

المفتدين

# المحتويات

|    |                                       |
|----|---------------------------------------|
| ٩  | تقديم بقلم الأب الدكتور جان موريس فيه |
| ١١ | مقدمة                                 |
| ١٥ | البحث الأول : وجه الحضارة العباسية    |
| ١٧ | محاولة في تحديد الحضارة               |
| ١٧ | أهمية الحضارة العباسية                |
| ١٨ | طابعها ، وحدة مع التنوع               |
| ٢٣ | بين العرب والموالي                    |
| ٢٦ | قائمة الخلافة                         |
| ٣٢ | مستوى المعيشة                         |
| ٣٤ | اللباس                                |
| ٣٦ | الدور والقصور                         |
| ٣٩ | المدن العباسية                        |
| ٤٠ | بغداد                                 |
| ٤٤ | المدن الصغيرة والأرياف                |
| ٤٥ | الثورات                               |
| ٥٠ | انتقال الحضارة العباسية الى الغرب     |
| ٥٤ | اليهود                                |
| ٥٥ | الأرمن                                |
| ٥٦ | الأتراك                               |

٥٧ ..... حضارة رقيّة

٦١ ..... إنتشار اللغة العربيّة

٦٣ ..... البحث الثاني : مرافق الحياة

٦٥ ..... الحاصلات

٧٠ ..... الصناعات

٧١ ..... الأسلحة

٧١ ..... النسيج والألبسة

٧٣ ..... العطور

٧٤ ..... الطواحين

٧٥ ..... الورق

٧٧ ..... التجارة

٧٨ ..... أهميتها وأسواقها

٨٤ ..... التجار

٨٦ ..... العملة

٨٨ ..... الملاحة النهرية

٩١ ..... الملاحة البحرية

٩٦ ..... المواصلات البرية

١٠١ ..... البحث الثالث : الثقافات الأجنبية

١٠٣ ..... الثقافة اليونانية

١٠٧ ..... الثقافة الفارسية

١٠٨ ..... الثقافة الهندية

١١١ ..... البحث الرابع : الحركة العلمية

١١٦ ..... الطب

|     |       |                   |
|-----|-------|-------------------|
| ١٢٠ | ..... | الصيدلة والكيمياء |
| ١٢٣ | ..... | الفيزياء          |
| ١٢٥ | ..... | الجغرافية         |
| ١٢٩ | ..... | علم الفلك         |
| ١٣٢ | ..... | الحساب والرياضيات |
| ١٣٣ | ..... | الفنون الجميلة    |

|     |       |                                |
|-----|-------|--------------------------------|
| ١٤١ | ..... | البحث الخامس : الثقافة الدينية |
| ١٤٥ | ..... | النصارى واليهود                |
| ١٤٨ | ..... | الاسلام                        |
| ١٥٠ | ..... | المذهب الحنفي                  |
| ١٥١ | ..... | المذهب المالكي                 |
| ١٥٢ | ..... | المذهب الشافعي                 |
| ١٥٢ | ..... | المذهب الحنبلي                 |
| ١٥٣ | ..... | تصنيف المذاهب                  |
| ١٥٣ | ..... | انتشار المذاهب                 |

|     |       |                     |
|-----|-------|---------------------|
| ١٥٤ | ..... | الأعياد             |
| ١٥٤ | ..... | مواكبها واحتفالاتها |
| ١٥٥ | ..... | الأعياد الدينية     |
| ١٥٧ | ..... | الأعياد الزمنية     |
| ١٥٧ | ..... | النيروز             |
| ١٥٨ | ..... | المهرجان            |

|     |       |                          |
|-----|-------|--------------------------|
| ١٥٩ | ..... | البحث السادس : أهل الذمة |
| ١٦١ | ..... | تحديدهم                  |

|     |                                  |
|-----|----------------------------------|
| ١٦٢ | الجزية .....                     |
| ١٦٣ | معاملتهم في القرآن والحديث ..... |
| ١٦٥ | معاملتهم في المجتمع .....        |
| ١٦٦ | وظائفهم .....                    |
| ١٦٧ | اضطهادهم .....                   |
| ١٧١ | البحث السابع (الرقيق) .....      |
| ١٧٣ | تحديدته .....                    |
| ١٧٣ | مصدره .....                      |
| ١٧٦ | وضعه .....                       |
| ١٨٠ | العتق .....                      |
| ١٨٢ | متزلة الرقيق الحضارية .....      |
| ١٨٣ | خاتمة .....                      |
| ١٨٥ | الرسوم التوضيحية .....           |
| ١٨٩ | المصادر والمراجع .....           |
| ١٩٧ | فهرس الأعلام .....               |
| ٢٠٩ | فهرس الأماكن والمدن .....        |



# تقديم

في زمنٍ ليس ببعيد ، كان الميدانان الأدبيّ والتاريخيّ منفصلين انفصالاً تاماً . وكان الباحثون في التاريخ لا يتعدّون ما يأخذونه عن الشعراء (الذين كان دورهم يقتصر على تخليد أسماء ممدوحهم من الملوك والأمراء ، كما يقول النظاميّ العروضيّ السمرقنديّ) من أسماء لبعض الممدوحين الكبار المغفّلين في المصادر التقليدية . بينما كان باحثو الأدب يكتفون بشرح الكلمات الصعبة الواردة في القصائد ، بعد فصلٍ عامٍ يمرّون فيه بالخطوط العريضة للاطار السياسيّ القائم في عصر شعرائهم .

أمّا الآن ، فقد أدرك الباحثون في التاريخ أنّه لا يمكنهم ، من بعد ، قصر أبحاثهم على المصادر المسماة تاريخيّة ، تلك التي تكتفي ، في أغلب الأحيان ، بسرد الأخبار غير محاولة تحليلها ، أو التي تركّز اهتمامها على الملوك والمعارك والمؤامرات . فانكبّوا ، أكثر فأكثر ، على المصادر الأدبيّة ، دارسين موضوعاتها التي تعكس أحاديث المجالس ، والتي تكشف عن اهتمام عصرها ونظرتها الخاصة الى الوجود وما فيه . فيجتهد الباحث التاريخي في أن يكتشف ، ضمن النصوص الأدبيّة ، كلّ الاشارات الممكنة عن البيئة التي عاش فيها الشاعر . وهنا معلومات عن حياته اليوميّة وما يكتنفها من حاجات كالمأكل والملبس والأثاث والعادات والأعراف وغيرها .

وقد كانت غاية مؤلّف هذا الكتاب أن يؤمّن للباحثين في الآداب العربيّة خصوصاً ، وفي التاريخ عمومًا ، مجموعةً من المظاهر التي كانت تحيط بالأدباء ، كتابًا وشعراء ، وتكوّن حضارة عهدهم .

﴿والحضارة العباسيّة ، في الواقع ، تمثّل العصر الذهبيّ للمشرق الاسلاميّ ، وهي تتألّق بين أعظم الحضارات العالميّة ، نتيجة إسهام شعوب مختلفة ، عربيّة وتركّيّة وفارسيّة وهنديّة وحتى بيزنطيّة ، كما أخذت من أديانٍ مختلفة ، إسلاميّة ومسيحيّة وحتى يهوديّة ،

وازدهرت تلك الحضارة من الخليج الى المحيط ، خلال ستة قرون ، وأمنت للغرب  
نصوص العلماء والفلاسفة القدامى ، زائدةً عليها مبتكراتها الخاصة . وبهذا ، كانت حلقة  
وصل بين ثروة الماضي ووعود المستقبل . ١٨٠  
وثمره توثيق وافر وسنوات عديدة من الدراسة المتصلة ، يشرف كتاب الدكتور وليم  
الخازن مؤلفه المعروف بمؤلفاته العديدة ذات القيمة الأكاديمية الراجعة ، كما يشرف  
الجامعة اللبنانية التي ضمته الى منشوراتها .  
نتمنى أن يستفيد قراء عديدون من ثروة هذا الكتاب .

الأب جان موريس فيه

بيروت في الرابع من أيار ١٩٨٣





## مقدمة

Ramla

» الحضارة العباسية ، شأن سائر الحضارات العالمية ، مجموعة من الروافد صبّت في بقعة شاسعة مغروسة بالتراث العربيّ ، تحت حكم إسلاميّ على رأسه الخليفة الإمام . ويمكن استنتاج مدى انفتاح الخلافة العباسية على العالم الخارجيّ ممّا أورده المؤرّخون ، والجغرافيون ، والرحالة العرب ، كالمسعودي ، والإدريسيّ ، وابن خرداذبة ، وابن حوقل ، من مهارات الشعوب المختلفة ، ومظاهر حضارتها وثقافتها في مختلف الميادين ، ومن اهتمام الخلفاء بإيفاد الوفود والبعثات في سبيل العلم والمعرفة .<sup>(١)</sup> ولم يضمن الخلفاء العباسيون بالأموال الضخمة لبناء المدن ، والمكتبات ، والمراسد ، وتعريب الكتب ، واستجلاب المهندسين والأطباء من مختلف الأصقاع ، حتى بلغوا في علائقهم السياسية ، والثقافية ، والتجارية ، أقاصي الهند والصين ، كما منحروا بحر الشمال ، وكانت لهم تجارة مع ما سُمّي اليوم البلاد الاسكندrinaقية . وإنّما دور العرب المهم في التاريخ العام هو دور مشهود في العالم أجمع<sup>١</sup> . وكانوا ينتشرون من المغرب الى بلاد الرافدين والشام»

لكنّ الكتابة عن الحضارة العربية في مرحلة لم يدان فيها العرب حضارتهم السالفة ، يؤثر سلباً في ألّق هذه الحضارة ، وفي تجارب الناس معها ، وتوفيتها حقّها من الشمول والتعميق . فإنّ العرب ، إبان نهضتهم الحديثة بين ١٨٥٠ و ١٩٤٠ ، أفادوا إفادة جليّ من الغرب ، ومن تقدّم أوضاعهم الخاصة ، وسعيهم نحو التعاون والتكامل . ثم كانت ، بعد ذلك ، زّدة عنيفة : داخلية في تنافسهم على «السيطرة والحكم» وخارجية سعياً للمحافظة على تفكّكهم الذي يسهّل السيطرة عليهم ، وعلى ثروتهم النفطية خصوصاً .

١ . Maxime RODINSON, *Les Arabes*, p. 13 .

والأسباب المتوفرة للباحث في الحضارة العربية في محيط حضاري متقدم، هي غيرها في ظروف يكتنفها التناقض والتخلف والجهل. لهذا أرى من واجبي الإقرار بأن دراستي حول الحضارة العربية كانت أشمل وأعمق لو كنت أكتب في مرحلة نهضة حقيقية تعم البلدان العربية جمعاء.

وكما أن الحضارة العربية انفتحت على سائر الحضارات الأجنبية، فإن الإسلام، كالذي سمها بطابعه الخاص، لم يسبل على وجهها البرقع، وإنما انطلق الفكر العربي الحر يحول في الشؤون الدينية، والفلسفة، والعلمية، والفنية. ولكنه اصطدم، أحياناً، بالتقليد الديني المتزمت، مثلما كابد المعتزلة والزنادة وغيرهم ممن ثاروا على التقاليد والأعراف، وانفتحوا على سائر الحضارات المحدقة بهم أو الطارئة عليهم، الويل والاضطهاد. وهذه المواجهة بين العلم والدين شكّلت محطة واسعة في حضارة العرب القديمة، كما بقيت ماثراً اهتمام في النهضة الحديثة<sup>٢</sup>. وليس من شأننا التوقف عند النظريات التوفيقية اللاجئة الى مختلف طرق التأويل (والتفسير) لخلق الصلة بين الآراء والعلوم الحديثة، وبين ما جاء في النصوص الدينية، على غرار الكثيرين من أهل الشرع في أيامنا.

وكان للاختلاف والتصادم بين مختلف الشعوب، والتزعزعات، والمذاهب، التي عصفت في العصور العباسية، أثر إيجابي في تقدم الحضارة، وتنوع مظاهرها. ولا بدّ للحضارة المختلفة الروافد، والمتوحدة الجامعة، خلل التناقض والتصادم، من أن تنهض بالانسان، وتوفّر له العيش الكريم، والعدالة الاجتماعية، والنظرة المتعمقة الى الوجود. ولم تكن هذه المظاهر غريبة عن المجتمعات العربية في أقدم عهودها، فاشتهر بها، خصوصاً، الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب. ويمكننا أن نمثل عليها في العصر العباسي بما جاء عن المأمون أن رجلاً شكاه الى القاضي يحيى بن أكرم، فنودي الخليفة ليجلس مع خصمه، فأقبل ومعه غلام يحمل مصلى، فأمره القاضي بالجلوس، فطرح

٢. بحسن مراجعة كتابين مهمين باللغة الفرنسية حول هذا الموضوع :

Abdallah LARoui, *L'Idéologie arabe contemporaine*, François Maspéro, Paris, 1967

Paul KHOURY, *Une Lecture de la pensée arabe actuelle, trois études*, Münster, 1981



غيرها ممّا قد لا يقلّ عنها أهميّة. وبذلك ، يمكنني القول إنّني توقّفت عند وجوه من الحضارة العبّاسيّة ، ولم أعالج كلّ جوانبها ، غير أنّ المحطّات التي توقّفت عندها تعطي صورة وافية عن ميزة هذه الحضارة وأهميّتها.

وأرجو أن أكون قد أضفت مدمكاً جديداً ، وإن صغيراً ، على صرح الحضارة العبّاسيّة الشاهق .

وليم الخازن



# المبحث الأول

## وجبة الحضارة العباسية

- ١ - محاولة في تحديد الحضارة (تصنيف الحضارة)
- ٢ - أهمية الحضارة العباسية
- ٣ - طابعها ، وحدة مع التنوع
- ٤ - بين العرب والموالي
- ٥ - رفاة الخلافة
- ٦ - مستوى المعيشة
- ٧ - اللباس
- ٨ - الدور والقصور
- ٩ - المدن العباسية : بغداد - المدن الصغيرة والأرياف
- ١٠ - الثورات
- ١١ - انتقال الحضارة العباسية الى الغرب : اليهود - الأرمن - الأتراك
- ١٢ - حضارة رقية
- ١٣ - إنتشار اللغة العربية



مكتبة

المفتدين

## ١ - محاولة في تحديد الحضارة

«الحضارة هي مجموعة المظاهر الراقية التي ترتفع معها القيم الانسانية ، وتؤدي الى رفاهية الانسان وسعادته . وأبرز ما تتجلى في السلوك ، والثقافة العامة ، ومختلف أبواب العلوم والفنون».

أوردت هذا التحديد المختصر تحت عنوان «محاولة في تحديد الحضارة» ، لأن هذه اللفظة - المصطلح ، فضلاً عن أن معناها قد تعدل بتبدل الأوضاع وتغير النظرة الى الانسان وحاجاته على مدى العصور ، تحتل من المقومات ما يضيق المجال عن ذكره . وهي ، شأن المفاهيم الإنسانية الشاملة ، عرضة لمختلف الآراء والنظريات التي تتباين مع تباين موقف الانسان ، وثقافته ، وحضارته . وإنما تحديدي الشخصي هذا للحضارة ، يُضاف الى تحديدات الباحثين الكثيرة لها ، في كل زمان ومكان .

## ٢ - أهمية الحضارة العباسية

حصر موريس لومبار في كتابه «الاسلام في عظمته الأولى»<sup>١</sup> ذروة النهضة في المشرق الاسلامي بين أواسط القرن الثامن ، والقرن الحادي عشر ، إذ إنّ المراكز الفاعلة في عالمي الاقتصاد والثقافة كانت ، آنذاك ، في هذا المشرق . وتجدر الإشارة الى أن لومبار يتحدث عن ذروة الحضارة الاسلامية . أمّا الحضارة العباسية ، على العموم ، فإنني أميل

١. نقل هذا الكتاب الى العربية يوسف شريم ، وقدمه أطروحة دكتوراه حلقة ثالثة في جامعة القديس يوسف عام ١٩٨٢ . وقد اعتمدت في بحثي الأصل الفرنسي .

(٤)

الى مدّ سيلها، مع المستشرق الايطالي ألدو مييلي، الى أواخر القرن الثالث عشر<sup>٢</sup>، وذلك بعد أن جُلّت فيها، وولحت ما انفتح أمامي من أبوابها. أمّا الغرب فكان في حالة تقهقر بعد تدهور حضارة رومية، وغزوة البرابرة<sup>٣</sup>. ولنا شاهد آخر على حضارة المشرق وتأخر الغرب في شخص الكاتب الفرنسي أناتول فرانس Anatole FRANCE (١٨٤٤ - ١٩٢٤) الذي قال: «إن أسوأ حقبة في تاريخ فرنسة هي تلك التي شهدت معركة بواتيه Poitiers عام ٧٣٢، حين هزم شارل مارتيل Charles MARTEL (٦٩١ - ٧٤١) جيوش عبد الرحمن العربي. ففي ذلك اليوم - يقول روجيه غارودي - تراجعت الحضارة العربية أمام البربرية الفرنكية»<sup>٤</sup>.

وأقرّ ماكسيم رودنسون Maxime RODINSON بأنّ أوروبة أفادت من حضارة العصور العربية الوسطى التي كانت لها بمثابة دليل (guide)، كما أقرّ للعرب بإغناء التراث الإنساني بمنجزات قيّمة<sup>٥</sup>. ولن أقع في بحثي، مع كل ذلك، بما يقع فيه الناظر الى الموضوع من طرف معيّن، من محدودية النظرة، وحصرها في نطاق واحد لا تتعداه. وإنما ضرر التحيز فوق منفعتة. ويكفي الحضارة الاسلامية أنّها صهرت الحضارتين المشرقية والفينيقية! أمّا الهلنّية، وإن كانت متدهورة آنذاك، فإنّ القسطنطينية كانت أكثر تمثيلاً لها. وقد بقيت الحضارتان الاسلامية والبيزنطية، خلال قرون كثيرة، مركزي الشعاع الحضاري في العالم كلّ<sup>٦</sup>.

العهدة مع السمو

٣- طابعها، وحدة مع التنوع

كل حضارة تتجه نحو الوحدة، ونحو العموم والشمول، وتحاول، أبداً، أن تتخطى

٢. Abdo MIÉLI, *La Science arabe et son rôle dans l'évolution scientifique mondiale* (du VIII<sup>e</sup> s. à la fin du XIII<sup>e</sup> S.), Leiden, E.J. Brill, 1966.

٣. Maurice LOMBARD, *L'Islam dans sa première grandeur*, p.7.

٤. مجلة الحوادث، الجمعة ١٩ كانون الثاني ١٩٧٩. والى مثل ذلك ذهب جاك بيرين Jacques PIRENNE (إذ قال: *Les Grands courants*, II/44) «Alors qu'une semi-barbarie s'étend sur le continent européen».

٥. Maxime RODINSON, *Les Arabes*, p. 152.

٦. راجع J. PIRENNE, *Les Grands courants*, II/16 وَصَفَ دومينيك سورديل الحضارة الإسلامية بأنّها حضارة بكل معنى الكلمة (D. SOURDEL, *L'Islam médiéval*, p. 7).



«الترعة الفردية» بالحضارة العباسية هي نتيجة التفاعل بين العلوم الدخيلة والحضارة العربية التقليدية<sup>٧</sup>، مع ما داخلها وتفاعل معها من حضارات الشعوب التي احتوتها الخلافة العباسية في فتوحاتها الواسعة، وفي حاجتها الى مختلف الصناعات والعلوم الدخيلة<sup>٨</sup>. وكان لتحويل البيئة الحضارية، بانتقال مركز الخلافة من دمشق الى بغداد، أثره الكبير في تعزيز الطابع الشرقي على حساب الطابع الغربي للحضارة العربية، ذلك أن الخلافة انتقلت من معاهد الإمبراطورية البيزنطية الى مواطن الإمبراطورية الفارسية الآفة. ويجدر بنا أن نشير الى أنه، بعد قيام الخلافة العباسية (٧٥٠)، زالت أهم الامتيازات العربية، وأصبح طابع الدولة إسلامياً أكثر منه عربياً<sup>٩</sup>، وتعايشت فيها، وفي الدويلات التي نشأت عن تفككتها، جنسيات مختلفة، كالعرب، والترك، والفرس، والبرابرة، وغيرهم<sup>١٠</sup>. وتحتو دعاة بني العباس من مناهضة العنصر العربي، وهم يعتمدون على غيره، ويطعنون نوازعه وأمنياته، حتى قيل إن كتاباً لإبراهيم بن محمد<sup>١١</sup> الى أبي مسلم الخراساني وقع في يد مروان بن محمد، فقرأ فيه أمر إبراهيم لأبي مسلم بقتل كل من يتكلم بالعربية في خراسان<sup>١٢</sup>. وكان يُنظر الى كل فئة من الفئات العربية أو الأجنبية نظرة خاصة بما

٧. «L'avènement des abbassides ne signifie pas, on s'en doute, l'éclipse de l'Arabie, de ses représentants, de son legs» (André MIQUEL, *L'Islam et sa civilisation*, p. 121).

٨. للتوسع في هذا الموضوع يمكن مراجعة كتاب «الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية» للمستشرق كرنباوم، ترجمة الدكتور صدقي حمدي، مطبعة أسعد ببغداد، ١٩٦٦.

٩. قال جاك بيرن:

«Avec les abbassides, l'empire cessait d'être arabe pour devenir musulman. L'Arabie perdait son rôle dominant» (J. PIRENNE, *Les Grands courants*, II/11).

١٠. يتوسع في ذلك Maxime RODINSON, *Les Arabes*, p. 29. وفي قصيدة للخريجي (ابو يعقوب)، ت

حوالي (٨٢١) خلال فتنه الأمين والمأمون، قال ذاكرًا بعض الشعوب القائمة في بغداد:

|  |  |
|--|--|
| أَحْبَشُ تَقْبَلُوهُ مُذَلًّا مَشَارُهَا | أَبْنُ الْجَرَادِيَّةُ الصَّقَالِبُ وَالْ    |
| تَعْدُو بِهَا سَرَبًا ضَوَامُهَا         | يَنْصُدُّ الْجَنْدُ عَنْ مَوَاكِبِهَا        |
| نُوبَلَةُ شَيْتَ بِهَا بَرَابَرُهَا      | بِالسُّنْدِ وَالْهِنْدِ وَالصَّقَالِبِ وَالْ |
| يَقْدُمُ سُدَانُهَا أَحَامُرُهَا         | طَيْرًا أَبَايِلَ أُرْسَلَتْ عَيْتُهَا       |

(الطبري، ٤٤٩/٨ - ٤٥٠)

١١. ابن علي بن عبدالله بن عباس.

١٢. الطبري، ٤٢٢/٧.

اتّصفت به إجلالاً، وما أدّته من خدمات، وما برعت فيه من أعمال أسهمت في تميّز الحضارة العباسية» ومن الشهادات المعبرة في هذا الشأن ما جاء في كتاب «الامتناع والمؤانسة» لأبي حيان التوحّيدي، حيث يتحدث عن تنوّع الأمم وفضل كلّ منها<sup>١٣</sup>، وما أفاد به رجل يدعى اسماعيل بن عبد الله الخليفة المنصور عندما طلب منه وصف الناس، فقال: «أهل الحجاز مبدأ الاسلام وبقية العرب، وأهل العراق ركن الاسلام ومقاتلة عن الدين، وأهل الشام حصن الأمة وأُسنة الأئمة، وأهل خراسان فرسان الهيجاء وأعنة الرجال، والترك منابت الصخور وأبناء المغازي، وأهل الهند حكماء استغنوا ببلادهم فاكتفوا بها عمّا يليهم، والروم أهل كتاب وتدين نحّاهم الله من القرب الى البعد، والأنباط كان ملّكهم قديماً فهم لكل قوم عبيد»<sup>١٤</sup>.

وأفاد العرب البلاد التي فتحوها حضارة عظيمة، كما فعلوا فيما بين النهرين وتركستان في القرنين العاشر والحادي عشر، وفي مصر وإسبانية في القرن الثاني عشر، بيد أن حضارتهم لم تشعّ بجديدها كما شعت بتبني الحضارتين البيزنطية والفارسية في الإطار التاريخي الذي زعزعه الاسلام. وظلّ أكبر تجديد في الحضارة العباسية يكمن في اللغة والدين<sup>١٥</sup>.

وبعد مرحلة طويلة من الانحطاط، لم يستطع العرب استعادة المركز المميّز الذي تولّوه آنذاك. قال الدكتور عبد الله العروي<sup>١٦</sup>: «إنّ أوج التاريخ العربيّ والحضارة العربيّة هو القرن الرابع الهجري - العاشر بعد الميلاد - حيث شاركت كلّ الأجناس وكلّ العواصم في ازدهار ثقافة غزيرة متنوّعة، أدبيّة علميّة فلسفيّة، كلّها مكتوبة باللغة العربيّة. بعد تلك الحقبة، لم تشهد أيّ عاصمة من عواصم الوطن العربيّ نشاطاً فكريّاً ماثلاً، ولم يستعد العرب نفوذهم وتأثيرهم ومركزهم القيادي»<sup>١٧</sup>. ولكي ينبعث العرب في حال شبيهة بالتي كانوا عليها في الأعصر العباسية، عليهم أن يتعهدوا طلّعاً جديداً، إذ لا سبيل

١٣. التوحّيدي: الامتناع والمؤانسة، ص ٢١١ - ٢١٢.

١٤. الطبري، ٧٠/٨ - ٧١.

١٥. Dict. encycl. Quillet, 1968, 1/314.

١٦. كاتب ومفكر مغربي، والمقال بعنوان: «قضية التراث والانبعث الحضاري في الوطن العربي».

١٧. مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد ١٢، أيار ١٩٨١، ص ٢١.

الى دفع الحياة في طلع قديم يابس . قال المفكر الألماني فون كايسرلينغ : « نادراً ما تمثل الأمة الواحدة غير مرة واحدة ، الدور الكبير نفسه في التاريخ ، إلا إذا طرأت عليها حالة تجديد عضوي ... وعليه ، فإنّ انبعاث النهضة لا يحدث دوماً إلا في جسم جديد »<sup>١٨</sup> .

وإذا كان لكل حضارة وجهها الخاص وميزاتها الخاصة ، فقد تميّزت الحضارة العباسية بالوحدة مع التنوع ، لأنها جمعت الى الحضارة العربية الأدبية والفكرية أبهى الفرس ونظمهم وأدابهم ، ومهارة أهل السند<sup>١٩</sup> بالصيرفة والعقاقير ، وصناعة أهل الصين ، وفلسفة اليونان وأدابهم ، وحساب الهند وعلومهم الفلكية ، والطب ، وغيرها . وانصهرت الشعوب المختلفة في المجتمع العباسي بفعل التوالد والاختلاط<sup>٢٠</sup> ، فكثر الجوّاري والإماء ، ونشأت طبقة المولدين<sup>٢١</sup> وتزاوجت العقول والأفكار لتولّد ثقافة عربية جديدة . ولا يشكّل تكون الحضارة العباسية بدعة في نشوء الحضارات ، وليس في التاريخ البشري حضارة نهضت من عدم غير مستفيدة او متطورة من الحضارات السابقة ، بل إنّ « سلسلة الأدميين المتعاقبة تعدّ إنساناً واحداً على توالي العصور ، محصلاً للمعارف على الدوام » ، على حد قول پاسكال . ومثله قول روجيه غارودي : « منذ ثلاثة ملايين سنة لسنا سوى إنسان واحد »<sup>٢٢</sup> . ولا يتمتع شعب بميزات الحضارة وإنجازها إلا بعد انفتاحه على سائر الشعوب ، وتفاعله معها أخذاً وعطاءً ، وبعد المشاركة في المسيرة الإنسانية المتكاملة . قال الدكتور شارك مالك : « ولقد تعيّن أن تظلّ المجتمعات البشرية متخلّفة ، وأن تظلّ ثقافتها بدائية ، حتّى تنخرط انخراطاً كلياً في التراث الحي المتواصل المتكامل »<sup>٢٣</sup> . ومع ما يتضمّن هذا القول ، وما يمثله ، من الصحة والإصابة في الحكم ، فإنّني أرى لزماً أن أواجهه بشيء من التحفّظ والتروي ، لأنّه ينطبق بشكل أوفى على الحضارة الانسانية المتأخّرة ، بعدما اتّسعت سبل الاتصال ، وتلاقّت التيارات الحضارية

١٨. جواد بولس : التحولات الكبيرة في تاريخ الشرق الأدنى منذ الإسلام ، ص ١٢ .

١٩. مقاطعة في جنوب باكستان ١٠٠,٠٠٠ كلم<sup>٢</sup> ، عاصمتها حيدرآباد ، تشمل في الشرق صحراء تار ، وفي الغرب قسماً من سهل الهندوس . أكثر مناطق العالم حرارة .

٢٠. راجع فؤاد افرام البستاني : « تمازج العناصر البشرية في بغداد العباسيين » ، في مجلة المشرق ، م ٣٢ ،

١٩٣٤ ، ص ٤٠٩ وما بعدها .

٢١. Roger GARAUDY, *Parole d'homme*, pp. 49 et 54 .

٢٢. الآثار العربية الكاملة ، المقدمة ، القسم الأول ، المجلد الأول ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ٢٦٨ .

في العالم كله. ولا يستقيم بالقدر نفسه إزاء الحضارات القديمة التي كانت تشكو من نقص الاتصال وتقطّعه، مع ما يؤدي إليه هذا التقطّع من فروقات على الأرض في مختلف الشعوب والأجناس. ولا شك في أنّ الحضارة العباسية اعتورها النقص في التواصل، والاندماج، وبلوغ الوحدة مع الحضارات العالمية، وهي تجهل اصقاعاً برمتها، وترى أوضاع كثير من الشعوب القاصية بشيء من الخلط والتغشية.

وإذ عاصر البيزنطيون العباسيين وجاوروهم، لم ينقطع الحوار والاتصال بين الدولتين، وإن غلبت المناوشات والحروب بينهما على العلاقات السلمية. فكانت، مثلاً، بين الملك نفقور بن استبراق الرومي وهرون الرشيد مراسلات<sup>٢٣</sup>، وجرت محاورة دينية طويلة بين المهدي والبطريك طيموتاوس الأول النسطوري حول ما يجمع وما يفرق المسيحية والإسلام<sup>٢٤</sup>.

وما زالت الحضارة العربية بحاجة إلى جهد موضوعي كبير، يغوص على أعماقها الروحية، ويبين سمات الوجدانية، والوجه المميز الذي أضفته على سائر الحضارات التي استساغتها وهضمتها لتبني منها حضارة عربية خاصة، ما لبثت أن غدت الحضارات العالمية اللاحقة، وظلّت تتماز عليها بغزارة روحها وإنسانيتها<sup>٢٥</sup>. وعندما قارن المفكر الألماني أوسوالد اشبنغلر بين الحضارة العربية والحضارة الغربية في كتابه «تدهور الحضارة الغربية»، أعطى الحضارة العربية حقّها بقوله: «إنّها من الوجهتين الجغرافية والتاريخية بمثابة القلب من كل الحضارات الأرقى، إذ هي الحضارة الوحيدة التي تلامس، عملياً، وفي الزمان والمكان، كل الحضارات الأخرى. ولذلك، فإنّ فهم تركيب تاريخها المتكامل، الذي يعطينا صورتها الجوهرية، يتوقّف على معرفتنا لشكلها الباطنيّ الصحيح. وهذا الشكل قد شوّهته قوالبنا، ولا نزال نجعله حتى الآن. وهذا الجهل يعود للتحيزات اللاهوتية والفيلولوجية»<sup>٢٦</sup>.

٢٣. مروج الذهب، ٥٥/٢.

٢٤. راجع الأب هانز يوتمان اليسوعي: البطريك طيموتاوس الأول أو الكنيسة والإسلام في العصر العباسي الأول، دار المشرق - بيروت، ١٩٧٥.

٢٥. بالمفهوم الإنساني العام الذي ينطبق على القديم والحديث.

٢٦. أوسوالد اشبنغلر: تدهور الحضارة الغربية، ترجمة أحمد الشيباني، نشر دار مكتبة الحياة، ١٩٦٤،

الفصل الثامن عشر.

## ٤ - بين العرب والموالي

كان للموالي فضل كبير في بلاد الاسلام منذ أيام الرسول ، واتخاذهم من بلال بن رباح ، العبد الحبشي ، أول مؤذن له في المدينة . وزاد تأثيرهم في المجتمع الأموي من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، إذ قاموا بنقل الوسائل الحضارية الى المجتمع الجديد ، وبفضلهم تمت العلوم الشرعية ، وهم الذين أوجدوا نواة الثورة الفكرية ، ومبادئ الأفكار الفلسفية الدينية ، كما أنهم كانوا رواد الجدلية في الاسلام<sup>٢٨</sup> . وبقيت الدواوين حتى آخر القرن السابع تُنظَّم باللغات المحلية : البهلوية واليونانية واللاتينية بحسب الأوضاع القائمة<sup>٢٩</sup> . وكان من الموالي رجال أسهموا إسهاماً فعالاً في النهضة العباسية بعد أن زادت شوكتهم مع ضعف العصبية العربية على الأخص .

واتسع استعمال الخلفاء والأمراء للموالي ، وعهدوا اليهم بالمراتب العالية ، والشؤون الخطيرة ، كالقيادة والوزارة والحجابة . وكان المولى يتمتع مبدئياً ، بحقوق الحر نفسها ، إلا ما تفرضه عليه حالة الولاء ، وهو مرتبط بسيده ببعض الروابط ، إذ تقوم حالة خاصة بينهما هي الولاء . فاذا توفي المولى ورثه سيده ، واذا قُتل المولى ، واستحقت الدية ، ولم يكن له وريث ، دُفعت الى سيده . وقال البعض بجواز ملاحقة السيد بدفع الدية عن المولى فما لو استحقت وتلكاً المولى ، او قصر عن دفعها . وإذا أراد أحدهم أن يتزوج أمة محررة فإنه يخطبها من سيدها ، وهو الذي يقبض مهرها . ، وقد شكّل الموالي طبقة خاصة خطيرة الأثر في عهدي بني أمية وبني العباس . وبقيت التفرقة بينهم وبين العرب على أشدها حتى عهد المأمون ، وما كان يحق لهم قبله الاندماج بالعرب في الاحتفالات

٢٧. الموالي هم الأرقاء من غير العرب الذين أعتقوا بعد إسلامهم ، أو ، على العموم ، الأجانب الذين أسلموا ، إذ أطلق بنو أمية لقب المولى على كل مسلم غير عربي ، وسوّهم «الحمر» نسبة الى الأعاجم من فرس وروم على الأخص . ونشأت هذه الطبقة من حاجة الأعاجم الى أصل عزيز راسخ ، وإلى تأمين العيش الكريم ، في بيئة إسلامية مترتبة . وإذا انتسبوا الى قوم او قبيلة بالولاء ، أصبحوا منها ، بناءً على قول الرسول : «مولى القوم منهم» . وإنما أهل الرجل عند العرب الذراري والموالي . وعرف العرب الموالي قبل الإسلام وعَنَوْا بهم من انضم من العرب الأحرار الى القبيلة من غير أبنائها عن طريق الحوار او التحالف او الإعتاق (شجاده علي الناطور : دور الموالي في المجتمع الأموي ، ص ٢) .

٢٨. شجاده علي الناطور : دور الموالي في المجتمع الأموي ، ص ١ .

٢٩. Dominique SOURDEL, L'Islam médiéval, p. 167 .



العامّة<sup>٣٠</sup>. وهذه التفرقة بين المسلمين العرب وغيرهم من المسلمين، جعلت دومينيك سورديل يذهب الى أنّ مبدأ المعاملة الواحدة للمسلمين لم يُطبّق منذُ صدره عن القرآن والرسول<sup>٣١</sup>.

١٠ ومن المعهود أنّ الحضارة الأموية حافظت على طابعها العربيّ مع كل ما داخلها من مظاهر حضاريّة غريبة، أبيزنطية كانت، أم آرامية، أم فارسية، أم غيرها. ولكن، مع أفول الخلافة الأموية، اختفت الامتيازات العربية، وأصبحنا أمام دولة إسلامية لا عربية، كما مرّ بنا<sup>٣٢</sup>. وقد طفقت سلالات إسلامية غريبة تتعايش في الامبراطورية العباسية، أو في الامارات التي تولدت من تفتتها. غير أن هذا التعايش لم يخلُ من تصادم وانكماش، إذ ظلّت العصبية القبليّة تفعل فعلها في نفس العربيّ، وتجعله، بمعرفة وبغير معرفة، يكابر شعب أمتين سبقتاه أشواطاً في مضمار الحضارة والرفي والمنعة. فقد كان الفرس والروم ينعمون بالعزة والتفوق والجاه حين كان العرب قبائل متفرقة تتنافر وتناهش. وظلّ العرب يفتخرون بقبائلهم، ويتناздون بحسب انتمائهم الى شمال الجزيرة العربية أو جنوبها، الى عدنان أو الى قحطان. فافتخر دعبل<sup>٣٣</sup> باليمن، وعدّد مناقبهم، وردّ على افتخار الكُميت<sup>٣٤</sup> بنزار. ولما تولّى معن بن زائدة الشيباني (ت ٧٦٨) اليمن، قتل من أهلها تعصباً لقومه من قبيلة ربيعة النزاريّة. فكان عقبة بن سالم، والي عُمان والبحرين، يقتل من القيسيين تعصباً لقومه من قحطان، وانتقاماً لما فعله معن في اليمن<sup>٣٥</sup>. وكانت العصبية بين النزاريّة واليمانية تسكن حيناً لتهيج من جديد، خصوصاً في الشام، كما حدث عام ٧٩٢ على عهد هرون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٨)<sup>٣٥</sup>.

٢٠ واقتخر العرب على الموالي بالدين الاسلامي الذي ولدوا عليه، مستشهدين بآيات من القرآن: «إن الدين عند الله الإسلام». و «من يتنح غير الاسلام ديناً فلن يقبل

٣٠. Dominique SOURDEL, *L'Islam médiéval*, p. 170 وأحمد أمين: ضحى الإسلام، ٢٢/١.

٣١. Ibid., p. 163.

٣٢. الحسن، دعبل بن علي بن رزين الخزاعي: شاعر شعبي، اشتهر بشعره في آل البيت، وبهجائه (٧٦٥ - ٨٦٠).

٣٣. الكُميت الأسدي (٦٨٠ - ٧٤٤): شاعر أمويّ من أهل الكوفة. عُرف بشاعر الهاشميين.

٣٤. أحمد أمين: ضحى الإسلام، ٢٠/١ - ٢١.

٣٥. الطبري، ٢٥١/٨.



منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين»<sup>٣٦</sup> . فواجههم الموالى بقول القرآن : «إنما المؤمنون إخوة»<sup>٣٧</sup> ، ويقول الرسول : «ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى»<sup>٣٨</sup> ، وبغير هذه من الآيات والأحاديث ، وأقوال الأئمة والخلفاء ، وظهرت منافسة حادة بين العرب والفرس ، فعدد العرب مناقبهم في الشعر والخطابة والفروسيّة ، واعتزّوا بانتصارهم على الفرس ، وآلف بعضهم الكتب في الردّ على الشعويّة<sup>٣٩</sup> ، ومنها كتاب «تفضيل العرب» لابن قتيبة . وقالهم الفرس بتاريخهم ، وحضارتهم ، وأمجادهم السالفة . وجاء في ردّ بعض الشعويّين : «فما الذي تفخر به العرب على العجم ؟ فإنما هي كالذئاب العادية» ، والوحوش النافرة ، يأكل بعضها بعضاً ، ويغير بعضها على بعض ، فرجالها موثقون في حلق الأسر ، ونساؤها سبايا مردفات على حقائب<sup>٤٠</sup> الإبل»<sup>٤١</sup> .

وقوي نفوذ الفرس في العصر العباسي الأول ، وسيطروا على مختلف المرافق ، وكان منهم الوزراء والقوادر المتسلطون بدءاً من عهد المنصور (٧٥٤ - ٧٧٥) ، حتى اضطّر هرون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٨) الى نكبة وزرائه البرامكة ، ومصادرتهم على أموالهم عام ٨٠٣ ، عاملاً على تقليص الجاه الفارسي الذي كاد يضاوي جاه الخلافة العربيّة<sup>٤٢</sup> . وكان الرشيد قد قرّب البرامكة اليه ، واتخذ منهم بطانته ووزرائه ، وفتح لهم باب المشاركة في السلطين التنفيذية والتفويضية ، وفي كل ما يتمتع به من عز وجاه . كتب بعض الباحثين : «وكان جعفر متمكناً عند الرشيد ، غالباً على أمره ، واصلاً منه . وبلغ

٣٦. سورة آل عمران ، الآيتان ١٩ و ٨٥ .

٣٧. سورة الحجرات ، الآية ١٠ .

٣٨. الجاحظ : البيان والتبيين ، ص ٢٢٩ .

٣٩. لم يُطلق اسم الشعويّة في الأساس على الذين يصفّون شأن العرب ، ولا يرون لهم فضلاً على غيرهم ، كما جاء في «لسان العرب» ، غير أن هذا الاسم أُطلق أولاً على الذين يقولون بالمساواة بين الشعوب ، كما نرى في العقد الفريد : «الشعويّة وهم أهل التسوية» ، او كما في «الصحاح» للجوهري : «الشعويّة فرقة لا تفضّل العرب على العجم» . وغلبت تسمية «الشعويّة» ، فيما بعد ، على المعادين للعرب .

٤٠. جمع حقبة : المؤخرة ، وما يُحمل على الدابة خلف الراكب .

٤١. أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ٢١/١ وما بعدها .

٤٢. راجع الخبر عن إيقاع الرشيد بالبرامكة في الطبري ، ٢٨٧/٨ وما بعدها ؛ والمسعودي : مروج الذهب .

٢٣٣/٤ . وقد اختصر أندريه ميكال أسباب نكبة الرشيد للبرامكة على الشكل الآتي :

«Haroûn Ar-Rachid, de plus en plus décidé à gouverner par lui-même, jaloux de la fortune de ses serviteurs, et inquiet de leurs sympathies alides, se débarrassa d'eux en 803» (L'Islam et sa civilisation, p. 123)

من علو المرتبة عنده ما لم يبلغه سواه ، حتى أن الرشيد اتخذ ثوباً له زيقان<sup>٤٣</sup> ، فكان يلبسه هو وجعفر جملةً . وذكر المقدسي أن هرون الرشيد كان مختصاً بجعفر بن يحيى بن برمك حتى أمر فخيّط له قيص ذو جبين يلبسه هرون وجعفر لثقتة به واختصاصه به . وروى الجهشاري أن الرشيد كان يسمي جعفرًا «أخي» ، ويدخله معه في ثوبه ، وقلّده بريد الآفاق ودور الضرب والطرز<sup>٤٤</sup> في جميع الكور ، كما أشركه معه في النظر في المظالم<sup>٤٥</sup> . وما لبث الفرس أن اعتزوا ، من جديد ، على عهد المأمون (٨١٣ - ٨٣٣) الذي ناصرهم على شقيقه الأمين (٨٠٩ - ٨١٣) ، إلى أن قضى عليهم المعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢) بمؤازرة الأتراك ، فانهى العصر العباسي الأول الذي وسموه بسماتهم ، ومهره بظابعهم .

## ٥ - رفاهية الخلافة

بعد أن كان الخلفاء في العصرين الراشدي والأموي يلتزمون ، إجمالاً ، حدود التقشف والبساطة ، أصبح الخليفة العباسي يعتز بمظاهر الأبهة والمجد التي أخذها عن الفرس خصوصاً . فأوقف حاجباً<sup>٤٦</sup> ، أو أكثر ، على بابه ، وانحجب عن الناس وراء ستارة . وقيل إن الترف والإسراف الواسع من قبل الخلفاء ابتداءً مع المهدي<sup>٤٧</sup> . ولا يعني هذا أن من جاء قبله حافظ على أموال المسلمين بكل أمانة وصدق ، فقد أورد الطبري أن أبا جعفر المنصور فرق على جماعة من أهل بيته في يوم واحد عشرة آلاف درهم ، وأمر

٤٣ / الزيق : ما أحاط بالعنق من الثوب .

٤٤ . الطرز والطرز : الأنواب المعلمة المزوقة للخليفة وكبار رجال الدولة . وطرز العامة يصنع المنسوجات لأفراد الشعب تحت إشراف الدولة ورقابتها (شحاده علي الناطور : دور الموالي في المجتمع الأموي ، ص ٨٠) . وكان ديوان الطراز مختصاً بالمعامل التي كانت تنتج الأزياء الرسمية والأعلام في الحرب ، والشارات والشعارات في كل الأحوال (صبيحي الصالح : النظم الإسلامية ، ص ٣١٥) .

٤٥ . هولو جودت فرج : البرامكة ، سليلاتهم وإجباياتهم ، رسالة ماجستير في التاريخ ، جامعة القديس يوسف ، ١٩٨١ ، ص ٢٦ .

٤٦ . الحاجب غير البواب ، ومرتبته عالية . ونرى التفريق بين الحاجب والبواب في هذا النص لابن مسكويه مثلاً : « قصد رجل مضرب ناصر الدولة ... ودخل خيمته وهو نائم فيها ، ولم يشعر به الحراس ولا الحجاب ولا البوابون ولا الخدم » (تجارب الأمم ، ٩٤/٢) .

٤٧ . راجع الطبري ، ١٥٦/٨ وما بعدها ، وص ١٧٢ وما بعدها .



للرجل من أعمامه بألف ألف<sup>٤٨</sup>. وهي مبالغ باهظة لم يجد بها الخلفاء العباسيون إلا في حالات نادرة/ ومع ذلك غلبت شهرة المنصور في التقشف والاقتصاد، ولم ير في داره لهُوقط، ولا ما يشبه اللهو واللعب والعبث<sup>٤٩</sup>. وخلف ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار<sup>٥٠</sup>. أما السفاح، الخليفة الأول، فظهر مظهر القانت الحريص على الدين وفرائضه، وعلى وقار الخلافة، وقيل إنه خلف تسع جبات، وأربعة أقمص، وخمس سراويلات، وأربعة طيالس، وثلاثة مطارف خز<sup>٥١</sup>، مع ما كانت قد بلغت الخلافة على عهده من غنى عن طريق الحروب وغيرها. فقد أصاب أبو مسلم الخراساني من عم السفاح عبد الله بن علي، عندما هزمه عام ٧٥٤، عينا، ومتاعا، وجوهرا كثيرا<sup>٥٢</sup>.

وفتح الرشيد راحتبه على مدهما، وقد بلغ دخل الخلافة على عهده ٣٨٠ مليون دينار<sup>٥٣</sup>، فاشترى خاتما من الياقوت الأحمر يعرف بالجبل كان للأكاسرة بأربعين ألف دينار، ووضعه في إصبه<sup>٥٤</sup>. واصطنعت زبيدة زوجته ثوبا موشى بخمسين ألف دينار<sup>٥٥</sup>. ووجد في منازل الخيزران أمه من الأتواب الموشاة ثمانية عشر ألف ثوب<sup>٥٦</sup>، وكانت غلتها مائة ألف الف وستين ألف الف درهم<sup>٥٧</sup>. ومدح مروان بن أبي حفصة (٧٢٤ - ٧٩٨) الرشيد، فأعطاه خمسة آلاف دينار، وكساه خلعتة، وأمر له بعشرة

٤٨. المصدر نفسه، ٨٤/٨.

٤٩. قيل إنه سمع خادما له يضرب بالطنبور بين الجوارى، وهنّ يضحكن، فأمر بضرب الخادم على رأسه بالطنبور حتى تكسر (المصدر نفسه، ٦٣/٨).

٥٠. المسعودي: مروج الذهب، ١٦٣/٤. ويستنتج من قول أورده الطبري للمنصور أن البخل وحتى الاقتصاد لم يكن طبعاً فيه، وإنّا اعتمدناه حرصاً على دعم السلطان والدين والدنيا. قال المنصور: «لولا أنّ الأموال حصن السلطان ودعامة للدين والدنيا وعزّها وزينتها، ما بت ليلة وأنا أحرز ديناراً ولا درهماً، لما أجد لبذل المال من اللذائة، ولما أعلم في إعطائه من جزيل المثوبة» (الطبري، ٨٨/٨).

٥١. الطبري: ٤٧١/٧.

٥٢. المصدر نفسه: ٤٨١/٧.

٥٣. Jacques PIRENNE, *Les Grands courants*, II/13.

٥٤. المسعودي: مروج الذهب، ٨٠/٥.

٥٥. المصدر نفسه، ٢١٣/٥.

٥٦. الطبري، ٢٠٥/٨.

٥٧. مروج الذهب، ١٩٧/٤.

من رقيق الروم ، وحمله على برذون من خاصّ مراكبه<sup>٥٨</sup>. وقدّم إبراهيم بن المهدي الى الرشيد جاماً فيه مئة وخمسون لساناً من ألسنة السمك ثمنه أكثر من ألف درهم ، فعفّ الرشيد عن أكله ، وعنف إبراهيم على إسرافه<sup>٥٩</sup>.

ولما أفضت الخلافة الى محمد الأمين ، أمر ، بعد بيعته بيوم واحد ، ببناء ميدان حول قصر أبي جعفر ببغداد للصوالة واللعب<sup>٦٠</sup>. وكان المعتز ، الخليفة الثالث عشر ، أول خليفة أظهر الركوب بحلية الذهب<sup>٦١</sup>. وعندما ركب الخليفة المقتدر عام ٩٣٢ لقتال مؤسس الخادم الذي ثار عليه ، خرج من قصره وعليه خفّتان<sup>٦٢</sup> ديباج فضي وعمامة سوداء<sup>٦٣</sup> ، وعلى كتفيه وصدره وظهره البردة النبوية ، وهو متقلد بذي الفقار سيف الرسول ، وحامله آدم أحمر ، وفي يده اليمنى الخاتم والقضيب . وسار معه ولي عهده ، وعليه خفّتان ديباج وعمامة بيضاء ، وأمامه علم الخلافة الأسود ، وعليه بالكتابة البيضاء : محمد رسول الله<sup>٦٤</sup>.

وكان المقتدر ، لما استقرّ له أمر الخلافة ، فوّض الأمور الى أبي الحسن علي بن محمد بن الفرات ، فدبّر بها أبو الحسن كما يدبّرها الخلفاء ، وتفرّد المقتدر على لذاته متوقفاً ، واحتشم الرجال ، وأطرح الجلساء والمغنيين ، وعاشر النساء ، فغلب على الدولة الحرم والخدم<sup>٦٥</sup>. وأتلف المقتدر نبأً وسبعين ألف دينار سوى ما أنفق في موضعه وأخرجه في وجوهه . وأخذ من أموال ابن الفرات ، في مصادرتة ومصادرات كتّابه وأسيابه ، أربعة آلاف ألف وأربعمائة ألف دينار<sup>٦٦</sup>.

﴿وكانت طريقة تنويع الخليفة أن يعقد لواء نفسه على الرسم المعروف ، وأن يتسلّم خاتم الخلافة ممن يحفظه ، على الطريقة العربية البسيطة . أما أمراء الأطراف ، فكانوا

٥٨. الطبري ، ٣٤٧/٨ - ٣٤٩.

٥٩. مروج الذهب ، ٢٢٧/٤.

٦٠. الطبري ، ٣٧٢/٨.

٦١. مروج الذهب ، ٩٠/٥.

٦٢. نوع من الثياب.

٦٣. كان شعار العباسيين السواد واليباض.

٦٤. ابن مسكويه : تجارب الأمم ، ٢٣٥/١ و ٢٣٧. قُتل المقتدر في هذه المعركة مذبحاً بالسيف.

٦٥. المصدر نفسه ، ١٣/١.

٦٦. المصدر نفسه ، ٢٣٨/١ - ٢٣٩.

يضعون ، ساعة تتويجهم ، تاجاً مرصعاً بالجواهر ، ويلبسون طوقاً وسوارين من الذهب المنظوم بالجواهر . وكان لباس الحاشية الرسمي ، في القرن الثالث الهجري ، أحمر اللون . وكان يُحمل على رأس خلفاء العباسيين والفاطميين شمسة الخلافة التي سماها المصريون مظلة ، وكانت لديهم علامة أبهة الخلافة ، ولونها يشابه لون ثوب الخليفة ، وكان لباس الخلفاء الفاطميين بمصر البياض ، وهو أيضاً شعار العلويين . وكانت ألويتهم بيضاء ، وعليها أحياناً ، أهلة من ذهب ، في كل منها صورة سبع من الدباج الأحمر . وفي بغداد ، كان يُضرب على باب قصر الخلافة بالطبول والدفادب<sup>٦٧</sup> ، ويُنفخ بالأبواق في أوقات الصلاة ، ولا يوقف ذلك إلا أيام الحزن والعزاء .

لأخذ الخليفة العباسي الأول لقب أمير المؤمنين ، وهو اللقب البسيط الذي دُعي به سابقوه . أما الخليفة الثاني ، فقد سنّ عادة النسبة الى الله ، فسمي المنصور بالله . وتهاق الأمراء ، والوزراء ، وكبار الموظفين ، على الألقاب المنسوبة الى الدولة ، كعهد الدولة ، وعز الدولة ، وغير ذلك . ثم أخذ الخليفة ، فيما بعد ، يبيع الألقاب بيعاً ، ويضمن الولايات ، حتى غدا ريعها في نهاية القرن العاشر من أوسع أبواب دخله<sup>٦٨</sup> فقد قلد المقتدر يوسف بن أبي الساج أعمال أرمينية وآذربيجان ، وعقد له عليها ، وضمنه إياها ، بمائة ألف وعشرين ألف دينار في كل سنة ، محمولة الى بيت مال العامة بالحضرة<sup>٦٩</sup> . وكثيراً ما كان عمال الدولة يُبدلون من سنة الى سنة<sup>٧٠</sup> . ولم يكن الإقبال على الولاية والعمالة عبثاً ، بل كثيراً ما كان الوالي ، على غرار البرامكة ، يبالغ في استغلال وظيفته ، خصوصاً أنه لا يضمن دوامها . وكان ، في بعض الأحيان ، يغامر ، ويستقل عن الخليفة ، منشئاً ملكاً خاصاً ، كما فعل نصر الدولة<sup>٧١</sup> الذي استقل بديار بكر . لقد تزوج هذا الوالي أربع نساء ، وكان له ثلاثمائة وستون جارية حظايا ، لكل ليلة عروس

٦٧. مثل الطبول .

٦٨. آدم متر : الحضارة الاسلامية ، ٢٥٥/١ - ٢٦٢ . ويمكن التوسع في الاطلاع على رفاة الخلافة في المرجع نفسه ، ٢٠٩/٢ وما بعدها ؛ وفي تاريخ العرب للدكاترة حتي وجري وجبور ، ٣٦٨ - ٣٧٣ ؛ وفي ضحى الاسلام ، ١٠١/١ وما بعدها .

٦٩. ابن مسكويه : تجارب الأمم ، ١٦/١ .

٧٠. الطبري ، ٤١/٨ .

٧١. ابو نصر أحمد بن مروان .

جديدة ، وكان له من المغنيات ، والرقاصات ، والعمالات ، وأصحاب سائر الملاهي ، ما لم يكن لسواه من الملوك والسلطين<sup>٧٢</sup> . وكان ابن دمنة<sup>٧٣</sup> إذا ركب ، «يقاد بين يديه من التجائب سبعون نجية بمراكب الذهب مرصعاً بالجواهر ، وحصل له من التجميل والأموال ما لا يوصف»<sup>٧٤</sup> . وكانت خلع الولاة والأمراء في مطلع القرن الحادي عشر سبع قطع : القباء ، والفرجية ، والحبّة ، والعمامة ، وسواري ذهب مرصعة ، وفرس بمركب ذهب<sup>٧٥</sup> .

وحوالى عام ٨١٠ ، أدخل الخليفة الأمين (٨٠٨ - ٨١٣) ، الى المجتمع العباسي ، الخصيان<sup>٧٦</sup> . والخصاء محرم في الإسلام ، ما كان منه للانسان او للبهائم . وكان استعمال الخصيان معهوداً في منازل كبار السادة في الدول الشرقية القديمة ، وفي الدولة البيزنطية . أما الأمين ، فتعلق بالخصيان ، وطلبهم ، وابتاعهم ، وصيرهم لخلوته في ليله ونهاره ، وقوام طعامه وشرايه ، وأمره ونهيه ، ورفض النساء الحرائر والإماء ، فقال أبو نواس<sup>٧٧</sup> ، في حبسه ، ساخراً :

|                      |                               |
|----------------------|-------------------------------|
| إحمّدوا الله جميعاً  | يا جميع المسلمينا             |
| ثم قولوا ، لا تمّلوا | ربّنا أبقِ الأميّنا           |
| صيرّ الخصيان حتى     | صيرّ التعنين ديننا            |
| فاقتدى الناس جميعاً  | بأمر المؤمنيننا <sup>٧٨</sup> |

ووجّه الأمين الى كل البلدان في طلب الملّهين ، وضّمهم اليه ، وأجرى لهم الأرزاق ، ونافس في ابتياع فرّه الدواب ، وأخذ الوحوش والسباع والطيّر وغير ذلك ، وقسم ما في بيوت الأموال ، وما بحضرته من الجواهر ، في خصيانه وجلسائه ومحدّثيه ، وحمل اليه ما كان في الرقة من الجواهر والخزائن والسلاح ، وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ،

٧٢. تاريخ الفارقي ، ص ١٦٩ .

٧٣. أمير آمد ، وآمد مع ميّا فارقين والموصل والرها ونصيبين وغيرها في جزيرة أقور بين دجلة والفرات .

٧٤. تاريخ الفارقي ، ص ٨٢ - ٨٣ .

٧٥. المصدر نفسه ، ص ١٠٨ .

٧٦. سّمّاهم البعض «الجنس الثالث» . وعادة الخصاء نشأت قديماً إرضاءً للآلهة .

٧٧. الشاعر الحسن بن هانئ (٧٦٢ - ٨١٣) .

٧٨. الطبري ٥٠٨/٨ و ٥١٩/٨ ؛ وآدم متر : الحضارة الإسلامية ، ١٥٧/٢ - ١٥٨ .

ومواضع خلوته ، ولهوه ، ولعبه ، بقصر الخلد وغيره<sup>٧٩</sup> ... وأخبر المسعودي في مروج الذهب أنه «لما أفضى الأمر الى الأمين ، قدم الخدم ، وآثرهم ، ورفع منازلهم . فلما رأت أم جعفر<sup>٨٠</sup> شدة شغفه بالخدم واشتغاله بهم ، اتخذت الجوارى المقدودات الحسان الوجوه ، وعممت رؤوسهن ، والبستهن الأقبية<sup>٨١</sup> والمناطق ، فاست قدودهن ، وبرزت أردافهن ، وبعثت بهن اليه ، فاختلفن بين يديه ، فاستحسنهن ، واجتذبن قلبه إليهن ، وأبرزهن للناس من الخاصة والعامة ، فاتخذ الناس الجوارى المطمومات ، والبسوهن الأقبية والمناطق ، وسموهن الغلاميات<sup>٨٢</sup> . وتركت تجارة الخصيان لليهود والنصارى . ولم يكن الواثق (٨٤٢ - ٨٤٧) بن المعتصم أقل رفاهة من الأمين ، إذ كان شهوانياً ، متهتكاً ، فوضوياً ، تعلق بالشراب ، والغناء ، والملذات ، والمجون<sup>٨٣</sup> .

واهتم العباسيون اهتماماً شديداً بالموسيقى ، والرقص ، والغناء . وكان من ألعابهم الشطرنج ، والزد ، وحراش الكباش والديوك والكلاب ، ولعب الكرة والصولحان على ظهور الجياد<sup>٨٤</sup> ، واستعملوا البازي والباشق للصيد<sup>٨٥</sup> . ولم يتورع الخلفاء عن السكر والمجون . وشعر أبي نواس في سكر الأمين ومجونه ذائع معروف . ونقرأ في «مروج الذهب» أن المتوكل «سكر سكرًا شديداً»<sup>٨٦</sup> . و «كان المعتمد مشغوقاً بالطرب ، والغالب عليه المعاقرة ، ومحبة أنواع اللهو والملاهي»<sup>٨٧</sup> .

٤

٧٩. الطبري ، ٥٠٩/٨ .

٨٠. زبيدة أمه .

٨١. جمع قباء ، وهو الثوب الذي يلبس فوق القميص .

٨٢. مروج الذهب ، ٢١٣/٥ .

٨٣. MICHEL LE SYRIEN, *Chronique*, III, p. 113; *Chronique*, anonyme, 1234, II, pp. 25-28.

٨٤. تشبه لعبة الكرة والصولحان لعبة البولو (Polo) الحديثة ، التي يحاول فيها كل فريق من الفريقين اللاعبين أن يرسل الكرة الى هدف الخصم .

- مروج الذهب ، ٢٢٥/٤ - ٢٢٦ - ٢١٢/٥ ؛ وضحي الإسلام ، ١٢٤/١ .

٨٥. الطبري ، ٤٩/٩ .

٨٦. مروج الذهب ، ٣٧/٥ .

٨٧. المصدر نفسه ، ١٢٦/٥ .

## ٦. مستوى المعيشة

كانت أحوال المعيشة في المجتمع العباسي تتفاوت بين الغنى الكثر والفقير المدقع.<sup>٨٨</sup> حكى أن محمد بن سليمان<sup>٨٩</sup> ركب يوماً بالبصرة ، وسوار القاضي يسايره في جنازة ابنة عم له ، فاعترضه مجنون ، وقال له : « يا محمد ، أمن العدل أن تكون غلتك في كل يوم مائة الف درهم ، وأنا أطلب نصف درهم ، فلا أقدر عليه ؟ »<sup>٩٠</sup> ومع ظهور فارق المعاش في هذا الشاهد ، يلتفت القارئ نعت الرجل الفقير الثائر بالمجنون ، وهو دليل على رضوخ الطبقة الفقيرة لوضعها عموماً ، ونظرتها الى الطبقة الغنية المرفهة بمنظار « ألف ليلة وليلة » الخيالي . والكلام على الطبقة في المجتمع العباسي طويل متشعب ، إذ إن الطبقات والشعوب التي شكلت هذا المجتمع الخليط ، لم تندمج على كل المستويات ، وإن اندمجت في بعض المهن او الوظائف الرسمية . ونكتفي بالانقسام الأهم بين عامة الشعب او سواده ، وبين خاصة الأرستقراطيين . ولا مندوحة عن القول إن الطبقة العالية كانت تتجمع حول الخليفة في العاصمة ، وحول الولاة والأمراء في سائر الأنحاء<sup>٩١</sup> . وكان العاملون في الزراعة ، على العموم ، يشكلون طبقة دون طبقة التجار والمتنفذين في الخلافة ، أما سيادة الاقطاع بمفهومنا الحديث ، او كما ظهرت في الغرب ، فلم يكن لها وجود آنذاك<sup>٩٢</sup> .

وكان مبلغ سبعمائة دينار في حيازة إنسان يُعتبر ثروة طائلة . وكان الرجل وزوجته من عامة الناس يكتفيان في السنة بثلاثمئة درهم<sup>٩٣</sup> . قال أبو العتاهية :

إني أرى الأسعارَ أَسَدَ عارَ الرعيَةِ عاليَةٍ وأرى المواردَ نَزْرَةً وأرى الضرورةَ فاشِيَةً

٨٨. وصف أندريه ميكال واقع بغداد على الشكل الآتي :

«Luxe inouï, folies paradisiaques, plaqués sur l'effroyable misère des quartiers pauvres, sur la poussière, les fumées et la sueur des faubourgs» (L'Islam et sa civilisation, p. 118).

٨٩. والي البصرة على عهد هرون الرشيد.

٩٠. مروج الذهب ، ١٩٧/٤ .

٩١. D. SOURDEL, L'Islam médiéval, pp. 186-188 .

٩٢. Ibid., p. 185 .

٩٣. آدم متر : الحضارة الإسلامية ، ٢٠٩/٢ .

وأرى التيسامى والأرا ملّ في البيوت الخالية.<sup>٩٤</sup>

والى جانب ذلك، يُروى عن أحد أبناء الولاة أنّه ورث عن خادم لأبيه، وابن عمّه، ماتا في يوم واحد، أربعين الف دينار، فعمر داراً بألف دينار، واشترى آلات وفرشاً وثياباً وجواري ثلاث بسبعة آلاف دينار، وسلّم لتاجر ألّني دينار يتجر له فيها، وأودع في بطن الأرض عشرة آلاف للشدائد، وابتاع ضيعة تغلّ في كل سنة ما يزيد على مقدار نفقته.<sup>٩٥</sup>

واشتهر في التاريخ العباسيّ البذخ الفاحش الذي مثله عرس المأمون يوم زواجه ببوران بنت وزيره الحسن بن سهل، إذ وقف العريسان على حصير ذهبيّ مرصّع بالدرّ والياقوت، فنثرت على بوران الف درّة من صينيّة ذهب، وأوقدت شموع العنبر، ووزن كل واحدة مثناً رطل، فانقلبت الظلمة ضياءً. ونثر الحسن بن سهل من الأموال ما لم ينثره ولم يفعله ملك قط في جاهليّة ولا إسلام. نثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وجوارٍ ودواب... ثم نثر على سائر الناس الدنانير، والدراهم، ونوافج<sup>٩٦</sup> المسك، ويبيض العنبر الخ... حتى أن المأمون نفسه أنكر ذلك، وقال: هذا سرّف<sup>٩٧</sup>.

وكان التجار، والعسكريّون، والأغنياء يعاملون الطبقة الشعبيّة معاملة سيّئة<sup>٩٨</sup>. ونظرة الى مقامات بدیع الزمان الهمداني<sup>٩٩</sup>، والقاسم بن علي الحريري (١٠٥٤ - ١١٢٢)، تعطينا فكرة واضحة عن تدنيّ مستوى المعيشة في المجتمعات الشعبيّة، ممّا تسبّب في نشوء جماعة المكدّين الذين لجأوا الى التسوّل والحيلة، وأظهروا مختلف المهارات لتأمين حاجاتهم الملحة من المأكّل والملبس والمأوى. وأبو حيّان التوحّيدي<sup>١٠٠</sup>، وهو الأديب البارع المشهور، عاش على نحو أربعين درهماً في الشهر. وتوجّه الى صديقه المهندس أبي الوفاء

٩٤. ضحى الإسلام، ١/١٢٩.

٩٥. متر: المرجع السابق، ٢/٢٠٩.

٩٦. جمع نافجة: وعاء المسلك.

٩٧. المسعودي: مروج الذهب، ٤/٣٢٧؛ والطبري، ٨/٦٠٧ - ٦٠٨؛ وحني: تاريخ العرب، ص ٣٦٩.

٩٨. A. MIQUEL, *L'Islam et sa civilisation*, p. 146.

٩٩. أبو الفضل أحمد بن الحسين (٩٦٨ - ١٠٠٧).

١٠٠. علي بن محمد، تلميذ الجاحظ، توفي حوالي ١٠١٠.

قائلاً: «خَلَّصَنِي أَيُّهَا الرَّجُلُ مِنَ التَّكْفُفِ، أَنْقِذْنِي مِنْ لِبْسِ الْفَقْرِ، أَطْلِقْنِي مِنْ قَيْدِ الضَّرِّ، اشْتَرِنِي بِالْإِحْسَانِ، اِعْتَبِدْنِي بِالشُّكْرِ، اِسْتَعْمِلْ لِسَانِي بِفَنُونِ الْمَدْحِ، اِكْفِنِي مُؤُونَةَ الْغَدَاءِ وَالْعِشَاءِ»<sup>١٠١</sup>.

وبالطبع، اختلف ميزان الأحوال بين فترة وفرة، وعهد وعهد، فكانت تتحسن الأحوال مع استتباب الأمن وجود الطبيعة، وتردّى مع الشغب والزلازل والقحط والحروب. ففي خلافة المطيع لله (سنة ٩٤٥)، أفرط الغلاء حتى عدم الناس الخبز البتّة، وأكلوا الموتى والحشيش والميتة والجيف. وكانت الدابة، إذا رائت، اجتمع على الروث جماعة ففتشوه، ولقطوا ما يجدون فيه من شعير، وأكلوه... ولحق الناس، من ذلك، في أحشائهم أورام، ومات أكثرهم، ومن بقي كان في صورة الموتى<sup>١٠٢</sup>.

## ٧. اللباس

انتشرت، في الخلافة العباسية، الأزياء الفارسية، فقلّدها العرب، أو تأثروا بنهجها، فلبس الناس القلانص الطوال. وقيل إن المنصور هو أول من لبس القلانص المفرطة في الطول، وأمر الناس بلبسها<sup>١٠٣</sup>. ونقل الصليبيون هذه العادة الى بلادهم. وكان البياض من لبس الرجال والنساء المهجورات. أمّا سائر النسوة فيجتنبهن إلا لصنع السراويلات، ولا يلبسن إلا ما كان لونه طبيعياً لأنّ الألوان الاصطناعية كانت لبس النبطيات والإماء. وكانت السراويلات ممّا يكمل به لبس الرجال، وهي لباس غير عربي. وكانت الطبقات والمراتب تميّز بلباسها، فللكتاب الدرايع<sup>١٠٤</sup>، وللعلماء

١٠١. الإمتاع والمؤانسة، الصفحة الأولى من المقدمة، وص ٢٢٦.

١٠٢. ابن مسكويه: تجارب الأمم، ٩٥/٢ و ١٦٨.

١٠٣. ولكي تستقيم هذه القلانص، كانوا يحتالون لها بالقصب من داخل، فقال ابو دلامة (ت ٧٧٧):

وَكُنَّا نَرْجِي مِنْ إِمَامٍ زِيَادَةً      فزاد الإمام المصطفى في القلانص  
تَرَاهَا عَلَى هَامِ الرِّجَالِ كَأَنَّهَا      دَنَانُ يَهُودٍ جُلَّتْ بِالْبِرَانِصِ

(الطبري، ٤٢/٨ - ٤٣)

وقبل القلانص كانت السيادة عند العرب للعائم، والعامة تُلفّ لَقاً على الرأس. قال عمر بن الخطاب (ت

٦٤٤): «العائم تيجان العرب» (الجاحظ: البيان والتبيين - دار صعب، بيروت ١٩٦٨، ٣٥٤/٢).

١٠٤. جمع ذِراعَة، وهي جبة مشقوفة المقدّم.



الطيلسان، وللقواد الأقبية الفارسية القصيرة. ثم أصبح القباء لباساً رسمياً لرجال الدولة عام ٩١٢. وفي بعض النواحي أو المدن، ربما اختلفت الألبسة بين مختلف الفئات، ففي شيراز لم يميزوا «أهل الطيالة»، بل لبس الطيلسان الوضع والعالم والجاهل، وإن تكن هذه المخالفة مستهجنة ومرفوضة بوجه عام. وقد روى المقدسي، وهو كاتب مؤرخ من «أهل الدرايع»، أن الوزير كان يرفض استقباله وهو مُطيلس، حتى إذا عاد بالدراعة، أذن له بالمشول بين يديه<sup>١٠٥</sup>.

وكان الأغنياء يلبسون قميصين فوق السراويلات، أما الجوارب، فكان يلبسها الرجال والنساء على السواء. وكانت عادة خضاب الشعر منتشرة في بلاد الشرق عموماً<sup>١٠٦</sup>. جاء في كتاب البيان والتبيين للجاحظ (٧٧٥ - ٨٦٨): «وقد يلبس الناس الخفاف والقلائس في الصيف، كما يلبسونها في الشتاء، إذا دخلوا على الخلفاء، وعلى الأمراء، وعلى السادة والعطاء، لأن ذلك أشبه بالاحتفال وبالتعظيم والإجلال، وأبعد من التبذل والاسترسال، وأجدر أن يفصلوا بين مواضع أنسهم في منازلهم، ومواضع انقباضهم. وللخلفاء عمّة، وللفقهاء عمّة، وللبغالين عمّة، وللأعراب عمّة، وللصوص عمّة، وللأنباء عمّة، وللروم والنصارى عمّة، ولأصحاب التشاخي<sup>١٠٧</sup> عمّة. ولكل قوم زيّ: فللقضاء زيّ، ولأصحاب القضاة زيّ، وللشرط زيّ، وللكتاب زيّ، ولكتاب الجنّة زيّ. وأصحاب السلطان ومن دخل الدار على مراتب: فمنهم من يلبس المبطنة، ومنهم من يلبس الدراعة، ومنهم من يلبس القباء، ومنهم من يلبس «البازيكند»، ويعلق الخنجر، ويأخذ الجرّز<sup>١٠٨</sup>، ويتخذ الحمة. وكانت الشعراء تلبس الوشي، والمقطعات، والأردية السود، وكلّ ثوب مشهر. وقد كان عندنا، منذ نحو من خمسين سنة، شاعر يتزياً بزيّ الماضين، وكان له برد أسود يلبسه في الصيف والشتاء، فهجاه بعض الطيّاب من الشعراء، فقال في قصيدة له:   
بِعْ بُرْدَكَ الْأَسْوَدَ قَبْلَ الْبَرْدِ فِي قَرَّةٍ تَأْتِيكَ صَمًّا صَرْدًا<sup>١٠٩</sup>

١٠٥. المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٧.

١٠٦. آدم متر: الحضارة الإسلامية، ٢/٢٢٦ وما بعدها؛ والطبري، ٧/٤٨٢.

١٠٧. تشاخي: تحازن، أي تظاهر بالحزن.

١٠٨. القضيبي من حديد أو فضة.

١٠٩. الجاحظ: البيان والتبيين، ٣/٤٤٢ - ٤٤٣.

وشاع ، آنذاك ، لبس القميص المزّزر . أما ثياب الخليفة العادية ، فكانت درّاعة ، وطيلسان ، وقلنسوة طويلة<sup>١١٠</sup> .

## ٨. الدور والقصور

كانت الدور في سامرا<sup>١١١</sup> تبنى على مثال واحد ، يصل بينها وبين الشارع أو الدرب دهليز مسقوف يقضي الى صحن واسع ، قائم الزوايا ، يبلغ عرضه ثلثي طوله في العادة ، ويتصل به من جانب العرض القاعة الكبرى . ويحيط بالصحن غرف متجاورة مربعة للسكنى ، وللمرافق المنزلية . وفي معظم الدور أفنية<sup>١١٢</sup> صغرى ثانوية تشتمل على أماكن للمرافق المنزلية أيضاً . ولا تخلو الدور من حمامات ومحار تحت الأرض . وكثيراً ما يكون فيها آبار . وتشتمل ، أحياناً ، على صحن ذات أساطين ، وعلى سراديب للسكنى مجهزة بوسائل التهوية . والدور كلها من طبقة واحدة ، وقد يبلغ عدد الغرف فيها ستين غرفة ، وبها نوافذ تقفل بألواح من الزجاج الملون<sup>١١٣</sup> . واستعمال السراديب للسكنى في أيام الصيف ، انقضاءً للحرّ ، عادة شرقية قديمة . وورد عن خصائص مدينة أربان أن فيها من الأبنية تحت الأرض مثل ما فوقها ، وأنّ الماء يجري تحت الأرض وفي السراديب ، وفي أشهر الصيف يستروح الناس فيها . وذكر المقرئزي من محاسن مصر أن أهلها لا يحتاجون في حرّ الصيف الى الدخول في جوف الأرض ، كما يضطرّ أهل بغداد . وكان الأغنياء يستغيثون عن دخول السراديب بنصب قبة الخيش او بيت الخيش الذي كانوا يبلّونه بالماء ، أحياناً ، ليردّ جوّه . روى الطبري عن الرشيد أنّه « كان لا يُخيش البيت الذي هو

١١٠ . الجاحظ : البيان والبيان ، ٤٤٣/٣ ، والطبري ٤٨٢/٨ .

١١١ . قرية صغيرة قرب دير للنصارى . وسّعها المعتصم بعد أن اشتراها بأربعة آلاف دينار ، ونقل إليها الجنود الأتراك ، وجعلها عاصمة له عام ٨٣٦ ، وسماها «سّر من رأى» . واستتم بناءها المتوكّل فأصبح طولها سبعة فراسخ (ابن حوقل : المسالك والممالك ، ص ١٦٧) . فكتفت بغداد نصف قرن وأخلتها من خلفاتها وأمراتها ومن قسم من تجارها . ولكنها بعد المعتمد ، أخذت تخلو شيئاً فشيئاً ، حتى غدت أثراً من الآثار (مروج الذهب ، ٣٥١/٤ -

٣٥٢ : و A. Miquel, *L'Islam et sa civilisation*, p. 120 ؛ ورحلة ابن جبير ، ص ١٦٦) .

١١٢ . جمع فناء ، وهو الساحة أمام البيت .

١١٣ . يمكن تكوين فكرة حسنة عن هذه الدور بالاطلاع على وصف بيوت حلب التي حافظت على طابعها العربي في العهد العثماني ، في كتاب الدكتور أنطوان عبد النور : *Introduction à l'histoire urbaine de la Syrie ottomane (xvi-xviii s.)*, p. 97 .

فيه لأنه كان يؤذيه ، ولكنه كان يدخل عليه برد الخيش»<sup>١١٤</sup> . واستعملوا في البيوت الصيفية قاشاً كشرع السفينة يُعلّق في سقف البيت ، ويُبلّ بالماء ، ويُرش بماء الورد ، ويُشدّ بجبل ، فيروح ويحيى كالمروحة ، ويهبّ منه نسيم بارد طيب الرائحة . وكان أهل بغداد (ولا يزالون) ينامون في ليالي الصيف على سطوح المنازل<sup>١١٥</sup> .

وكانت دور الأغنياء تنقسم الى ثلاثة أقسام : مقاصير الحرّم ، وحجرات الخدم ، ومحالّ السلام الخاصة بالضيافة ، يحيط بها حدائق غناء<sup>١١٦</sup> . ومثلها ، تقريباً ، قصور الخلفاء ، والأمراء ، والوزراء ، الى جانب القباب والأروقة . وبدا تأثر العباسيين بالأكاسرة في بناء قصورهم (وأصحا)<sup>١١٧</sup> . ومع المتوكّل ، عُرف نمط من القصور باسم الحيريّ ، ينقسم الى ثلاثة أقسام : الباب الأكبر في الوسط ، والى جانبيه بابان صغيران . وفي الطريق الموصل الى القصر ثلاثة أبواب ضخمة يدخل منها الفارس برمحه . واتبعه الخلفاء من بعده . وورد لياقوت «أنّ واجهة قصر التاج الذي بناه المعتضد كانت على خمسة عقود ، أقيم كل عقد على عشرة أساطين من الرخام»<sup>١١٨</sup> .

وكانت دار الخلافة مدينة قائمة بذاتها ، تمتدّ بقصورها وبساتينها وجنائنها فراسخ<sup>١١٩</sup> عديدة . ومثلها دور الوزراء ، والقوّاد ، وكبار الرجال ، تتألف من عدّة قصور متباعدة . وكثيراً ما كانت القصور تتصل بسراديب جوفية . وكان الأمراء يدخلون دار الخلافة على جيادهم ، حتّى اذا وصلوا الى الموضع الذي يحلّون فيه ، ترجّلوا ، ودخلوا ، والحجاب حولهم<sup>١٢٠</sup> . وأكثر الخلفاء العباسيون من بناء القصور ، وأصبحت مناجعهم ودروبهم المطروقة في مواعيد او مواسم معينة ، محفوفة بها ، كطريق مكّة وغيرها<sup>١٢١</sup> . وممّا أسهم في الإفراط ببناء القصور توزّع الخلافة في ولايات شتى . وكثيراً ما كانت هذه

١١٤ . الطبري ، ٣٥٦/٨ .

١١٥ . آدم متر : الحضارة الإسلامية ، ٢٠٩/٢ - ٢١٢ .

١١٦ . حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٣ ، ص ٤٣٢ .

١١٧ . عيون الأخبار ، ٣١٤/١ .

١١٨ . حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٣ ، ص ٤٣٤ ، وفي «مروج الذهب» ، ج ٥ ، ص

٦ ، وصف آخر لبناء الحيري على عهد المتوكّل ، وقد قال إنه معروف «بالحيري والكمين والأروقة» .

١١٩ . الفرسخ حوالى ٨ كلم .

١٢٠ . آدم متر : الحضارة الإسلامية ، ٢١٤/٢ وما بعدها .

١٢١ . الطبري ، ١٣٦/٨ .

القصور تنهّدم وتزول مع أقول نجم صاحبها. ومهما كان أمد هذه المنشآت طويلاً أو قصيراً، ومثلها المدن شأن بغداد وسامرا، فقد كانت تنبت في كل مكان<sup>١٢٢</sup>. وكان في قصر المقتدر (٩٠٨ - ٩٣٢) شجرة من الفضة وزنها خمسمئة ألف درهم، تقوم وسط بركة مدوّرة، ولها ثمانية عشر غصناً، لكل غصن فروع كثيرة، عليها الطيور من كل نوع مذهبة ومفضضة، وأكثر قضبان الشجرة فضّة، وبعضها مذهب. ولها ورق مختلف الألوان، يتحرك كما تحرك الريح ورق الشجر. وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر. وقد ذكر ابن المعتز (٨٦١ - ٩٠٨) هذه الشجرة في شعره<sup>١٢٣</sup>. وكان العباسيون يبيّضون حيطان الدور<sup>١٢٤</sup>. وكان لمعظمها في بغداد كواشك ورواشن<sup>١٢٥</sup> في الطبقة السفلى يصطدم بها راكب الدابة إذا لم يتنبّه لها. وكان يستتر بها أهل العيب والفساد حتى اشتهرت بذلك. وكانت شوارع مدينة شيراز ضيقة لا تتسع لسير بهيمنتين معاً. وكان أهلها في بلاء من اصطدام رؤوسهم بالرواشن. وكانت أبواب الدور تصنع من الخشب المحلّى بالنقوش، وعلى الباب حلقة تدور بلولب، يطرق بها الباب<sup>١٢٦</sup>. ولم تكن الغرف، عادةً، كثيرة الأثاث، وكانت تغلفها الستور والبسط الملونة<sup>١٢٧</sup>. وخزانات الثياب الأثاث الوحيد الظاهر. ولم تكن الأدراج<sup>١٢٨</sup> معروفة، والأخونة<sup>١٢٩</sup> لا تستعمل لغير الطعام<sup>١٣٠</sup>.

واستعمل العباسيون الحمامات التي شيّدوا الكثير منها أخذاً عن اليونان والرومان<sup>١٣١</sup>.

١٢٢. A. MIQUEL, *L'Islam et sa civilisation*, p. 117.

١٢٣. آدم متر: الحضارة الإسلامية، ٢٢٠/٢.

١٢٤. عيون الأخبار، ٣١١/١.

١٢٥. الكشك: شبه رواق بارز عن بقية البيت. والروشن: الرف.

١٢٦. إن الأزقة القديمة في بعض المدن العربية، لا تزال تعطي فكرة واضحة عن هذه الدور وأبوابها، كأزقة حلب القديمة مثلاً.

١٢٧. عيون الأخبار، ٣١٢/١.

١٢٨. جمع درج.

١٢٩. جمع خيوان، وهو ما يوضع عليه الطعام وقت الأكل.

١٣٠. آدم متر: الحضارة الإسلامية، ٢٢١/٢ - ٢٢٢.

١٣١. يتبين من آثار أوغاريت (رأس شمرا) شمالي اللاذقية أنّ الفينيقيين عرفوا الحمامات العامة قبل اليونان والرومان.

غير أن المسلمين المتزمتين نظروا الى الحمامات العامة نظرة شكّ وارتياب. ويؤثر عن علي بن أبي طالب قوله: «بئس البيت الحمام، تُكشف فيه العورات، وترتفع فيه الأصوات، ولا تُقرأ فيه آية من كتاب الله». وكان في جانبي بغداد، في النصف الأول من القرن العاشر، عشرة آلاف حمام. ثم أخذ هذا العدد يتناقص مع الأيام، حتى غدا ألف حمام في القرن الثاني عشر<sup>١٣٢</sup>.

وكانت مصر العليا معدن الرخام الجيّد، ففي الجانب الشرقيّ من الصعيد جبل عظيم<sup>١٣٣</sup> من رخام يقطعون منه الحجارة، ويحلبونها بالرمل، ويصنعون منها الأعمدة وغيرها. ومن هذا الجبل كان يُجلب الرخام الى بيروت وبلاد الشام عمومًا<sup>١٣٤</sup>. وكانت القسطنطينية، عاصمة مصر على النيل، نحو ثلث بغداد، وعلى غاية من العمارّة والخصب، ومعظم بنائها بالطين طبقات، وربما بلغت طبقات الدار الواحدة اثني<sup>١٣٥</sup>. وكانت أبنية الموصل بالحصّ والحجارة، وأكثر أبنية البصرة والكوفة بالآجر<sup>١٣٦</sup>. ومنذ صدر الاسلام عُرف استعمال الآجر والحصّ والخشب للبناء، وقال بعضهم: الصواب أن تتخذ الدور بين الماء والسوق، وأن تكون الدور شرقية والبساتين غربية<sup>١٣٧</sup>. وبشكل عام، كان حجر البناء معروفًا في مصر، وسورية، والأناضول، وعليها ما بين النهرين، ولكنه لم يكن موجودًا في الجزيرة العربية، والعراق، وإيران، حيث كانوا يستعملون الآجر في غالب الأحيان<sup>١٣٨</sup>.

## ٩. المدن العباسية

قُسمت المدن العباسية على أساس سياسيّ بحسب الترتيب التالي:

١٣٢. المرجع نفسه، ٢٢٣/٢ - ٢٢٥. ولكنّ ابن جبير يجعلها، آنذاك، «على لسان أحد أشياخ البلد نحو الأثني حمام» (رحلة ابن جبير، ص ١٦٤).

١٣٣. جبل أسوان بالقرب من مدينة أسوان.

١٣٤. المسعودي: مروج الذهب، ٧٨/٢؛ وصالح بن يحيى: تاريخ بيروت، طبعة شيخو ١٨٩٨، ص

١٠، وطبعة هورس ١٩٦٩، ص ٨.

١٣٥. الإصطخري: مسالك الممالك، ص ٤٩.

١٣٦. المصدر نفسه، ص ٧٣ و ٨٠؛ ورحلة ابن جبير، ص ١٥٣.

١٣٧. عيون الأخبار، ٣١٢/١.

١٣٨. D. SOURDEL, *L'Islam médiéval*, p. 69.

- الأمصار ، وهي البلاد التي يحلّها السلطان ، وتجتمع فيها الدواوين ، وتقلّد منها الأعمال . وتضاف إليها مدن الأقاليم<sup>١٣٩</sup> .
  - القصبات ، وهي عواصم الأقاليم ، ومقامها من الأمصار مقام الحجاب من الملوك . والقصبة ، أصلاً ، المدينة او القرية ، أو وسط المدينة .
  - المدن او المدائن ، وهي ما يلي القصبة في الأقاليم ، ومقامها مقام الجند .
  - النواحي ، مدن مشهورة ، جهتها معلومة ، مثل نهاوند ، وجزيرة ابن عمر .
  - القرى ، ملحقة بالمدن ، ومقامها مقام الرجالة<sup>١٤٠</sup> .
- واستعملت أسماء أخرى كالبلد والرساق والكورة . قال المقدّسي : « البلد يعمّ المصر والقصبة والرساق والكورة والناحية »<sup>١٤١</sup> . وميّزوا في استعمال كلمتي شرق وشرق ، فعنوا بالشرق دولة آل سامان ، وبالشرق يُزاد عليها فارس وكرمان والسند ، وعنوا بالمغرب الإقليم<sup>١٤٢</sup> ، وبالمغرب يُضاف إليه مصر والشام<sup>١٤٣</sup> .
- ومن أبرز علامات المدينة المنبر ، والجامع ، والحمامات ، والسوق . وتنظم بيوتها ، عادةً ، حول جامعها الكبير<sup>١٤٤</sup> . ومنذ القرن الحادي عشر أُضيفت الى مواصفاتها المدرسة . وكانت الأسواق الداخلية ضيّقة ، والحيز الأوسع من حياة المدينة يقع في الضواحي ، وعلى الأبواب ، حيث تصل القوافل ، وتقوم الأسواق الكبيرة والمدافن<sup>١٤٥</sup> .

## بغداد

١) كانت بغداد أشهر مدن الشرق ، ومركز حضارة عالميّة حتى سقوطها عام ١٢٥٨

١٣٩ . الأقاليم : المناطق . والإقليم قسم من الأرض يختصّ بميزات معيّنة ، سياسية ، او طبيعيّة ، او مناخيّة .  
 ١٤٠ . آدم متر : الحضارة الإسلاميّة ، ٢/٢٦٨ .  
 ١٤١ . أحسن التقاسيم ، ص ٧ .  
 ١٤٢ . أي إقليم المغرب العربي الإسلامي .  
 ١٤٣ . المقدّسي : أحسن التقاسيم ، ص ٧ .

١٤٤ . A. MIQUEL, *L'Islam et sa civilisation*, p. 147 .

١٤٥ . آدم متر : الحضارة الإسلاميّة ، ٢/٢٦٨ ؛ و Antoine ABDEL NOUR, *Introduction à l'histoire urbaine de la Syrie ottomane*, p. 40 .

على يد هولاكو المغولي<sup>١٤٦</sup>. فإنّها، وقرطبة في الأندلس، كانتا مهد الحضارة الشرقية. وجاء حديث الجغرافيين والمؤرخين العرب القدامى عنها مفعماً بالفخر والإعجاب: افتتح ياقوت (١١٧٩ - ١٢٢٩) كلامه عليها بقوله: «أمّ الدنيا وسيدة البلاد»، ووصفها في ثماني صفحات كبيرة<sup>١٤٧</sup>. وأعطى المسعودي (ت ٩٥٧) عنها صورة ناصعة، وسماها مدينة المنصور<sup>١٤٨</sup>.

كان في موضع المدينة، قبل الاسلام، قصر ساساني، وجسر من البواخر على دجلة<sup>١٤٩</sup>، وقرى نصرانية صغيرة على ضفة النهر الغربية، حولها ديارات<sup>١٥٠</sup>. وأصبحت، في آخر القرن التاسع والقرن العاشر، تضم أكثر من مليون نسمة<sup>١٥١</sup>. وربما تعجّب الباحث من ازدياد الديارات والبيع فيها وحولها، بعد بنائها<sup>١٥٢</sup>. واحتوت، في القرن العاشر، أربعة جوامع كبيرة زيد عليها جامعان في آخر القرن<sup>١٥٣</sup>. واسم بغداد، على الأرجح، من صيغة إيرانية Bag-dādē تعني «عطية الله». واسم الكرخ، حيّها التجاري، من الأرمنية كركا Kerka بمعنى السوق<sup>١٥٤</sup>، وهو يقع

١٤٦. حفيد جنكيزخان، ومؤسس دولة المغول الإيلخانية في إيران (١٢٥١ - ١٢٦٥). وُلد نحو ١٢١٧، وتوفي عام ١٢٦٥. أباد المالك المصريون جيشه في الشام عام ١٢٦٠، في معركة عين جالوت قرب الناصرة. ١٤٧. معجم البلدان، دار صادر ١٩٥٥، ص ٤٥٩ - ٤٦٧. ١٤٨. مروج الذهب، ١٣٥/٤. ومن أبرز الجغرافيين العرب الذين يَبْنُوا مزايا بغداد المقدسي واليعقوبي الذي أورد أن مكانها نزل بالوحي على النبي محمد (R. ARNALDEZ, in *Arabica*, 1962, p. 357). ١٤٩. طول دجلة ١٧١٨ كلم، وعرضه من ١٨٨ الى ٢١٢ متراً، وعمقه من ٧,٤١ الى ١٣,٧٤ متراً. ١٥٠. يؤكد الأب الدكتور ميشال آلار أن وجود ضياع مسيحية في المكان الذي اختير لبناء بغداد هو أمر راسخ (Michel ALLARD, in *Arabica*, 1962, p. 375). كما أثبت الطبري أن المكان الذي اختاره المنصور لبناء مدينته، كان مليئاً بالديارات الكبيرة والصغيرة (الطبري، طبعة دار المعارف بمصر، ١٩٦٦، ٦١٦/٧ - ٦١٧).

١٥١. A. ABDEL NOUR, *Introduction à l'histoire urbaine de la Syrie ottomane*, p. 42. ولكنّ أندريه ميكال يقول إن عدد سكّان بغداد كان على الأقل مليوناً ونصف المليون (L'Islam et sa civilisation, p. 120).

١٥٢. الشاشتي: الديارات، و M. ALLARD, in *Arabica*, 1962, pp. 375-388. ١٥٣. Marius CANARD, in *Arabica*, 1962, p. 274. ١٥٤. Louis MASSIGNON، و M. LOMBARD, *L'Islam dans sa première grandeur*, p. 127. in *Arabica*, 1962, p. 249. وأورد بروكلان في «تاريخ الشعوب الإسلامية»، ص ١٧٨، أن الكرخ من الآرامية «كرخا» وتعني المدينة. غير أن قول لومبار وماسينيون أقرب إلى الحقيقة والواقع، ووصف ابن جبير للكرخ بأنّه مدينة مسوّرة بعيد عن الدقة والموضوعية (رحلة ابن جبير، ص ١٦٢).

جنوبي المدينة. سمّاها المنصور مدينة السلام أو دار السلام<sup>١٥٥</sup>، وشرع في بنائها عام ٧٦٢ على شاطئ دجلة الأيمن (الغربي)<sup>١٥٦</sup>، في الوقت الذي حدّده المنجم الفارسي نوبخت، بحسب عادة قديمة تنابعت في العالم الاسلامي؛ وحدّدت موضع المدينة أسباب سياسية واستراتيجية واقتصادية، وحتى مناخية. واستخدم الخليفة أكثر من مئة الف عامل في وقت واحد، بالإضافة الى الاختصاصيين، فتمّ بناؤها في أربع سنوات، بشكل دائري، حول القصر والجامع، في قطر يساوي حوالى كيلومترين<sup>١٥٧</sup>. ونقل المنصور اليها قسمًا من طاق كسرى، ثم توقف، ومنع التعدي على هذا الأثر الرفيع<sup>١٥٨</sup> الذي ما زالت بقاياه، حتى اليوم، شاهدة على مجد الفرس وعظمتهم. وأقيم حولها سور يحتوي على ٣٦٠ حصناً، واخترقها أربعة شوارع كبيرة من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي، ومن الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي، مع أربعة أبواب لكل طريق: باب خراسان في الشمال الشرقي، وباب سورية في الشمال الغربي، وباب البصرة في الجنوب الشرقي، وباب الكوفة في الجنوب الغربي<sup>١٥٩</sup>. ورفدها الفرات<sup>١٦٠</sup>. ومدّها المنصور بشبكة من القنوات، وعقد فوقها الجسور<sup>١٦١</sup>. وجعل المهدي معسكره في الجانب

١٥٥. راجع في تسمية المنصور مدينته «مدينة السلام» وليس بغداد، الاسم الذي كان يُطلق على بعض الضياع الفارسية الصغيرة القائمة في المكان، والذي غلب على المدينة بعد زمن غير معلوم من بنائها، وفي نية المنصور تخصيصها لأتباعه من الخراسانيين. J.M. FIEY, *Chrétiens Syriques*, p. 18. ولكن، على الرغم مما أثبت فيما كان يحتلّ موضع المدينة من قرى وديارات، وعلى الرغم مما قيل في تسميتها باسم ضيعة فارسية قديمة، فإنّ الاصطخري أورد أنها «مدينة محدثة في الإسلام لم تكن بها عارة» (مسالك المالك، ص ٨٣). وقوله هذا لا يخلو من العاطفة الدينية والتسرّع في الحكم. (الاصطخري هو أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي. توفي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، وقبل عام ٩٥٧ م. وهو رحالة من علماء الجغرافة المشهورين عند العرب).

١٥٦. Régis BLACHÈRE, in *Arabica*, 1962, p. 15; et D. SOURDEL, *ibid.*, p. 251.

١٥٧. D. et J. SOURDEL, *La civilisation de l'islam classique*, p. 65; *Ibid.*, pp. 252-254.

١٥٨. J.M. FIEY, *Chrétiens Syriques*, p. 19.

١٥٩. يمكن العودة الى تصميم بغداد الفصل في كتاب A. MIQUEL, *L'Islam et sa civilisation*, p. 119.

١٦٠. طول الفرات ٢٣٣٣ كلم. مثلاً نهر عيسى الذي كانت تجري فيه السفن من الفرات الى دجلة (ابن حوقل: المسالك والممالك، ص ١٦٥؛ والاصطخري: مسالك المالك، ص ٨٥).

١٦١. عقّد بين الجانبين على دجلة جسرين مربوطين بالسفن لعبور المجتازين (المصدران السابقان على التوالي، ص ١٦٥، و ٨٤).



الشرقيّ، فسُمّي «عسكر المهدي». ثم عمّرت بالناس والبنيان، وانتقلت الخلافة الى الجانب الشرقيّ، وأصبح الجانب الغربيّ جانب الكرخ الذي توسّعت عمارته، واشتدّ ازدهاره، وقد غدا موطن أهل اليسار والتجّار<sup>١٦٢</sup>.

وُسّعت بغداد على عهد الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩)، والمأمون (٨١٣ - ٨٣٣)، في أوائل القرن التاسع، فأصبحت نجمًا كثيفًا يمتد على حوالى تسعة أو عشرة كلم. وذلك يعني أنها أصبحت أهم مدن الشرق وأكبر مدينة في العالم<sup>١٦٣</sup>. وقيل إنّ بيزنطية تمّنت بعض عزّها<sup>١٦٤</sup>. والطرق البرية والبحرية تتلاقى فيها، ممّا جعلها صرّة العالم، يصبّ فيها الغنى الماديّ والروحيّ من مختلف الأقطار<sup>١٦٥</sup>. وظلّت مركز العالم الاسلاميّ طوال خمسة قرون<sup>١٦٦</sup>.

وجعل تلاقى الشعوب في عاصمة الخلافة، وانتقال العرب أنفسهم اليها من مختلف الأنحاء، من بغداد صورة مصغّرة عن الخلافة العباسية الشاسعة الحدود، وإن تكن الطبيعة قد بخلت عليها بكثير من معطياتها في اضطراب المناخ وعدم استقراره. فالمطر مثلاً لا يتعدّى فيها المئة والستة والأربعين ملمترًا<sup>١٦٧</sup>. ومع ذلك، ربّما منع الناس من الحركة في بعض الأحيان. قال ابن مسكويه<sup>١٦٨</sup>: «فلما مات معزّ الدولة بن بويه عام ٩٦٧، ألحّ المطر ببغداد ثلاثة أيّام بلياليها إلحاحًا شديدًا منع الناس من الحركة»<sup>١٦٩</sup>. وربّما قاست بغداد أشدّ محنة في حرب الأمين والمأمون عام ٨١٣، إذ خرب القسم الأكبر منها<sup>١٧٠</sup>. ولكنّ هذا الخراب لم يدم طويلًا وعادت، مع المأمون، تتألّق من جديد.

١٦٢. المصدران السابقان، ص ١٦٤ - ١٦٥، و٨٣ - ٨٤.

١٦٣. M. LOMBARD, *L'Islam dans sa première grandeur*, pp. 127-129. و بروكلمان: تاريخ

الشعوب الاسلامية، ص ١٧٨؛ وغوستاف لويون: حضارة العرب، ص ٢١٥.

١٦٤. يوسف السودا: تاريخ لبنان الحضاري، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٧٢، ص ١٦٥.

١٦٥. Roger ARNALDEZ, in *Arabica*, 1962, p. 357.

١٦٦. D. SOURDEL, in *Arabica*, 1962, p. 251.

١٦٧. L'Abbé E. DE VAUMAS, in *Arabica*, 1962, p. 236.

١٦٨. ابن مسكويه (ابو علي أحمد بن محمد) توفي عام ١٠٣٠. كاتب تاريخي أخلاقي. كان قيمًا على مكتبة ابن العميد. انصرف الى الفلسفة والطب والكيمياء.

١٦٩. تجارب الأمم، ٢/٢٣٢.

١٧٠. D. et J. SOURDEL, *La civilisation de l'islam classique*, p. 66.



## المدن الصغيرة والأرياف

لقيت الحضارة العربيّة مناخها المناسب في المدن والتجمّعات السكّانيّة الواسعة التي نشأت خصوصاً بين القرنين الثامن والحادي عشر، كما عبّر موريس لومبار<sup>١٧١</sup>. وليس ذلك مخصوصاً بالحضارة العربيّة، إذ كل حضارة تنمو في التجمّعات المنظّمة الواسعة. ولعلّ تسمية المدينة الكبيرة حاضرة من هذا القبيل.

أمّا المدن الصغيرة والأرياف، فإنّها لا تزال تتفاعل مع الحواضر سلبيّاً وإيجابيّاً، بفعل اختلاف نمط الحياة، والثقافة، والتأثّر، وتدني حاجتها الى التنظيم والانضباط. وكثيراً ما يكون انزاعها، أو انكماشها، أو التجاء عناصر مضطهدة اليها، سبباً لتفجير حركات ثوريّة تنطلق نحو المدينة المترفة في ازدهارها الاقتصادي، وهنائها المعيشي، وتعكّر عليها جوّها الهادئ المطمئن.

وكانت السوق تشكّل الوسط الاقتصادي في المدينة، وفيها الصنّاع، والعمّال، والأحرار، والعبيد، والمنادون، والحمالون. وإذا انحصرت الثروة بالبلاط، والحاشية، وكبار التجّار، أصبحت حال الطبقة الآنفه رقيقة، فظهر فيها الشغب والعصيان، وكثر الفارون من وجه العدالة، وأنشئ في مصر مكتب خاص للملاحقتهم، وفُرض جواز انتقال من ناحية الى ناحية، وكان هذا الجواز طابعاً مطبوعاً على وثيقة لذوي الشأن، وخاتماً على الساعد أو اليد للفقراء، أو علامة من رصاص معلّقة بالرقبة. وإنّ البؤس الذي كانت تعيش فيه شعوب المدن الصغيرة والأرياف، الى ما وصفناه من واقعها، يفسّر الحركات الاجتماعيّة الفوريّة المصبوغة بعوامل سحريّة - دينيّة، أو تبشيريّة، وخصوصاً عقيدة المهدي<sup>١٧٢</sup>.

١٧١. M. LOMBARD, *L'Islam dans sa première grandeur*, p. 13.

١٧٢. *Ibid.*, p. 153، ويقول فاروق عمر في مقالته حول هرون الرشيد:

«Les causes d'agitation dans la partie orientale de l'empire étaient plus compliquées. Elle était due en partie à la déception des classes inférieures dont l'avènement des abbassides n'avait pas amélioré la condition» (*Encycl. de l'Islam*, nouv. édition, t. III, Leiden, p. 240)

## ١٠ - الثورات

١١ خرج الراوندية حوالى عام ٧٥٣ من خراسان ، وكانوا يشايعون أبا مسلم الخراساني صاحب دعوة بني هاشم . قالوا بتناسخ الأرواح . وعندما تسلّم المنصور الخلافة عام ٧٥٤ ، اعتبروه ربّهم الذي يطعمهم ويسقيهم ، وجاءوا قصره يطوفون به ويقولون : هذا قصر ربّنا . فأرسل المنصور الى رؤسائهم ، فحبس منهم مئتين<sup>١٧٣</sup> .

وظهر النبيّ الملقّب<sup>١٧٤</sup> في خراسان على عهد المهدي ، بين ٧٧٧ و ٧٨٠ . وظهرت الألوية الحمراء ، العائدة للباطنيين ، في جرجان عام ٧٨٢ - ٧٨٣ . وقامت ، في عهد هرون الرشيد ، الحركة الخرمية (٨١٦ - ٨٣٨) في خراسان ، وزعيمها بابك . وهي كبرى الحركات . ابتدأت في آذربيجان<sup>١٧٥</sup> ، وجعل بابك قيادته في قلعة جبلية ، ثم امتدّت غرباً الى أرمينية ، فالى خراسان شرقاً ، والعراق جنوباً . ثم غلب بابك وسلّم الى المعتصم الذي عذّبه وقتله شرّ قتل ، وقيل إنّ قائد المعتصم أفشين صلبه في سامرا ، وتفرّق أتباعه<sup>١٧٦</sup> .

واشتعلت ثورة الزُّط على عهد المأمون (٨١٣ - ٨٣٣) في بلاد ما بين النهرين السفلى . والزُّط من العجر الذين أبعدوا ، أصلاً ، من الهند الى بلاد السبّاخ<sup>١٧٧</sup> في أسفل ما بين النهرين ، حيث انصرفوا الى تربية الجواميس بين الماء والقصب . وإذ هصرهم البؤس ، عاثوا في طريق البصرة بقيادة زعيمهم محمّد بن عثمان ، فقطعوا الطريق ، واحتملوا الغلات من البيادر ، وأخافوا السبل ، فوجّه اليهم المعتصم عُجَيف بن عنبسة ، فحصرهم ، وسدّ عليهم الأنهار ، وحاربهم ، وأسر منهم خمسمائة رجل ، وقتل منهم في المعركة ثلاثمائة رجل ، فضرب أعناق الأسرى ، وبعث برؤوسهم جميعاً الى باب

١٧٣ . الطبري ، ٥٠٥/٧ .

١٧٤ . لما اشتدّ عليه الحصار شرب السمّ وسقاه نساءه وأهله (الطبري ، ١٤٤/٨) .

١٧٥ . بمدينة البَدّ .

١٧٦ . الطبري ، ١١/٩ وما بعدها ؛ و . M. LOMBARD, *L'Islam dans sa première grandeur* . p. 154 .

١٧٧ . جمع سَبَخَة : مستنقع .

المتعصم. وهرب الباقون من خلال سورية الشمالية الى الأناضول، وجبال البلقان، وبوهيميا<sup>١٧٨</sup>

ونشبت ثورة الزنج<sup>١٧٩</sup> المهمة في خلافة المهدي عام ٨٦٩، في المكان الذي كان فيه الزُّط من قبل، وكانوا، مثلهم، يكسحون السِّبَاخ<sup>١٨٠</sup>. ونجح صاحبهم علي بن محمد<sup>١٨١</sup>، حتى عام ٨٨٣، في اجتياح أراضٍ شاسعة، ونَهَبَ الأُبلَّةَ، والأهواز، والبصرة، وواسط. وظلَّ يقتل وينهب حتى قضى عليه وعلى ثورته الموفق أخو الخليفة المعتمد (٨٧٠ - ٨٩٢).

وكان للمذاهب الفارسية القديمة، وما دعت اليه من مساواة واشتراكية، أثرها في قيام هذه الثورات، حتى كانت الثورة القُرْمِطِيَّة العامة في القرن العاشر<sup>١٨٢</sup>. وقد خضت هذه الثورة الخلافة العباسية شرقاً وغرباً. قام حمدان قُرْمِطُ (أو قُرْمَطُ)<sup>١٨٣</sup> مع الدعوة الفاطمية، والتبس بها في أول عهده. وفي القُرْمِطِيَّة تنظيم جديد للعمل، واتحادات عمالية شبيهة بالنقابات في أيامنا. أقول «شبيهة» لأن الأبحاث المتعمقة أثبتت أنه لم يكن من أثر، في ذلك العهد القديم، للتنظيمات التعاونية أو النقابية. وإذا كان هنالك «عريف» على رأس بعض الحرف، فقد كانت كلها تحت سلطة المحتسب<sup>١٨٤</sup>. فالقُرْمِطِيَّة حركة اجتماعية وروحية وسياسية، فيها من العلوية، ومن الأفلاطونية الحديثة، ومن المانوية، والمزدكية، ومساواتية بابك. وهي سرّية، تبشّر بالمهدي، أسهمت في نشأة

١٧٨. الطبري، ٨/٩ - ٩، و M. LOMBARD, *L'Islam dans sa première grandeur*, p. 156.

(بوهيميا في تشيكوسلوفاكيا حالياً).

١٧٩. راجع كتاب «ثورة الزنج» لأحمد عسبي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦١، والمسعودي مروج الذهب، ١٠٣/٥ - ١٠٤.

١٨٠. D. SOURDEL, *L'Islam médiéval*, p. 189.

١٨١. هو علي بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. استغرقت أخباره في تاريخ الطبري ٢٥٥ صفحة، ٤١٠/٨ - ٦٦٥. نعت المؤرخون المسلمون بالفاسق والخبيث والطاغية.

١٨٢. ابتداءً أمر القرامطة بسواد الكوفة عام ٨٩١، ثم عظم في البحرين والبصرة.

١٨٣. لُقِبَ بِقُرْمَطُ من كَرَمِيَّتِهِ بالنبطية أي أحمر العينين (الطبري، ٢٤/١٠ - ٢٥). والمستشرقون يستعملون صيغة قُرْمَطُ karmat، والقرامطة les karmates (راجع مثلاً D. et J. SOURDEL, *La Civilisation de l'Islam classique*, p. 78).

١٨٤. D. SOURDEL, *L'Islam médiéval*, p. 184.

الخلافة الفاطمية. وأعطى القرامطة أهمية خاصة للعمل والعمال، وأثاروا نبل العمل الفكري واليدوي، وهو مفهوم جديد على البيئة العربية التقليدية. وفي رسائل إخوان الصفاء شاهد على ذلك. قضى صلاح الدين الأيوبي (١١٧٤ - ١١٩٣) على تعاليمهم ونقاباتهم عام ١١٧١<sup>١٨٥</sup> //

إن نشوء الثورات في المدن الصغيرة والأرياف بعامة، لا يعني أن المدن الكبيرة خلت من الاضطراب والثورات. ولئن كانت المدن الصغيرة والأرياف تربة صالحة لنمو بذور الفتن والثورات، فإن المدن الكبيرة لم تنب عنها، تلقياً وانطلاقاً، إذ قامت حركة العزاة في بغداد نفسها، خلال فتنة الأمين والمأمون، واستطاعوا السيطرة على المدينة بعض الوقت، وهم يقاتلون الى جانب الأمين بأسلحة وأعتدة بدائية<sup>١٨٦</sup>. وكانت المعاصي متفشية في كثير من الطبقات الشعبية بالعاصمة، وإن استطاعت السلطة المركزية أن تسيطر عليها في غالب الأحيان. وعندما قامت الفتنة بين الأمين والمأمون، وأحدثت الكثير من الخراب والدمار في المدينة، رأى فيها الخريمي<sup>١٨٧</sup> عقاباً إلهياً على معاصي بغداد<sup>١٨٨</sup>.

وفي عام ٩٥٨، شغب الأتراك والديلم بالموصل على ناصر الدولة، وزحفوا الى

١٨٥. الطبري، ٢٣/١٠ وما بعدها، و M. LOMBARD, *L'Islam dans sa première grandeur*, pp. 156-158.

١٨٦. المسعودي: مروج الذهب، ٢٧٩/٤ - ٢٨٩، و M. LOMBARD, *L'Islam dans sa première grandeur*, p. 155.

١٨٧. أبو يعقوب الخريمي. توفي نحو ٨٢١. فارسي الأصل، والى البرامكة وفاخر بشعوبيته. له «قصيدة في تاريخ بغداد».

١٨٨. مما قاله الخريمي في قصيدته:

|                               |                         |
|-------------------------------|-------------------------|
| ياربؤس بغداد دار ملكة         | دارت على أهلها دوائرها  |
| أهلها الله ثم عاقبها          | لما أحاطت بها كباثرها   |
| كم قد رأينا من المعاصي ببغداد | د فهل ذو الجلال غاثرها  |
| رق بها الدين واستخف بذئ ال    | فضل وعز النسك فاجرها    |
| وخطم العبد أنف سيده           | بالرغم واستعبدت حرارها  |
| وصار رب الجيران فاسقهم        | وابتر أمر الدروب ذاغرها |

(الطبري، ٤٥٠/٨ - ٤٥١). ويمكن مراجعة الفتنة بين الأمين والمأمون بالتفصيل في المصدر نفسه، ٣٧٤/٨

وما بعدها.

داره ، وأرادوا الفتك به ، فحاربهم بغلمانهم وبالعامة ، وظفر بهم ، وقتل بعضهم ، وقبض على جماعة ، وهرب الباقيون الى بغداد<sup>١٨٩</sup> .

وإذا نظرنا الى مختلف الثورات الداخلية التي قامت في الخلافة العباسية ، رأيناها ، في الغالب ، تنتسب الى الشيعة ، أمطرقة كانت أم غير متطرقة ، شاذة أم غير شاذة . وربما كان تسليط الضوء على شذوذها خطئة من الخلفاء ومحازبيهم لعدم إثارة الرأي العام الذي يرفض أن يرى الطالبين من بني هاشم ، وأبناء بنت الرسول ، يعاملون بظلم ووحشية . وهذا لم يمنع بعض المؤرخين كالطبري المتشيع ، أن يرى في صاحب الزنج « أول علوي يخرج بالبصرة »<sup>١٩٠</sup> . وربما كان تنزيه الفاطميين عن التطرف راجعاً الى عددهم المتكاثر ، والى سيطرتهم على جزء كبير من أراضي الخلافة في الشرق والغرب ، بحيث يستطيعون ردّ تهمة التطرف والخروج على الدين بسهولة . وما زال الطالبيون يخرجون ، ويقاتلون ، ويُقتلون ، طوال العهد العباسي . وقد ألف المؤرخون كتباً في إظهار حقهم ، والأسى عليهم ، والسخط على قاتليهم ، مثل كتاب أبي الفرج الأصفهاني « مقاتل الطالبين »<sup>١٩١</sup> .

ومن الخلفاء العباسيين من جهر بعدائه للشيعة ، وأعلن الحرب عليهم مباشرة وبغير تحفظ . ففي عام ٢٣٦ هـ / ٨٤٩ - ٨٥٠ م ، أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي ، وهدم ما حوله من المنازل والدور ، وأن يُحرث ، ويُذر ، ويُسقى موضع قبره ، وأن يُمنع الناس من إتيانه ؛ فذكر أن عامل صاحب الشرطة نادى في الناحية : من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة ، بعثنا به الى المطبق<sup>١٩٢</sup> . فهرب الناس ، وامتنعوا من المصير إليه ، وحُرث ذلك الموضع ، وزُرِع ما حواليه ، إمعاناً في طمسه ومحو أثره<sup>١٩٣</sup> . ولم تكن الطائفية والطبقية والعنصرية وحدها سبب الثورات . فقد رافق العنصر

١٨٩ . ابن مسكويه : تجارب الأمم ، ١٦٨/٢ .

١٩٠ . الطبري ، ٤١٠/٨ .

١٩١ . كانت آخر نسخة للكتاب ، فيما أعلم ، تلك التي قدّم لها ، وأشرف عليها كاظم المظفر في منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعها في النجف عام ١٩٦٥ . وجاء الكتاب مع فهرسه في ٤٧٥ صفحة من القطع الكبير ، منذ عصر النبوة حتى عام ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م . وهو العام الذي ألف فيه أبو الفرج كتابه .

١٩٢ . آلة التعذيب المعروفة .

١٩٣ . الطبري ، ١٨٥/٩ .

السياسي هذه الدواعي ، خصوصاً عندما كان الثائرون من السنيين أنفسهم ، كما كان يظهر ، في كلّ مدّة ، ناثراً من السفينائيين الذين ما زالوا يحتنون الى ملكهم السابق . ففي عام ١٩٥ هـ / ٨١٠ م ، ظهر بالشام السفيناني علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية ، فدعا الى نفسه ، وطرده عنها سليمان بن أبي جعفر ، عامل محمد الأمين<sup>١٩</sup> . ولم يكن أمر السفينائيين حيناً في الخلافة العباسية ، بل كان لهم أتباع كثيرون في بغداد نفسها . وعندما عزم المعتضد عام ٨٩٧ على لعن معاوية بن أبي سفيان على المنابر ، خوفاً عبيد الله بن سليمان بن وهب اضطراب العامة ، وآتاه لا يأمن أن تكون فتنة . فلم يلتفت الى ذلك من قوله ، وتقدّم الى الشرّاب والذين يسقون الماء في الجامعين ألا يترحموا على معاوية ، ولا يذكره بخير ، وكتب الى الناس كتاباً طويلاً جداً ، يُقال إنّ المأمون أمر بإنشائه بلعن معاوية . فأخرج له من الديوان . والكتاب في ثماني صفحات كبيرة من تاريخ الطبري<sup>١٩٥</sup> .

ولا حاجة للتذكير الطويل بطغيان السلطنة البويهيّة ذات الاتجاه الشيعي على الخلافة ، وسيطرة السلجوقيين بعدها ، وهم سنيون . ومع ما ذكرنا من ثورات للعلويين والسفينائيين ، وأحياناً للسنّة ، ذات الطابع المذهبي ، لا يجوز لنا المبالغة في إعطاء الثورات التي قامت على الخلافة العباسية ، بين القرن التاسع والقرن الحادي عشر ، طابعاً إيديولوجياً بحتاً ، شأن بعض البعثات الجدد ، الذين ربّما ألصقوا بعض مفاهيم إيديولوجيتهم الشخصية بموضوعهم ، غير متعمّقين بما يتحمّله العهد الذي قام فيه هذا الموضوع من مضامين عقائديّة وفكريّة .

، والذي يُطالع الكتب القديمة التي تؤرّخ للخلافة العباسية ، يسوّء ما يقرأ فيها من مجازر وفظائع في قتل الناس أفراداً بغير مقاضاة ، وبحسب مزاج الخليفة أو الوالي ، وجاعاتٍ في الحروب . فبينما كان العربيّ ما قبل الإسلام يأنف الدماء والتعذيب ، ويحاربُ بين كرٍّ وفرٍّ ، أخذ الثقيل ينتشر في فتوح صدر الإسلام والدولة الأمويّة ، ربّما لأن العربيّ المسلم كان يُحارب الأجنبي وغير المسلمين ، فيستبيح دماءهم . ثم انتشر القتل وعظم في الخلافة العباسية ، بحيث أصبح السيف والنطع ملازمين لمجلس الخليفة

١٩٤ . الطبري ، ٤١٥/٨ ، وحتى : تاريخ العرب ، ص ٥٦٢ .

١٩٥ . المصدر الأوّل ، ٥٤/١٠ - ٦٢ .

الذي يرتاح الى مشاهدة الرؤوس تتدحرج أمام عينيه) وأكثني بذكر ما أورده الطبري من أن أبا مسلم قتل في دولته وحروبه ستمائة ألف صبراً ، ثم غدر به المنصور . وأن هرون الرشيد ، في غزوته الى بلاد الروم ، على عهد والده المهدي ، قتل من الأسارى ، صبراً ، ألفين وتسعين أسيراً<sup>١٩٦</sup> . وبعد فتح عمورية ، ضربت اعناق ستة آلاف رجل من أسرى الروم<sup>١٩٧</sup> . كما أنهم تفتنوا في التعذيب : بعد القبض على العباس بن المأمون طالب الخلافة ، أمر المعتصم بأن يُحمل أحمد بن الخليل ، وهو من رجال العباس ، على بغل يأكاف بلا وطاء ، ويُطرح في الشمس اذا نزل ، ويُطعم في كل يوم رغيفاً واحداً . ثم وُضع في بئر ، وفتحت له كوة . ثم صُبَّ عليه الماء . ثم أُخرج فكث أياماً ومات<sup>١٩٨</sup> . وكان المعتصم ، في قتله بابك الخرمي أكثر مهارةً وتفنناً : قطع يديه ورجليه ، وأمر بأن يُجول به في شوارع بغداد على ظهر فيل ، مع كتابةٍ تعدد جرائمه . وخاطه في جلد بقره طري ، قرناه بمستوى أذنيه ، حتى إذا جفَّ الجلد ، اختنق تحت ضغطه<sup>١٩٩</sup> . والمطلع على التواريخ القديمة ، يعلم أن هذه الطريقة في القتل والتشنيع لم تكن نادرة ، ولا وحيدة من نوعها .

## ١١ - انتقال الحضارة العباسية الى الغرب

لر بفضل الفتح العربي والحملات الصليبية ، أعاد الغرب صلته بالحضارات المشرقية ، ومن خلالها ، بالتجارة والثقافة . وأمنت الأمبراطورية الاسلامية الجديدة للغرب ازدهاراً باهراً . ولم تكن الحملات الصليبية سوى ردّة فعل تسببت من خلل في العلاقات القائمة . وقد تُشكّل العلاقة التي نشأت بين هرون الرشيد وشالمان<sup>٢٠٠</sup> ، وغيره من ملوك العالم ،

١٩٦ . الطبري ، ٤٩٠/٧ - ٤٩٢ ، و ١٥٣/٨ .

١٩٧ . المصدر نفسه ، ٧٠/٩ .

١٩٨ . المصدر نفسه ، ٧٦/٩ - ٧٨ .

١٩٩ . M. LOMBARD, *L'Islam dans sa première grandeur*, p. 154 .

٢٠٠ . شكّ بعض المؤرخين المحدثين في العلاقة المتواترة بين الرشيد وشارلمان ، ومنهم الدكتور الأب جان موريس فيه الدومنيكاني في حديث خاص عام ١٩٨٢ ، وإحسان جعفر (اللاذقية) في جريدة النهار البيروتية ، عدد الخميس ١١ أيلول ١٩٨٠ ، وكتب فاروق عمر في دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الجديدة ، م III ، لندن (E.J. BRILL) ، ص ٢٤١ :

«Un échange d'ambassades et de cadeaux aurait eu lieu entre Hārōūn al-Raṣṣīd et





شاهدًا بارزًا على الإتّصال والتفاعل المبكّر بين الشرق والغرب اللذين كان لهرّون الرشيد رسل فيهما. وقد أرسل كبار الملوك والأباطرة ممثّلين ووفودًا الى قصره من بلاد التتر والهند والصين. وطلب اليه شارلمان، وهو امبراطور أوروبا العظيم، أن يأذن له بتأمين الحماية اللازمة لحجّاج بيت المقدس، فأجابه الرشيد إلى سؤاله، وردّ وفده مع الهدايا الثمينة<sup>٢٠١</sup>. وهذا دليل على المركز العالمي الذي كان يتمتّع به الخليفة العبّاسي<sup>(١)</sup> قال الدكتور فيليب حتي (١٨٨٦ - ١٩٧٨): «طلع القرن التاسع الميلادي، فإذا زعامة السياسة العالميّة يتقاسمها اثنان: شارلمان في الغرب، وهرّون الرشيد في الشرق. وليس من شك في أن الرشيد كان أقوى الاثنين، وأرفعهما ثقافة»<sup>(٢)</sup> وقد اتّسعت رقعة الخلافة على عهد الرشيد والمأمون، واشتدّت شوكتها حتى بلغت بلاد الصين شرقًا والمحيط الأطلسي غربًا، مرورًا بأفريقية، والحبشة، وتركية. ولكنّ هذا العزّ ما لبث أن انخفض في القرن العاشر، وتقلّص سلطان بغداد، قبل ثلاثة قرون من سقوطها، بسبب مكائد الأتراك ودسائسهم، ومطامع المغول ووحشيتهم<sup>(٣)</sup>.

دخل التأثير المشرقيّ الغرب من طريق إسبانية وصقلية بنوع خاص<sup>٢٠٢</sup>. ومن آسية

Charlemagne, et aurait eu pour résultat de donner à Charlemagne des droits de protection sur Jérusalem; on n'a encore rien trouvé dans les sources arabes qui justifie cette allégation, et quoique les deux souverains aient pu avoir des inérêts politiques en commun, elle paraît sans fondement.»

أما الأب لامنس، فيؤيّد الاتصال بين العاهلين ويقول: «حصلت السفارات بين Aix-La-Chapelle (مركز إقامة شارلمان في ألمانيا) وهرّون الرشيد (La Syrie, 1/202)، ومثله جاك بيرين الذي أثبت أن الرشيد تنازل لشارلمان عن مسؤوليّة المحافظة على الأماكن المقدّسة (Les Grands courants, II/30). وأنا أميل الى الاعتقاد بقيام اتصال بين الاثنين لثلاثة أسباب وجية على الأقل: أولاً، لأنني أرى في إهمال المصادر العربيّة القديمة للعلاقة بين الخليفة وملك الفرنجة النصراني، الذي تنازل له الرشيد عن حياة الحجاج النصاري والأماكن المقدّسة، أمرًا طبيعيًا، لا يناسب الخليفة الإمام والمسلمين إثارة ضجة حوله. ثانيًا، لأنّ العاهلين كانا يتقاسمان، مع القسطنطينيّة، العالم المتمدّن آنذاك. ثالثًا، لأنّ شارلمان نشر المسيحيّة في أوروبا الوثنيّة، واهتمّ اهتمامًا كبيرًا بالمسيحيين أينما وجدوا، وحظي برضا البابا ومساندته.

٢٠١. غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص ٢١٥.

٢٠٢. تاريخ العرب، ص ٣٦٤.

٢٠٣. ابتدأ الفتح البربريّ العربيّ للأندلس عام ٧١٠ بقيادة طارق بن زياد البربريّ، مولى موسى بن نصير، عامل الوليد بن عبد الملك في المغرب. وفي السنة التالية، تابع موسى بن نصير الفتح. وما زال العرب يتقدّمون حتى بلغوا مدينة تور Tours في قلب فرنسا بقيادة والي الأندلس عبد الرحمن الغافقي عام ٧٣٢. فلقبهم شارل مارتيل في سهول نواتيه Poitiers، وردّهم، وقتل قائدهم (بطرس البستاني: أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث،

الصغرى الى أوروبة الشرقية<sup>٢٠٢</sup>. وكان لهذا التأثير فضل كبير على النهضة الإيطالية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. ووصلت الأفكار اليونانية، والفارسية، والهندية، والصينية الى الغرب، في الأغلب، بفضل ترجمات عربية<sup>٢٠٣</sup>. وتسربت الحضارة المشرقية من أبواب التجارة التي كان معظمها بيد العرب، او من يعيش في أكنافهم، فيما خلا مركزاً تجارياً واحداً بقيت تتمتع به بيزنطية خارج السيطرة الإسلامية<sup>٢٠٤</sup>. ومن شواهد التأثير العربي في ثقافة الغربيين كثرة الألفاظ العربية التي دخلت لغاتهم مثل القطن، والحبّة، والمسك، والزعفران، والشراب، والصفّة، والأرز، والتارنج، والليمون، والسكر، والقهوة، والمخزن، الخ... ويقول عباس محمود العقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤) إنّ ما دخل الإسبانية والبرتغالية منها لا يكاد يحصى، كالقباء، والقطران، والساقية، والرطل، الخ...<sup>٢٠٥</sup> وجاهر المستشرقون، عموماً، بفضل الحضارة العربية على التراث الإنساني<sup>٢٠٦</sup>.

ص ٨-١٦). وقد صدر في منشورات الجامعة اللبنانية، عام ١٩٥٧، بحث قيّم للمستشرق الإيطالي مارتينو ماريو مورينو بعنوان «المسلمون في صقلية»، تتجلى فيه الحضارة الصقلية العربية. أمّا حياة العرب الأدبية والفكرية في صقلية، آنذاك، فخير ما قرأته فيها هو كتاب الدكتور إحسان عباس «العرب في صقلية»<sup>٢٠٧</sup>، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٧٥. وقد أفاد مورينو وعبّاس كلاهما من كتاب ميشال أماري (١٨٠٦ - ١٨٩٩) «تاريخ مسلمي صقلية» في ثلاثة أجزاء: Michèle AMARI, *Storia dei musulmani di Sicilia*, 3 vol., seconda edizioni, Catania, 1933-1939.

٢٠٤. عباس محمود العقاد: أثر العرب في الحضارة الأوربية، ص ١١٠.  
٢٠٥. ذكر يوسف السودا خلال حديثه عن قسطنطين لوقا البعلبكي (٨٢٠ - ٩١٢) أنه نقل علوم اليونان الى اللغة العربية، ومنها نقلت، في القرون الوسطى، الى اللغة اللاتينية. فكان نقلها الى أوروبة عن اللغة العربية، الأساس الذي بُنيت عليه المدنية الغربية (تاريخ لبنان الحضاري، ص ١٧٠). ومع ما يحتمله هذا القول من حقيقة، لا يخلو من المبالغة في فضل ابن لوقا.

٢٠٦. M. LOMBARD, *L'Islam dans sa première grandeur*, pp. 11-15; et *Dict. encycl. Quillet*, 1968, p. 314.

٢٠٧. العقاد: أثر العرب في الحضارة الأوربية، ص ١١٠.  
٢٠٨. زيفريد هونكه Sigrid HUNKE: شمس العرب تسطع على الغرب، و Jacques BERQUE *Les Arabes d'hier à demain*, p. 226 sqq.; Maxime RODINSON, *Les Arabes*, pp. 167-168. وصرّح غوستاف لويون بأنّ «تأثير العرب عظيم في الغرب» (حضارة العرب، ص ٣٩). وكانت بعض عناوين فصوله معبرة في هذا الشأن: «تمدن العرب لأوروبة وتأثيرهم في الشرق والغرب» (ص ٦٧١). وجاء في كتاب «أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية» (ص ٤) أنّ «موضوع أثر الحضارة الإسلامية في ثقافة الغرب ومدنيته، موضوع واسع، منشعب النواحي، احتلّ من دراسات العلماء المستشرقين منذ أواخر القرن الماضي، مكاناً بارزاً».

وأسهمت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (أونسكو) بإعادة تقويم ، وإبراز أثر العرب والاسلام في النهضة الأوروبية . فبناءً على الاقتراح الذي أقره المؤتمر العام للأونسكو في دورته الثانية عشرة (تشرين الثاني - كانون الأول ١٩٦٢) ، والقاضي بأن تتبنى الشعبة القومية للأونسكو في الجمهورية العربية المتحدة مشروع دراسة لأثر العرب والحضارة الاسلامية في النهضة الأوروبية ، تُعدّ باللغة العربية ثم تترجم الى بعض اللغات الكبرى ، دعت الشعبة القومية للأونسكو لجنة من علماء الجمهورية في مختلف ميادين المعرفة ، لوضع خطة المشروع وتنفيذه في مرحلة تمتد من القرن الثاني عشر الى القرن السادس عشر الميلادي . فاختارت اللجنة من الميادين الحضارية : الأدب ، والفلسفة ، والعلوم الطبيعية ، والطب ، والجغرافية ، والمعارف الملاحية ، والتاريخ ، والعلماء ، والتحف الفنية والموسيقى . وعهدت بكل قسم الى من يقوم به من علمائه . وغبّ انتهاء الأبحاث ، جُمعت عام ١٩٧٠ في كتاب بعنوان : أثر العرب والاسلام في النهضة الأوروبية<sup>٢٠٩</sup> . ومما يستدعي التوقّف عنده في مقدّمة الكتاب ، قولٌ معبرٌ للأستاذ كويلر يونغ جاء في ختام بحث له في «أثر الثقافة الاسلامية في الغرب المسيحي»<sup>٢١٠</sup> حيث قال : «وبعد ، فهذا عرض تاريخي قصّد به التذكير بالدين الثقافي العظيم الذي ندين به للاسلام ، منذ أن كنّا ، نحن المسيحيين ، داخل هذه الألف سنة ، نساfer الى العواصم الاسلامية ، والى المعلمين المسلمين ، ندرس عليهم الفنون والعلوم ، وفلسفة الحياة الانسانية ، وفي جملة ذلك تراثنا الكلاسيكي الذي قام الاسلام على رعايته خير قيام ،

٢٠٩ . صدر الكتاب عن الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، بإشراف مركز تبادل القيم الثقافية المتعاون مع الأونسكو .

٢١٠ . بحث مطوّل بعنوان "The Cultural contribution of Islam to Christendom" للبروفسور T. Cuyler YOUNG الذي كان أستاذًا بقسم اللغات الشرقية وآدابها ، ثم أصبح رئيسه بجامعة برنستون بالولايات المتحدة الأميركية . قدّمه للندوة العالمية عن الثقافة الاسلامية التي عُقدت في برنستون ووشطن سنة ١٩٥٣ ، بدعوة من جامعة برنستون ومكتبة الكونغرس الاميركي ، واشترك فيها عدد من علماء الشرق الإسلامي ومن علماء الغرب المعيّنين بالدراسات الاسلامية . وقد نشرت ترجمة ذلك البحث مع مجموعة البحوث التي قدّمت للندوة في كتاب باللغة العربية عنوانه : «الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة - بحوث ودراسات إسلامية» (أشرف على نشره محمد خلف الله أحمد ، القاهرة ، ١٩٥٥) . وقد عُقدت الحلقة الثانية من الندوة في لاهور (باكستان) سنة ١٩٥٧ - ١٩٥٨ ، وتناولت بعض بحوثها الإسلام في نهضة الغرب ، ونشرت البحوث في كتاب باللغات الأردية والعربية والانكليزية عام ١٩٦٠ (أثر العرب والاسلام في النهضة الأوروبية ، ص ٥) .

حتى استطاعت أوروبة مرة أخرى أن تتفهّمه وترعاه . كل هذا يجب أن يمازج الروح التي نتجّه بها ، نحن المسيحيين ، نحو الاسلام ، نحمل اليه هدايانا الثقافية والروحية . فلنذهب اليه إذاً ، في شعور بالمساواة تؤدّي الدين القديم . ولن نتجاوز حدود العدالة إذا نحن أدبنا ما علينا بربحه ، ولكننا سنكون مسيحيين حقاً اذا نحن تناسينا شروط التبادل ، وأعطينا في حبّ واعتراف بالجميل»<sup>٢١١</sup> .

فهذا التصريح الواعي يسهم الى حدّ بعيد في القضاء على روح الاحتقار والتعالي التي كان يقابل بها معظم الغربيين التراث العربيّ والمشرقيّ على العموم ، ويُعيد الأمور الى نصابها على ضوء العلم والحكم الموضوعي ، ويساعد على الانفتاح والتفاعل والاحترام المفترض بين مختلف الحضارات ، ويُفيد في تكامل الاتجاهات القومية والثقافية الخاصة لدى مختلف الشعوب .

وربّما كان لبعض الكتب أو الأعمال العربية أثر في الغرب يتعدّى أثرها عند العرب ، بفضل فهم الغربيين وتقديرهم لها ، وبنائهم عليها . فإنّه لم يكن لفلسفة يعقوب بن إسحق الكندي (٧٩٦ - ٨٧٣) من الأثر في الغرب ، بعد وفاته ، مثل ما كان لها في الغرب ، من خلال ترجمتها اللاتينية<sup>٢١٢</sup> .

وكان اليهود ، والأرمن ، والأتراك ، من أبرز الشعوب التي تعاملت مع العالم العربي القديم ، وبلغت شأنها كبيراً من السيطرة والنفوذ ، بفضل نشاطها وسيطرتها على التجارة العربية والعالمية ، وتسلّمها المراكز العالية في الدولة . وقد أسهمت إسهاماً فعالاً في نقل الحضارة العباسية الى مختلف الأقطار التي أمتهلا فأرأيت أن ألقى ضوءاً على كل من هذه الشعوب الثلاثة ، دالاً على مكانتها في الحضارة العباسية .

### • اليهود

احتلّ اليهود مركزاً مهماً في العالم العربيّ القديم ، منذ الجاهلية ، خصوصاً في الشؤون المالية والمصرفية<sup>٢١٣</sup> ، وما يتبعها من صياغة ، ونخاسة ، وخدمات عامة . وهم مخترعو

٢١١ . أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية ، ص ٥ - ٦ .

٢١٢ . ماكس مايرهوف في كتاب عبد الرحمن بدوي : التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ، ص ٥٩ .

٢١٣ . جنح علماء الحضارة ، اليوم ، عن الجزم بتفرد عنصر معيّن ، باختصاصات او خدمات معينة ، لا يشاركه

أحدهم مساً بمكانتهم ، عملوا على تنحيته او قتلوه ، كما فعلوا بالمتوكل عام ٢٢٨/٦١ . وكان دخول الأتراك في الإسلام سبباً لاعتناق عددٍ كبير من أهل الصين لهذا الدين عن طريقهم<sup>٢٢٨</sup> . وفي عام ٩٦٢ ، أسس الغزنويون أول سلالة تركية إسلامية مستقلة في إيران . وبين عامي ١٠١٤ و ١٠٢٥ ، فتحوا شمالي الهند ، وأدخلوه في الإسلام ، الى أن جلاهم عنه السلاجقة . واستطاع أحمد بن طولون ، وهو ابن رقيق تركي جاء من بخارى ، أن يؤسس الدولة الطولونية في مصر (٨٦٨ - ٩٠٥) التي امتدّ سلطانه عليها ، وعلى سورية ، والموصل . وكان محمد بن طغج الإخشيد الذي حكم سورية ومصر (٩٣٥ - ٩٦٩) ، على أنقاض الدولة الطولونية ، رقيقاً تركياً من فرغانة . ونشأت الإمارة السامانية ، التي قضى عليها الغزنويون ، في بيئة فارسية - تركية ، وإن كانت حضارتها فارسية<sup>٢٢٩</sup> .

وهكذا ، يمكن القول إنه ، في نهاية القرن العاشر ، أصبح الأتراك يحتلون آسية الوسطى كلها . وهو حدث تاريخي بمتهى الخطورة ، أعاد البلاد الى عهدها السالف ، يوم كانت مجرد سهوب ، على يد شعب بدائي ، خشن الأخلاق والعادات . فتقهقرت حضارة المدن المنشأة على طريق القوافل ، والتي كانت تحضن ، بجدارة ، حضارة اليونان والهند والصين . بل يمكن القول إن التركي قطع الصلة بالحضارات القديمة ، وشرع في التهديم ، انطلاقاً من غزنة ، عاصمته العسكرية<sup>٢٣٠</sup> . ولم يقتصر أثر الأتراك على الهدم والتقهقر ، بل إن تغلغل هذا الشعب في الخلافة العباسية استطاع أن يغيّر كثيراً من ملامحها ، إن في عواصمها العراقية او في ولاياتها البعيدة<sup>٢٣١</sup> .

## ١٢ - حضارة رقية

بعد الحضارات الكبيرة في العهد القديم ، وبعد الامبراطورية البيزنطية ، كانت

٢٢٧ . الطبري ، ٢٢٧/٩ .

٢٢٨ . M. LOMBARD, *L'Islam dans sa première grandeur*, p. 15 .

٢٢٩ . *Ibid.*, pp. 50-53 .

٢٣٠ . J. PIRENNE, *Les Grands courants*, II/65 .

٢٣١ . D. et J. SOURDEL, *La civilisation de l'islam classique*, p. 15 .

الحضارة الإسلامية حضارة رقية (حضارة عبيد). فإن الطاقة ، أو قوة الدفع ، كانت تعتمد ، في القسم الأكبر منها ، على عضلات العبيد . وقد أكد دومينيك سورديل أن الخدم والعبيد مثّلوا دوراً سياسياً لا يمكن تجاهله<sup>٢٣٢</sup> . وكانت تجارة العبيد من أهمّ التجارات ، ومنابعها الأساسية ثلاثة : بلاد الصقالبة<sup>٢٣٣</sup> ، وبلاد الأتراك (آسية الوسطى) ، وبلاد السودان<sup>٢٣٤</sup> .

ولا نستغرب هذا الطابع الجدليّ للحضارة الإسلامية إذا علمنا أن أبا مسلم الخراساني (ت ٧٥٥) المولى الفارسي ، كان على رأس القوة التي يدين لها العباسيون بقيام دولتهم<sup>٢٣٥</sup> . وكانت الخيزران ، الأمّة البربرية التي تزوّجها الهادي ، كثيراً ما تكلّمه في الحوائج ، فكان يجيبها الى كل ما تسأله ، حتى مضى لذلك أربعة أشهر من خلافته ، « وانثال الناس عليها ، وطمعوا فيها ، فكانت المواكب تغدو الى بابها ... »<sup>٢٣٦</sup> وكان عدد المرتزقة ، سوى المطوعة وأهل الأسواق ، في غزوة هرون الرشيد الى بلاد الروم على عهد والده المهدي ، مائة ألف عنصر<sup>٢٣٧</sup> . وأنفق الخلفاء على المرتزقة والموالي المحاربين بغير حساب ، لأنهم دعامة ملكهم ، ورسل الغنى والمكاسب الباهظة للخلافة . فعندما وجّه المنصور ، عام ٧٧١ ، يزيد بن حاتم الى أفريقية في خمسين ألفاً لحرب الخوارج الذين كانوا بها ، أنفق على ذلك الجيش ثلاثة وستين ألف ألف درهم<sup>٢٣٨</sup> .

ولن ننسى من ارتكز عليه المعتصم وغيره من حرس ، وجنود ، وموالي أتراك ، وشركس ، ونبط ، وفرس ، وصقالبة ، وهنود ، وغيرهم من المرتزقة الذين أغرتهم ثروة البلاط العباسي . وكان صعاليك الخصيان والعبيد يملأون مداخل البلاط في بغداد<sup>٢٣٩</sup> . وبلغ الأفشين ، قائد المعتصم ، من النفوذ والجاه ، شأواً عظيماً . وهو الذي قضى على

٢٣٢ . D. SOURDEL, *L'Islam médiéval*, p. 164 .

٢٣٣ . أوروبا الوسطى والشرقية .

٢٣٤ . M. LOMBARD, *L'Islam dans sa première grandeur*, pp. 194-195 .

٢٣٥ . بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ١٧٥ - ١٧٦ .

٢٣٦ . الطبري ، ٢٠٥/٨ .

٢٣٧ . المصدر نفسه ، ١٥٣/٨ .

٢٣٨ . المصدر نفسه ، ٤٤/٨ .

٢٣٩ . H. LAMMENS, *La Syrie*, 1/130 .

ثورة بابك الخرمي، وغيرها من الثورات. وكان يد الخليفة العيني في فتح عمورية الشديدة التحصين. فتوجه الخليفة، وألبسه وشاحين بالجوهر، ووصله بعشرين ألف ألف درهم، وعقد له على السند، وأدخل عليه الشعراء بمدحونه، وأمر للشعراء بصلات. وممن مدحوه أبو تمام الطائي، الذي قال:

قد كان<sup>٢٤١</sup> عُدْرَةَ سُودِدٍ فَافْتَضَّهَا  
بِالسَّيْفِ فَحُلَّ الْمَشْرِقُ الْأَفْشِينُ<sup>٢٤١</sup>

وقال فيه الحسين بن الضحّاك الباهلي:

إِنَّمَا الْأَفْشِينُ سَيْفٌ سَلَّهَ قَدَرُ اللَّهِ بِكَفِّ الْمُعْتَصِمِ<sup>٢٤٢</sup>

ولم يكن إيتاخ<sup>٢٤٣</sup> الخادم أقلّ شأنًا، إذ أقامه المعتصم واليًا على مكة والمدينة والموسم، ودُعي له على المنابر، وفي عام ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م. جعله أميرًا على الحج<sup>٢٤٤</sup>. وقتل مؤنس الخادم المقتدر، ونصب مكانه القاهر بالله بن المعتضد، وكان يشير بالوزراء على العهدين. ولكن، ما لبث القاهر أن ذبحه<sup>٢٤٥</sup>.

وبلغت منازل الحرّيم في بلاطات الخلفاء أعدادًا خياليّة، فكان بلاط هرون الرشيد، بما فيه من دور حرّيم، وخصيان، وأهل الخاصة، يبلغ ثلث مدينة بغداد<sup>٢٤٦</sup>. وناهز عدد جوّاري الرشيد الألفين<sup>٢٤٧</sup>، والمتوكل الأربعة الآلاف<sup>٢٤٨</sup>. ومشى في موكب الخليفة المقتدر (٩٠٨ - ٩٣٢) سنة ٩١٧، وهو يستقبل رسل ملك الروم، سبعة آلاف خادم، وسبعمئة حاجب<sup>٢٤٩</sup>. وكان الحكم في خلافته للنساء والخصيان<sup>٢٥٠</sup>. وكان لدى الطولونيّين وحدهم ٢٤٠٠٠ عبد تركي، و ٤٢٠٠٠ عبد أفريقي. واستلزم

٢٤١. أي حصن عمورية.

٢٤٢. الطبري، ٥٥/٩.

٢٤٣. المصدر نفسه، ٧٠/٩.

٢٤٤. كان إيتاخ غلامًا خزريًا لسلام الأبرش، طبّاخًا، فاشتراه منه المعتصم عام ١٩٩ هـ / ٨١٤ م.

٢٤٥. الطبري، ١٦٦/٩.

٢٤٥. ابن مسكويه: تجارب الأمم، ٢٤١/١ - ٢٤٥ و ٢٦٨.

٢٤٦. فيليب حتي: تاريخ العرب، ص ٣٦٩.

٢٤٧. جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، المجلد الأول، ص ٣٢٨.

٢٤٨. السعدي: مروج الذهب، ٣٩/٥.

٢٤٩. فيليب حتي: تاريخ العرب، ص ٣٦٩.

٢٥٠. Marius CANARD, in *Arabica*, 1962, p. 267.

الزنج تعبئة جيش الخلافة لفترة طويلة<sup>٢٥١</sup>. وضمّ حريم البلاط الفاطمي في القاهرة اثني عشر ألفاً، وكان هؤلاء النسوة، في الغالب، مهملات، ومتدربات على أصناف من الفنون والمهارات، وكانت لهنّ مدارس خاصة في الحواضر الكبيرة كبغداد والمدينة وقرطبة<sup>٢٥٢</sup>.

ولما سيطرت جحافل البويهيين الفرس (٩٤٥)، والسلاجقة الأتراك (١٠٣٧)، على الخلافة، وتسمّى زعمائهم بالسلطين، لم يبق من سلطة الخليفة المدنية شيء تقريباً، وأصبحوا ينصبّون الخليفة ويخلعونه، كما خلع بهاء الدولة بن بويه الخليفة الطائع عام ٩٩١، ونصبّ مكانه القادر بن المتقي<sup>٢٥٣</sup>. إلا أنّ الخليفة حافظ في كل الأحوال على مظاهر السيادة والعظمة، وكما أنّ الخدم والعبيد تحكّموا به في فترة متقدمة من تاريخ الخلافة، فإنّه كان يُقابل الناس عموماً، بكثير من الهيبة والاستخفاف، ويتمسك بتقاليد استمرت من مطلع الخلافة العباسية حتّى أفولها. فالناس يقفون في حضرته بحسب مراتبهم. وكان يروق له أن يقبل القادمون عليه يديه ورجليه، وربّما قبل بعضهم حافر مطيّة وهو عليها، زيادة في إظهار الطاعة والخضوع<sup>٢٥٤</sup>، حتّى أنّ الأمين احتجب عن إخوته وأهل بيته وقوّاده، واستخفّ بهم<sup>٢٥٥</sup>.

وفي كل حكم ودولة، عندما يفسد الباطن، أو يضعف، أو يتحوّل عن مجراه الطبيعيّ وتجرفه الأعاصير، يحاول الحاكم أن يغطّي حقيقة الأمور بالتضليل والمظاهر الخادعة، خصوصاً عندما يكون الزائرون من الأجانب الذين لم يعايشوا الأحداث. فكان الخليفة، عندما يرد الرسل الأجانب الى دار الخلافة، يستقبلهم بما يظهر مجده وأبّهته، كما فعل المقتدر يوم ورده رسولان لملك الروم عام ٩١٧ يلتمسان الهدنة «فشاهدا في طريقهما من الجيش وكثرة الجمع ما هالهما»<sup>٢٥٦</sup>. ولم يكن ملك الروم أقلّ حرصاً من الخليفة على دبّ التهيب والوجل، وربّما

٢٥١. A. MIQUEL, *L'Islam et sa civilisation*, pp. 128-129.

٢٥٢. M. LOMBARD, *L'Islam dans sa première grandeur*, p. 100.

٢٥٣. تاريخ الفارقي، ص ٦٣ - ٦٤، وابن مسكويه: تجارب الأمم، ٢٠١/٣ وما بعدها.

٢٥٤. المصدر الأخير، ٨٦/٢، والطبري، ٤٢٩/٧ و ٢١٧/٨.

٢٥٥. المصدر الأخير، ٥٠٩/٨.

٢٥٦. ابن مسكويه: تجارب الأمم، ٥٣/١ - ٥٤.



الدَّعْر ، في نفوس موفدي الخليفة اليه ، وقصة عمارة بن حمزة مع ملك الروم معبرة في هذا الشأن<sup>٢٥٧</sup>. وإن اقتبس العباسيون مثل هذه الرسوم والعادات عن الروم او الفرس ، فإنَّ الانسان يأخذ عن الغير ما يُناسب طبعه وحاجاته .

وبعد الذي رأيناه من كثرة الأجناس والأمم التي تحكمت بالخلافة العباسية ، وكان لها اليد الطولى فيها ، يحسن التكلم على عالم «تحت الحكم الاسلامي» ، وليس على عالم إسلامي بكل معنى الكلمة . وهو عالم مركب من جملة حضارات ، كالعالم اليوناني او الروماني ، مع فارق مساحاته الشاسعة<sup>٢٥٨</sup>.

### ١٣. إنتشار اللغة العربية

حمل العرب لغتهم الى مختلف الأصقاع التي فتحوها وسيطروا عليها . وحيث انتشر الاسلام ، كان للغة العربية تقدير كبير جداً بلغ حدَّ التقديس ، لكونها لغة القرآن ، والرسول ، وأهل الجنة ، كما يعتقد المسلمون . وأصبح من الناقل بسط الدور الذي مثله القرآن الكريم بالنسبة لانتشار اللغة العربية وديمومتها . وهذا لا ينفي ما للغة العربية من صفات تساعد على بقائها ، كجمال التعبير ، والاشتقاق ، والمرونة<sup>٢٥٩</sup>.

٢٥٧. ابن الفقيه : كتاب البلدان ، ص ١٣٧ - ١٣٨ : «أوفد بعض الخلفاء عمارة بن حمزة الى ملك الروم ، وكتب يتوعده بالخيال والرجال . قال عمارة : فانتفيت الى مكان يُحجَّب منه الرجل على مسافة بعيدة ، فجلست حتى أتى الإذن ، فسرت الى مكان آخر ، فجلست حتى أتى الإذن ثلاث مرات . ثم وصلت الى داره ، فأدخلت داراً ، وإذا على طريقي أسدان عن جنبي الطريق ، وطريقي عليهما لا أجد من ذلك بداً . فقلت لا بدَّ من الموت ، فلن أموت عاجزاً . فحملت نفسي ، فلما صرت بينها سكنا . فجزت ، ودخلت داراً أخرى ، وإذا سيفان يختلفان على طريقي ، فحزرتُ أنه لو مرَّ بينها ذبابة لقطعاها . فقلت : الذي سلمني من الأسدين يسلمني من السيفين . فاستخرت الله ومضيت . فلما صرت بينها ، سكنا . ثم دخلت داراً ثالثة وفيها الملك . فلما صرت الى بهوه ، إذا هو في بهو فسح أكاد أن لا أبصره لبعده مسافة البصر بيني وبينه . فثبيت حتى انتهيت الى قدر ثلثه ، فغشيتني سحابة حمراء لم أبصر شيئاً . فجلست مكاني ساعة ، ثم تجلّت عني ، فقمّت ، فثبيت ، فلما بلغت نحو الثلثين غشيتني سحابة خضراء ، فغشيتني بصري منها ، فجلست حتى تجلّت . ثم قمت ، فثبيت ، فانتفيت الى الملك الخ...» .

ولما سأل عمارة بن حمزة عن قصة الأسدين ، والسيفين ، والسحابتين ، قيل له : «أما الأسدان والسيفان ، فإنها حيلة تُحتال لمن ورد علينا من رسل الملوك لتروّعهم بذلك . أما السحابتان ، فهما من ضوء قطعة ياقوت أحمر ، وقطعة زمرد أخضر» .

٢٥٨. انظر في هذا المعنى M. LOMBARD, *L'Islam dans sa première grandeur*, pp. 100 et 194

٢٥٩. راجع أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ وما بعدها .

وكانت اللغات الرسمية ، قبل الفتح العربي ، على الشكل الآتي : اليونانية في سورية البيزنطية ، والبهلوية (أو الفهلوية) فيما بين النهرين الساساني . وكانت الآرامية ، في كل مكان ، اللغة المتداولة الحية ، وهي تنقسم الى لهجتين : الآرامية الغربية في الإمبراطورية البيزنطية ، محدثة وكتابة ، وقد استعملت بين القرنين الرابع والسادس لكتابة تلمود<sup>٢٦٠</sup> أورشليم . والآرامية الشرقية في الإمبراطورية الساسانية . وانقسمت هي الأخرى الى لهجتين فرعيتين ، أولها البابلية المحكية والمكتوبة من قبل اليهود ، والتي دُون بها في القرنين الخامس والسادس التلمود البابلي . وثانيتهما السريانية ، اللغة الكتابية التي أصبحت لغة الأدب ، واللغة الكنسية لكل الكنائس المسيحية من يعاقبه ونساطرة وغيرهم ، من سورية الى ما بين النهرين وفارس . وكان عهد ازدهارها من القرن الرابع الى القرن الرابع عشر . وكان لكل من اليعاقبة والنساطرة أجدية خاصة . وساعدت وحدة العالم الاسلامي على التقارب بين الآراميتين الشرقية والغربية<sup>٢٦١</sup> .

وفي إيران ، تفاعلت اللغة الفارسية البهلوية مع اللغة العربية ، فأثرت فيها ، وأخذت عنها ، فطاولت النظم الايراني ، مثلاً ، أوزان الشعر العربي ، وأخذت قالباً عربياً . وكان من الفرس أدباء وفلاسفة لغتهم عربية كابن المقفع ، وأبي نواس<sup>٢٦٢</sup> ، وابن سينا الذي كتب مؤلفاته العلمية الكبيرة في بخارى باللغة العربية . ولم تنتشر العربية في مصر قبل القرن التاسع ، فالخليفة المأمون ، في رحلته الى مصر عام ٨٣٢ ، احتاج الى ترجمان . وبدءاً من هذا القرن ، عرف الاكليروس القبطي في مصر اللغة العربية . وفي القرن العاشر ، استعملها في كتاباته العادية ، لكي يتأكد من فهم الناس له . وانحصرت القبطية في التعبير الديني أو الخاص بالعلماء . ثم استطاعت العربية أن تقضي على القبطية المكتوبة خلال القرن الثالث عشر ، إذ إن آخر الكتابات بالقبطية ظهرت في هذا القرن ، بينما القبطية المحكية غابت في القرن العاشر<sup>٢٦٣</sup> .

٢٦٠. التلمود قسمان : المشناه ، ومعناها المعرفة التي أنزلت على موسى في طور سيناء ، وتناولها شفهياً الحاخامات أي الحكماء وعلماء التاموس ، والجماعة أو الغارة ، ومعناها الإكمال ، وهي شرح المشناه . والتلمود من أندر الكتب في العالم . (راجع ظفر الإسلام خان : التلمود ، تاريخه وتعاليمه ، دار النفائس ، بيروت ، ط ٤ ، ١٩٨١) .

٢٦١. M. LOMBARD, *L'Islam dans sa première grandeur*, pp. 92-93 .

٢٦٢. وُلِدَ في الأهواز من بلاد فارس .

٢٦٣. M. LOMBARD, pp. 54 et 96; M. RODINSON, *Les Arabes*, p. 64; A. MIQUEL, *L'Islam et sa civilisation*, p. 108.

# البحر الثاني مرافق الحياة

- ١ - الحاصلات
- ٢ - الصناعات
- ٣ - التجارة
- ٤ - الملاحة النهرية
- ٥ - الملاحة البحرية
- ٦ - المواصلات البرية





## ١ - الحاصلات

شكّل الخبز واللبن الغذاءين الأساسيين في الخلافة العباسية. وكانا، في الوقت نفسه، أهمّ أغذية أوروبة. غير أن خبز الشرق كان بشكل أرغفة رقيقة مستديرة<sup>١</sup>. وكانت الحنطة تُزرع في كل الأراضي المروية، فيما خلا الذرة التي كانت تُزرع في الأمكنة الجافة جنوبي الجزيرة العربية، وفي بلاد النوبة وكرمان، لأن الذرة تكتفي بالماء القليل، وكانت تؤكل كما يؤكل الأرز الذي كان يُزرع في المناطق الرطبة، ويُشكل، في كثير من الأمكنة، الغذاء الأساسي<sup>٢</sup>.

وارتفاع أسعار القمح في العراق دليل على غلاء المعيشة في تلك الآونة. ولم يكن الأرز في بلاد العرب عزيزاً، كما هو في بلاد الهند والصين، وإنما كان يأتي عند العرب في مرتبة دون مرتبة الشعير. وكان الناس في بغداد يأكلون الخبز واللحم والبيض<sup>٣</sup>. وقلّ، عندهم، استهلاك السمك، والبقول، والأرز. وكانوا يطيبون طعامهم، فيأكلون السمك، أحياناً، مع الخلّ، والكرويا، والكمون، والسذاب<sup>٤</sup>، والكرفس، والخردل، والجوز<sup>٥</sup>. وصنع أهل خوزستان خبز الأرز الذي جعله الشعب قوته اليومي. وزرع الفلسطينيون والمصريون القلقاس. وكانت البساتين تُزرع بالفواكه، وعلى رأسها

١. الطبري، ٢١٦/٨: يسميه الرقاق.

٢. D. SOURDEL, *L'Islam médiéval*, p. 68.

٣. ذكر أن المنصور حضّرت له يوماً عجة من معسكر فاستطابها (مروج الذهب، ١٥٠/٤).

٤. نبات يشبه الرمان، ورقه كورق الصعتر، وزهره أصفر، ورائحته كريهة، يُستعمل خصوصاً في الطب.

٥. مروج الذهب، ٣٤٥/٤.

كروم (العنب) بأصنافه العديدة المتنوعة ، حتى قال ابن الفقيه في « كتاب البلدان » (ص ١٢٥) : « ولو أنّ رجلاً خرج من بيته مسافراً في عنفوان شبابه وحدائه سنّه ، واستقرى البلدان صقعا فصقعا ، يتبع الكروم مصراً فصراً ، حتى يهرم ، وصغيراً حتى يبدن ، ليتعرف أجناسه ، وإحاطة العلم بأنواعه ، بل إقليماً واحداً من الأقاليم ، وناحية من أقطار الأرض ، لأعوزه وغلبه ، وعزه وبهره ، إذ كانت كثرة فنونه ، واختلاف أنواعه لا تدرك ». وكثرت زراعة الكروم في اليمن ، وبلغت الدوالي فيه مقادير قياسية . وكان في سامراً نخيل كثير ، وثمار متنوعة ، وكروم واسعة ، وغلات تحمل منها الى بغداد<sup>٦</sup> .

وفي القرن التاسع ، عرف المجتمع العباسي الممتاز نوعين جديدين من الفاكهة : الأترج<sup>٧</sup> ، والنارنج<sup>٨</sup> . وعلى قلة وجودهما في العراق ، قدّما الى الناس في الاحتفال بختان المعتز بن المتوكل حوالى منتصف القرن التاسع للميلاد . وذكرهما ابن المعتز<sup>٩</sup> في شعره ، فقال :

كأنما النارنج لما بدتْ      صفرته في حمرة كاللهيب  
وجنة معشوق رأى عاشقاً      فاصفراً ثم احمرّ خوف الرقيب

وقال أيضاً :

يا حبّذا ليمونة      تحدث للنفس الطرب  
كأنها كافورة      لها غشاة من ذهب

ولا يناقض ذلك مناقضة فادحة ما ذكره المسعودي من أنّ هذين النوعين من الفاكهة جلبا من الهند بعد الثلاثمائة ، أي بعد القرن التاسع ، إذ قال حوالى عام ٩٤٤ : « وكذلك شجر النارنج والأترج المدور جلب من أرض الهند بعد الثلاثمائة ، فزرع بعمان ، ثم نقل الى البصرة والعراق والشام ، حتى كثر في دور الناس بطرسوس وغيرها من الثغر الشامي وأنطاكية وساحل

٦. ابن حوقل : المسالك والممالك ، ص ١٦٧ .

٧. ويُقال له الأترنج والترنج : ضرب من الليمون تسميه العامة الكبد cedratier .

٨. كلمة فارسية تعني « البؤفير » orange amère .

٩. ابو العباس عبد الله بن المعتز (٨٦١ - ٩٠٨) : أمير شاعر . ولي الخلافة يوماً وبعض يوم بعد خلع المعتز ، ولقب « المرتضي بالله » . مات خنقاً . تميّز شعره بالوصف والصناعة .

الشام وفلسطين ومصر ، فعدمت منه الروائح الطيبة واللون الحسن الذي يوجد فيه بأرض الهند لعدم ذلك الهواء والتربة والماء وخاصية البلد<sup>١٠</sup> . وسُميت سوق بيع الفاكهة « دار البطيخ » لكثرة هذه الفاكهة في العراق وشمال بلاد فارس بنوع خاص ، حيث كانوا يقدّدون البطيخ الجيد ، ويرسلونه الى العراق . واستعملوا الرمان في المطابخ كاستعمال رُبّ البندورة في أيامنا ، وكانت السفن الكثيرة تقطع الفرات الى بغداد محملة بصناديق الرمان ، وبالزيت والخشب . ولم يكن في العراق زيتون ، لأنه من نبات البحر الأبيض المتوسط ، فكان يجلب من الشام وأفريقية الشمالية ، مثلما كان التفاح يجلب من بلاد الشام أيضا . ومنذ تلك الأيام كانت التمور تُصدّر من العراق بمقادير كبيرة ، وقد زرع فيه قصب السكر ، وخصوصا حول البصرة ، كما انتجت مصر سكرًا وعسلًا كثيرًا . واشتهر الإجاجص العمري بشيراز ، والتين الدمشقي بالرملة ، والمشمش العسلاوي ، والرياس بنيسابور ، والخوخ بمكة<sup>١١</sup> .

وفي « مروج الذهب » للمسعودي وصف مستفيض للطعام وأصنافه وألوانه في قصائد الشعراء العباسيين ، حيث يتجلى الكثير من الألفاظ الفارسية<sup>١٢</sup> . وذكر ابن قتيبة<sup>١٣</sup> طائفة كبيرة من الخضّر التي كانت تُزرع في العصر العباسي ، ومنها الكُمأة والفُطر والبَصَل والثوم والكُرّاث والكُرْنب والقُنَيْط والسَلْجَم (اللفت) والفجل والبادنجان والخيار والقِثَاء والسَلِق والهلْيُون والقرع والبقول والباقلَى او الباقلاء (القول) والسَّمَّاق والخَرْدل واللوبياء . ومن صنوف أطعمتهم ذكر الزُّبد والعصيدة والهريسة والحيسة والجبن المخلوط بالتمر والسمن والسמיד ، وأكلوا القديد أي اللحم المخفّف في الشمس<sup>١٤</sup> .

وقلّ استعمال البخور في العصر العباسي ، واستعمل مكانه العنبر المخلوب من جنوب الجزيرة العربية . وكان مرفأ عدن ، على نزرة محاصيله الزراعية والحيوانية ، يشكّل مصدرًا مهمًا من أرضه ومن البلدان التي تتلاقى وتصبّ فيه . فكان يصدّر العنبر والعود والمسك ، ومتاع السند والهند والصين والزننج والحبشة وفارس والبصرة وجُدّة والقلمز البحر الشرقي الكبير

١٠. مروج الذهب ، ٤٣٨/٢ - ٤٣٩ .

١١. المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٧ .

١٢. مروج الذهب ، ٢٥٠/٥ - ٢٥٧ .

١٣. ابو محمد عبد الله بن مسلم (٨٢٨ - ٨٨٩) . فقيه ومحدّث ومؤرّخ ونحوي وأديب . اتصل بالجاحظ في

البصرة وتوفي ببغداد . من مؤلفاته : الشعر والشعراء ، وأدب الكاتب ، وعيون الأخبار ، وكتاب المعارف .

١٤. عيون الأخبار ، ٢٨١/٣ وما بعدها ، ١٩٦ - ١٩٧ .

الذي يخرج منه العنبر الجيد<sup>١٥</sup>. واستخرجوا المسك من النبات أو من سر الحيوَان كالغزال ، وبعض أنواع الكلاب<sup>١٦</sup>. واستخرجوا البُورق أو النطرون<sup>١٧</sup> من بحيرة « وان » في شمال فارس . والخبازون العراقيون يستعملونه لتلميع الخبز . أما بُورق الصاغة ، فكان يؤخذ من بحيرة أرمية<sup>١٨</sup> الى العراق والشام ومصر ، ويباع بثمان باهظ . واختصت السودان بتصدير حجر الشب الى سائر البلاد العباسية . وكانت تستخرج هذا الحجر من حول بحيرة شاد حيث يكون أهم الموارد . واستخرج الملح بكميات هائلة من مناجم الصحراء ، ومن المحيط الأطلسي<sup>١٩</sup> . واستغلّ العباسيون من المعادن الذهب والفضة . وكان أكثر الذهب يأتي من المغرب ، إلا أنه كانت له معادن في الصحراء الحارة شرقي النيل حول مدينة أسوان . وذكر الاصطخري (ت ٩٥٧) أن بين أرض النوبة وأرض مصر مفازة فيها معدن الذهب<sup>٢٠</sup> . وكانت السودان عموماً بلاد التبر ، فكانت القوافل تأتي من الجنوب محملة بالذهب والعبید ، وتعود وعليها الملح من الشمال . أما الفضة ، فكانت أكبر معادنها في المشرق ببلاد فارس<sup>٢١</sup> . وفي أصفهان وبخارى معادن النحاس الأصفر<sup>٢٢</sup> .

وكانت أشروسنة وفرغانة ، وغيرهما من بلاد ما وراء النهر ، على كثير من الخصب والغنى ، مستغنية عن الاستيراد ، يكثر فيها البغال والحمر والابل ، وثياب القطن والفراء والصوف والأوبار ومعادن الحديد والنحاس والفضة والذهب والفيروزج والزجاج والأنك<sup>٢٣</sup> والزبيق والنوشادر (كلورير الأمونيوم) والنفط والزفت والكاغد<sup>٢٤</sup> .

١٥. ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٦١ .

١٦. الطبري ، ٣٤٩/٨ . قال المتنبّي في مدح سيف الدولة :

فإن تفت الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

١٧. مادة أقوى من الملح natron ou natrum : كربونات السّودا الطبيعية المتبلّرة .

١٨. بحيرة رضائية اليوم في شمال غربي إيران .

١٩. آدم متر : الحضارة الإسلامية ، ٣١٦/٢ - ٣١٧ .

٢٠. الاصطخري : مسالك الممالك ، ص ٥ .

٢١. في بلاد هندكوش ومدينة بنجهير على الأخص (D. SOURDEL, *L'Islam médiéval*, p. 69) .

٢٢. المصدر السابق ، ص ٢٨٧ .

٢٣. الرصاص الخالص ، وقيل القزدير .

٢٤. الاصطخري : مسالك الممالك ، ص ٢٨٧ - ٢٨٨ ؛ وابن حوقل : المسالك والممالك ، ص ٣٦٢ .



وكان الحديد يُستخرج ويُصنع في فارس ، وبالقرب من بيروت ، ويكرمان وكابل<sup>٢٥</sup> وفرغانة<sup>٢٦</sup>. وجُعِلَتْ له سوق بخراسان ، كان الناس يؤمونها في مطلع كل شهر ، من كل حذب وصوب . واستُخرج الفحم الحجري بفرغانة وبُخارى ، واعتبره الجغرافيون والرحالة ، في ذلك الزمان ، من عجائب الله ، لأنه «حجارة تحترق كالفحم» . وكانت النظرة الى الأحجار الكريمة تختلف عن نظرتنا اليها اليوم ، إذ لم يكن الألباس<sup>٢٧</sup> على رأسها ، بل كانوا يقدمون عليه فيزوج نيسابور ، وياقوت سرنديب (سيلان) ، ولؤلؤ عمان والخليج الفارسي ، وزبرجد مصر<sup>٢٨</sup> ، وعقيق اليمن ، ومرجان طبرقة في المغرب<sup>٢٩</sup> .

وحصر البيروني ، حوالى عام ١٠٠٩ ، الجواهر بالياقوت ، والزمرد<sup>٣٠</sup> ، واللؤلؤ . وما كان الألباس يُستعمل إلا للقطع او للسّم في خراسان والعراق . وكان الملوك والقوّاد يستعملونه للانتحار ، اذا وقعوا في قبضة العدو بلعوا فصّاً منه فماتوا . وكان أهل اليمن يصقلون الخرز الملون ، فيجلب من بلادهم ، وتصنع منه الآلات ، ويعمل ألواحاً ، وصفائح ، وقوائم سيوف ، ومقابض سكاكين ، ومداخن ، وغير ذلك . وكان ، لحمله ولعانه ، يُستعمل في صنع أدوات المائدة للسادة والأمرء . وكانت اليمن تجلب جلوداً ملّمة للنعال من نواحي عدن<sup>٣١</sup> . وتعلّم أهل مصر واليمن صناعة الجلود من الزنوج . وصنع العباسيون خير الأمشاط من الذّبل ، وهو ظهور السلاحف التي جلبوها من بلاد الزنج . أمّا الأمشاط العادية ، فكانت تصنع من القرون<sup>٣٢</sup> . وكان العراقيون يربّون البقر ، إلا أنّهم أكلوا لحمها حتى القرن الثامن الميلادي ، وتركوه ،

٢٥. عاصمة أفغانستان .

٢٦. وادٍ على نهر سَرَدَرِيَا في جمهوريات أوزبكستان وتادجيكستان وقرغيز ، وفيه مدينة على اسمه .

٢٧. ربّما سَمَوْه الزُّجاج كما ورد للاصطخري : «وبالقرب من نُصَيين جبل ماريون ... وهو جبل به جواهر الزُّجاج» (مسالك المالك ، ص ٧٣) .

٢٨. قال الاصطخري : «وبصعيد مصر ، جنوبي النيل ، معدن الزبرجد ، في برية منقطعة عن العارة ، ولا يُعلم في الأرض معدن له غير هذا» (مسالك المالك ، ص ٥٥) .

٢٩. الاصطخري : مسالك المالك ، ص ٣٢ و٣٨ ؛ وابن حوقل : المسالك والممالك ، ص ٣٧ - ٣٨ .

٣٠. كان معدن الزمرد في الصعيد الأعلى خصوصاً (المسعودي : مروج الذهب ، ١٣٢/٢) .

٣١. الاصطخري : مسالك المالك ، ص ٣٥ - ٣٦ .

٣٢. آدم متر : الحضارة الإسلامية ، ٣٣٢/٢ .

بعد ذلك ، لاعتباره ضاراً وساماً ، وأصبحوا يربّون البقر للبهنا . وأبدى بعضهم<sup>٣٣</sup> دهشته من تفضيل أهل اليمن لحـم البقر على لحم الغنم . وكانت قبائل ربيعة ومضر في جزيرة العراق ( ما بين النهرين ) تربّي الخيل والغنم والابل ، وانتجت مصر أثمن البغال والحمير في البلدان الإسلامية<sup>٣٤</sup> .

وكانت جزيرة العرب أرض الجبال ذات السنام الواحد ، وبلغ<sup>٣٥</sup> تصدّر الجبال ذات السنامين . وكان العراق يجلب الخيول الأصيلة من جزيرة العرب ، أمّا الخيول العادية فكانت تُربّى في الموصل . واعتنى بعض سكّان شماليّ أفريقية بالكلاب السمينة ، وأكلوها في سجلماسة (المغرب) ، وقفصة (تونس) ، وقسطنطينية (الأندلس) . واشتهرت مصر بتربية الدجاج تربيةً صناعيةً . ورُبّي الحمام في أبراج عالية لوقايته من الأفاعي وغيرها من الحيوانات الضارة ، واستعمل ، خصوصاً ، لأجل سواده . ورُبّيَت الأسماك على أنواعها ببحيرة طبرية<sup>٣٦</sup> .

## ٢ - الصناعات

يحتمل معنى الصناعة البدائيّ مجموعة جهود الانسان لاستعمال قدراته . إنّها الحذق او المهارة المستعملة لتطويع بعض الأشياء في سبيل نتيجة معيّنة . وبمعناها الواسع ، تعني الصناعة مختلف الفنون والحرف التي تحوّل الموادّ الأولية لخدمة الانسان . وحيث إنّ العصر الصناعي جاء متأخراً عن العصر الزراعي ، واستخدم موادّه ، فقد شكّل دليلاً على نموّ العقل البشريّ وتقدّمه ، وتثبيتاً لتطوّر الانسان ، حتى نُعتت الحضارة بالتصنيع ، فقيل الحضارة الصناعية . واختلطت التجارة بالصناعة ، وأدّى التفاعل بينهما الى مزيد من التوسّع والازدهار . وإذا كان ذكر الصناعات جميعاً يتعدّى بحثنا الحضاريّ ، ألمنا بما بدا لنا مهماً في قيمته الحضارية ، وأغفلنا الكثير مما عرفه العرب من الصناعات كالصبّاعة ، وصناعة الفخّار والخزف ، والزجاج ، والصبّاعة ، والحلّادة ، والنجارة ، والدباغة ، وصناعة الأحذية .

٣٣. ابن رسته ت ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م. ، صاحب «الأعلاق النفيسة» في الجغرافية .

٣٤. الاصطخري : مسالك الممالك ، ص ٥٥ و٧٧ .

٣٥. كانت بلغ مدينة ذات شأن في العصور القديمة والمتوسطة ، وهي اليوم قرية صغيرة في أفغانستان ، بعد أن دمرتها قبائل جنكيزخان عام ١٢٢٠ م .

٣٦. آدم متر : الحضارة الإسلامية ، ٣٠٢/٢ وما بعدها .

## ألف - الأسلحة

عني المسلمون ، في صدر الاسلام ، بالأسلحة والآلات العسكرية ، كالسيوف ، والرماح ، والنبال ، والدروع ، والبيض ، والمغافر<sup>٣٧</sup> . وعرفوا المنجنيق منذ عهد الرسول ، وسمّوا الصغير منه العرّادة<sup>٣٨</sup> . وصنعوا ، آنذاك ، دبابات من الخشب المغطى بالجلد سمّوها الضُّبور (واحداهما الضُّبر) ، فكانوا يتقون فيها النبال ، أو يزحفون تحتها الى الحصون . واستعملوا النفط ، والنار ، والسلام ، في الحصار وصدّ الأعداء<sup>٣٩</sup> . جاء في «تاريخ الطبري» أنّ المعتصم «تجهّز لغزو بلاد الروم (حوالي ٢٢٣ هـ / ٨٣٨ م) . بالسلاح ، والعُدَد ، والآلة ، وحياض الأدم ، والبغال ، والروايا ، والقرب ، وآلة الحديد والنفط»<sup>٤٠</sup> .

ولا ريب في أنّ العرب طوّروا أسلحتهم ، ولباسهم العسكريّ ، بعد اختلاطهم بالفرس والروم ، في الخلافتين الأموية والعباسية ، بحيث أصبحت لهم شهرة واسعة في هذه الصناعة<sup>٤١</sup> .

## باء - النسيج والألبسة

إهتمّ العبّاسيون بصناعة النسيج والألبسة اهتماماً بالغاً يتفق مع ما أعطاه الشرق الأدنى من أهمية لهذه الصناعة . وكانت قيمة الانسان ، عندهم ، بحسب لباسه ومظهره . وقد غطّوا جدرانهم بالسُتور ، وفرشوا في بيوتهم البسط والسجّاد . وكان لكل إقليم ولكل بلد نمطه الخاص في تزويق الأنسجة وتنويعها . ولكل غرض ألوانه ونسجه ، بحيث تختلف الأنسجة حسب طرائق استعمالها سجّاداً ، أو أغطية ، أو ميخاداً ، أو غمارق ، أو مقاعد ، أو غيرها من أنواع الوسائد<sup>٤٢</sup> .

ولم تكن مصر قد اختصّت بالقطن في تلك الآونة<sup>٤٣</sup> ، وإنّما عُرفت بالكُتّان ،

٣٧. جمع مَغْفَر ومَغْفَرَة : زرد يلبسه المحارب تحت القلنسوة .

٣٨. الطبري ، ٤٤٥/٨ .

٣٩. الطبري ، ٤٥٢/٨ و ٦٥/٩ .

٤٠. المصدر نفسه ، ٥٧/٩ .

٤١. المصدر نفسه ، ٣١/٨ و ٥٢ ، وصبحي الصالح : النظم الإسلامية ، ص ٤٠٠ - ٤٠٣ .

٤٢. آدم متز : الحضارة الإسلامية ، ٣٥٠/٢ - ٣٥١ .

(٤٣) انتقلت إليها صناعة القطن من سورية في القرن التاسع للميلاد .

وكانت زراعته في الفيوم، وفي تَنيس، ودمياط، وديقي التي عُرف قماشها<sup>٤٤</sup> الجيد بالدبيقي، وبلغ ثمن الثوب منه مئة دينار، وهو من الكتّان النقي الناعم. ونسجوا من الكتّان أيضاً ثياباً بيضاء سمّوها القَبَاطِي<sup>٤٥</sup>. وصُنعت الأَفَشَةُ الصُّوفِيَّةُ، أحياناً، في مدينة طَحَا<sup>٤٦</sup> في الصعيد. ثم عَدَّت تَنيس ودمياط في القرن العاشر أكبر مركزين لصناعة النسيج المرتفع بمصر<sup>٤٧</sup>. وصنعوا في تَنيس قماشاً مهلهلاً كالْمُنْخُل سمّوه القصب، وامتازوا، خصوصاً، بالملوّن منه، بحيث لم يجارهم فيه أحد. أمّا الأبيض، فكان ينسج في دمياط. واستعمل القصب لصنع عائم الرجال، وملابس النساء. وفي القرن الحادي عشر الميلادي ابتكر أهل تَنيس قماشاً جديداً بألوان مختلفة، سمّوه أبا قلمون. وصُنعت في الفيوم الستور الجميلة. وكانت النساء في مصر يغزلن الكتّان والرجال ينسجون. ونُسج الكتّان أيضاً في مدينة كَارُون بفارس، فسُمِّيَتْ «دمياط الأعاجم». وتشابهت الأنسجة بمصر وفارس، مما يدلّ على أنّها كانتا تتبادلان التجارة، والمعلومات الصناعية. واشتهر المشرق بالقطن خصوصاً، والمغرب بالكتّان. وكان نسيج القصب في كَارُون يُصنع من القطن الذي يُحمل إليها من الهند. ونُقل القطن إلى العراق من شمال فارس، ونشره بنو حمدان بين النهرين. وازدهرت صناعة القطن بشرق فارس في مرو ونيسابور وبِم، فصُنعت فيها الثياب القطنية الفاخرة، والطيبالس<sup>٤٨</sup> الثمينة<sup>٤٩</sup>. كما صُنعت في بلاد فارس الألبسة والثياب الموشاة، وثياب القزّ والصوف والمناديل والستور والبسط

٤٤. جاء استعمال لفظة قَاش بمعنى النسيج متأخراً. وكانوا يعنون بالقَاش، أولاً، ما على وجه الأرض من فئات الأشياء، أو قَاش البيت أي متاعه. قال الفارقي في تاريخه (ص ٦٨): «وأباح الجند قَاش الناس».

٤٥. ابن قتيبة: عيون الأخبار، ٢٢٣/٣.

٤٦. لا أعلم إن كانت مدينة طَحَا المذكورة في كتاب الحضارة الإسلامية لآدم متر (٣٥١/٢)، هي نفسها مدينة صخا التي ذكرها ابن حوقل في «المسالك والممالك» (ص ٨٩)، وقال إنّها «مدينة كبيرة ذات حمّامات، وأسواق، وعمل واسع، وإقليم جليل، له عامل بعسكر، وجند وغلّات، وبها الكتّان الكثير، وزيت الفجل»؛ أو أنها مدينتان مختلفتان. وفي معجم البلدان لياقوت، طحا: كورة بمصر شمالي الصعيد في غربي النيل (دار بيروت - دار صادر، ١٩٥٧، ٢٢/٣). أمّا صخا، فغير واردة في معجم البلدان.

٤٧. الاضطخري: مسالك الممالك، ص ٥٢.

٤٨. جمع طيلسان: طيبالس وطيبالسة. وهو كساء أخضر لا تفصيل له ولا خياطة يلبسه عادة خواص العلماء والمشايخ.

٤٩. آدم متر: الحضارة الإسلامية، ٣٥١/٢ - ٣٥٧.

والمصليّات ، وصُنعت في شيراز ، بخاصة ، أبراد عُرفت في أكثر الأقطار بالشيرازيّة ، وفي بخارى الثياب البخاريّة<sup>٥٠</sup>.

وامتدّت صناعة الحرير من بلاد الروم في الغرب الى المشرق ، حيث كانت أوسع صناعاته في مدينة خوزستان التي نقل اليها الساسانيّون صناعة الحرير على أنواعه من بلاد الروم. وكانت أهمّ الفرش الصوفيّة الفارسيّة منها والبخاريّة. وصنع أهل الحيرة الطنافس ، آخذين طريقها عن الروم ، وكانوا يزخرفونها ، ويرسمون عليها الخيل ، والجمال ، والسباع ، والطيور. وصنعوا في الأبلّة ثياب الكتّان الرفيعة المقصّبة ، وبالكوفة عائم الخزّ ، وفي بغداد الطرائف ومختلف ثياب القزّ ، وفي واسط الستور الواسطيّة ؛ وصنعت الحصر في كل أنحاء الخلافة العبّاسيّة ، وأتقنت مدينة عبّادان صناعتها ، فقلّد حصرها أهل مصر وفارس<sup>٥١</sup>.



### جيم - العطور

عرف العرب ، منذ عهد الرسول ، عود الطيب ، والكافور ، والمسك ، والغالية (أخلط من الطيب) ، والخلّوق<sup>٥٢</sup>. وربّما خلطوا الرامك ، وهو مادة سوداء كالقار ، بالمسك<sup>٥٣</sup>. واشتهر إقليم سابور في فارس بصناعة العطور المستخرجة من البنفسج ، والنيلوفر ، والزرّجس ، والسوسن ، والزنبق ، والنانج ، وغيرها. وحاول بعض العراقيّين استخراج العطور. وتفوّق الكوفيّون على أهل سابور في عطري الخيريّ<sup>٥٤</sup> الذي استحدثوه ، والبنفسج. وبرعت مدينة جُور (جنوبي فارس) في صناعة ماء الورد ، وصدّرته الى بلدان كثيرة كالمغرب ، والأندلس ، ومصر ، واليمن ، وبلاد الهند والصين<sup>٥٥</sup>. وورد في «مسالك الممالك» للاصطخري أن «حوالى الفسطاط زرع ينبت مثل

٥٠. ابن حوقل : المسالك والممالك ، ص ٢١٣ - ٢١٥ و ٢٢٣ و ٣٦٤.

٥١. آدم متر : الحضارة الإسلاميّة ، ٣٥٨/٢ - ٣٦١ ، والمقدّسي : أحسن التقاسيم ، ص ١٣٨.

٥٢. نوع من الطيب ، أعظم أجزائه من الزعفران.

٥٣. ابن قتيبة : عيون الأخبار ، ٣٠٣/١ - ٣٠٥ و ١٥٧/٢.

٥٤. زهر المنثور الأصفر.

٥٥. ابن حوقل : المسالك والممالك ، ص ٢١٣ ، والمقدّسي : أحسن التقاسيم ، ص ١٣٨ ، وآدم متر : الحضارة

الإسلاميّة ، ٣٦١/٢ - ٣٦٢.

القضبَان يُسمَّى البَلْكَان ، يَتَّخِذُ مِنْهُ دَهْنُ الْبَلْكَان ، لَا يُعْرَفُ بِمَكَانٍ فِي الدُّنْيَا إِلَّا هُنَاكَ»<sup>٥٦</sup>.

وإن كان فيما نقله الاصطخري مبالغة من مبالغات التأريخ القديم ، وأثر من آثار النقل عن السلف ، ومحدودية في النظرة الاقليمية الى سائر بقاع الأرض ، خصوصاً أن البَلْكَان ، أو البيلسان ، نبات ينجح في بلاد حوض البحر المتوسط ، يبقى لكلامه أهميته ورونقه في ازدهار البلسان وكثرته ، يومذاك ، حول فسطاط مصر.

### دال - الطواحين

استعمل العرب قبل القرن العاشر الجاروشة التي تُدار باليد ، ثم تركوها في التجمعات المتقدمة ، واكتفوا بالأرجاء المنصوبة على الأنهر ، وفي السفن ، والتي تدور بقوة الماء. وكثرت هذه الأرجاء حتى بلغت على نهر في كرمان خمسين رحى<sup>٥٧</sup>. وأنشأ أهل البصرة طواحين الماء في شط العرب ، مستغلين مدّ مياه البحر وجزرها ، ومستغنين عن الدواب التي كانت تدير الأرجاء في الأمكنة الخالية من الأنهر. وحوى دجلة أكبر الأرجاء التي توزعت في مختلف البلدان الواقعة على جنباتها<sup>٥٨</sup>. واشتهرت مطاحن الموصل باسم العربات ، واحدها عربة. وكانت مصنوعة من الخشب والحديد ، تحافظ على استوائها ، وسط الماء ، سلاسل الحديد. وعلى كل عربة حجران<sup>٥٩</sup>.

ويُروى عن أبي لؤلؤة فيروز ، قاتل عمر بن الخطاب ، وهو فارسي من نهاوند ، أنه قال : « لو شئت أن أصنع رحى تطحن بالريح لفعلت »<sup>٦٠</sup>. وقد عرف العرب طواحين الهواء ، وأبرزها ما كان في سجستان وكرمان. وروى آدم متر عن « مطالع البدور » للغزولي (ت ١٤١٢م) قوله فيما ابتكره المسلمون للسيطرة على سرعة الطواحين التي تديرها

٥٦. الاصطخري : مسالك الممالك ، ص ٥٤.

٥٧. المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٤٠١ و ٤٠٨ و ٤٦٦ ؛ وآدم متر : الحضارة الإسلامية ، ٣٦٢/٢.

٥٨. في تكرير والحديثة وعكبرا والبردان وبغداد.

٥٩. الاصطخري : مسالك الممالك ، ص ٢٧٣ ؛ والمقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ١٢٥ ؛ وابن حوقل :

المسالك والممالك ، ص ١٤٧ - ١٤٨ ؛ وآدم متر : الحضارة الإسلامية ، ٣٦٢/٢ - ٣٦٤.

٦٠. السعودي : مروج الذهب ، ٢٢٧/٤.

الرياح : « حدثني من دخل سجستان وكرمان أن جميع أرحامهم ودواليهم تدور بريح الشمال ، قد جعلت منصوبةً تلقاءها ، وأن هذه الريح تجري عندهم على الدوام صيفاً وشتاءً ، وهي في الصيف أكثر وأدوم . وربما سكنت في اليوم والليلة مرةً أو مرّات ، فيسكن كل رحي دولاب بذلك الإقليم ، ثم يتحرك ، فيتحرك . وذكر أن هذه الدواليب المنصوبة بها اثنا عشر ألفاً ، وتنقطع بانقطاعها ، قال : والخصب والقحط في بلادهم معتبر بكثرة جريان ريح الشمال ، ولكنه قال : ولهم في الأرحاء منافس تغلق وتفتح ، لتقل شدة دورانها وتكثره ، وذلك أنها اذا كانت قوية ، أحرق الدقيق فخرج أسود ، وربما حمي الرحاء فانفلق ، فهم يحتاطون لذلك بما ذكرناه »<sup>٦١</sup> ومثل هذا الابتكار الشبيه بصباب الأمان ، دليل على حيوية الحضارة العباسية ، وتنور عقول أربابها ، وعلى فعاليتها ، وإسهامها في تطوير المنشآت المستحدثة ، او المقتبسة عن الغير .

## هاء - الورق

قبل العباسيين كان التنازع بين بردي<sup>٦٢</sup> مصر والرق<sup>٦٣</sup> ، أما الورق الصيني فلم يُعرف إلا بعد استيراد الساسانيين له<sup>٦٤</sup> . كانت الصين تعرف ، منذ القرن الأول للميلاد ورق الكتان والقنب . وأقدم الوثائق المعروفة على الورق هي من القرنين الثاني والثالث ، ومصدرها بلاد تركستان الشرقية ، حيث استمرّ التأثير الصيني حتى القرن الثامن . وهي محفوظة في المتحف البريطاني .

وخلال القرنين التاسع والعاشر ، تقدّمت صناعة الورق في الخلافة العباسية ، وفكّ احتكاره ، وبخس ثمنه ، ولم يعد الاعتماد مخصوصاً على مصر في ورق البردي . ثم صنعوا الكاغد<sup>٦٥</sup> في سمرقند<sup>٦٦</sup> ومصر ، واستغنوا عن البردي والجلود . ابتداء استعمال الكاغد حوالى

٦١. آدم متر : الحضارة الإسلامية ، ٣٦٥/٢ .

٦٢. قشر القصب .

٦٣. جلد الضأن المرقق المصقول ، أو جلد الغزال .

٦٤. A. MIQUEL, *L'Islam et sa civilisation*, p. 130 .

٦٥. كلمة فارسية تعني الورق الذي يُكتب عليه ، أو القراطس .

٦٦. كانت صناعة الورق معروفة في سمرقند عند الفتح الإسلامي ، ثم تطوّرت هذه الصناعة في العهد الأموي ،

وبقيت سمرقند أكبر مركز لصناعة الورق الجيد (شحاده علي الناطور : دور الموالي في المجتمع الأموي ، ص ١٣٣) .

٩١٢ م.، وانتهى استعمال البرديّ المصري حوالي ٩٣٥ م. وصناعة الكاغد، أصلاً، منقولة من الصين.

وفي القرن العاشر، عمّت مصانع الورق بغداد، ودمشق، وطبرية، وطرابلس الشام، بعد أن أنشأ الوزير جعفر البرمكي (ت ٨٠٣) أول مصنع للورق في بغداد عام ٧٩٤ أو ٧٩٥ على عهد هرون الرشيد. وتبعته مصانع في العالم الإسلامي بكامله. وكان أول ذكر للورق في مصر عام ٧٩٦. ولم يوقف انتشاره في البلاد العباسية استيراده من الصين. واشتهرت «دكاكين الورّاقين»، حيث كانوا ينسخون الكتب ويجلّدونها ويبيعونها.

عرف العالم القديم مادّتين جيّدتين للكتابة، هما: البرديّ المصري، والرّق. وصنع المصريون البرديّ برصف صُفِيّحات من القشور بشكل أفقيّ وعموديّ متتابع، وضغطها، ثم تغريتها بالنشاء. وقد استعملت الخلافة الأموية البرديّ في كل دوائرها، على غرار الامبراطوريتين الرومانية والبيزنطية. ولمّا كان العباسيون ووزراؤهم البرامكة أميل الى عادات الفرس، فقد استعملوا الرّق، وتركوا البرديّ، في مكاتب عاصمتهم الجديدة بغداد، حتى حدث التغيير الجذريّ في آخر القرن الثامن مع جعفر البرمكي الذي أدخل استعمال الورق في الدواوين الرسميّة. وأسباب هذا التجديد، كما أبداه المؤلفون العرب، تعود الى تدني كلفة هذه المادّة، وخصوصاً الى عدم إمكانية محو كلمة، أو غسل ورقة، بغير أثرٍ باقٍ كما يسمح البرديّ والرّق. فع الورق أصبح المستند صحيحاً وموثوقاً به. أما المِداد المستعمل، فكان أجوده الصيني، ثم المِداد الأسود الذي يصنع ببلاد فارس<sup>٦٧</sup>.

عبرت صناعة الورق من الصين الى آسية الوسطى. وإن لم تكن الامبراطورية الساسانية تعرف هذه الصناعة، فقد كانت تعرف على الأقل الورق الذي استوردته من الصين. وفي عام ٧٥١ م.، انتصرت جيوش الاسلام على الصينيين على ضفاف نهر طَلَس، وفتحت آسية الوسطى أمام تأثير العالم الاسلامي، ذلك التأثير الذي امتدّ حتى تركستان. وأدخل السجّناء الصينيون صناعة الورق إلى سمرقند حيث يزرع الكتّان والقنب في نطاق واسع. وانتقال تركستان الى العالم الاسلامي في السياسة والاقتصاد،

٦٧. ابن حوقل: المسالك والممالك، ص ٢١٥.



ساعد على هجرة المهارات الصينية الى غرب الصين . وهكذا انتشر الورق في كل العالم الاسلامي خلال القرنين التاسع والعاشر . ووجدنا له مصانع شهيرة في سورية ، حيث تلاقي زراعة القنب الجوّ المناسب ، كما وجدنا هذه المصانع في صقلية والأندلس ، حيث صنعت شاطبة الورق الشاطبي الذي لا يزال اسمه يُطلق حتى اليوم ، في المغرب ، على نوع من الورق الصفيق .

وحيال اكتساح الورق ، تخلّت مصر نفسها ، شيئاً فشيئاً ، عن صناعة البرديّ ، وقد عُثِر فيها على قرآن مخطوط على الورق من القرن العاشر . ولم تكتب وثائق القرنين العاشر والحادي عشر على برديّ ، فلم يبق سوى اسم واحد : الورق . والدواوين البابوية والبيزنطية ، التي حافظت على البرديّ تقليدياً ، تخلّت عنه في القرن العاشر . وأوّل الوثائق الغريبة على الورق تعود الى مطلع القرن الثاني عشر ، وهي على أوراق مستوردة من مصانع إسبانية وصقلية . أمّا بيزنطية ، فكانت تؤمّن ورقها من سورية ومصر . وفي القرن الثالث عشر ، أخذت صناعة الورق تنتقل الى الغرب ، وتمركزت في إيطاليا ، وجنوبيّ غربيّ فرنسا<sup>٦٨</sup> . ويُستتج من ذلك ان العرب والمسلمين سبقوا الغرب الى صناعة الورق واستعماله حوالي خمسة قرون ، وقد عرفوا هذه الصناعة ، مع جعفر البرمكي ، منذ أواخر القرن الثامن .

### ٣ - التجارة

التجارة هي تبادل السلع عيناً أو لقاء ثمن . وهي صلة وصل بين الأفراد والشعوب ، اذ ينطلقون من تبادل السلع الى تبادل المعارف والخبرات ، ومن ثَمَّ الى تفاعل الثقافات والحضارات وتطلق التجارة اليوم ، بمعناها المجازي ، على العلاقات ، والاتصالات ، والروابط بين الناس ، لأيّ غرض كان . فيقال مثلاً : تجارة الحياة والعالم ، وإقامة تجارة صداقة مع فلان ، الخ ...<sup>٦٩</sup> .

٦٨. M. LOMBARD, *L'Islam dans sa première grandeur*, p. 41; A. MIQUEL, *L'Islam et sa civilisation*, p. 130; *Dict. encycl. Quillet*, 1968, 1/314 ؛ زغيريد هونكه : شمس العرب تسطع ؛ على الغرب ، ص ٤٥ - ٤٧ ؛ آدم متر : الحضارة الإسلامية ، ٣٦٥/٢ - ٣٦٨ .

٦٩. مثل هذه التعابير شائعة خصوصاً في البلاد الغربية .

ولا بدّ من أن ترفد التجارة وترافقها مجموعة منشآت كالأسواق ، والمصارف ، والطرق ، والفنادق ، والعملات ، والمظاهر والوسائل ، وغيرها مما يساعد على سهولة الاتصال ، وسرعته ، وحرّيته . والتجارة آلة هائلة ، تتغلغل في البلدان والشعوب ، وتصل الى نتائج إيجابية في مجالات مختلفة وواسعة ، ربّما قصّرت عنها السياسة والحروب . وأنّى تكن حالة الخلافة العباسية المتدهورة أو المتفككة ، بعد أن فشلت في أكثر الأحيان من خلق جيشها المتناسك الموحد ، فإنّ تجّارها وصلوا الى بلدان في أقاصي المعمورة ، وفي أربع جهات العالم ، وربطوا ، بخاصة ، بين تجارة الشرق الأقصى ، والبحر المتوسط<sup>٧٠</sup> .  
X وربّما كان أهمّ تأثير للتجارة ، داخل المجتمع العربي المتقسم الى مجموعة نزعات وعصبيّات ، أنّها خلقت صلة وصل بين الفئات ، ونخرت ، كالسوسة ، وحدة القبيلة ، وأطلقت الفرد الى الإهتمام بميادين خارجيّة جديدة ، مشوّقة ، والى تبادل السلع ، ولفتت العربي الى ميادين أخرى لم يكن له فيها علم أو رجاء .

### ألف - أهمّيّتها وأسواقها

ليس اقتصاد العباسيين غريباً عن اقتصاد القرون الوسطى المبني على الثروة العقاريّة والتجارة الواسعة<sup>٧١</sup> . ونكوّن فكرةً جليّةً عن أهميّة التجارة العباسيّة بكثرة أسواقها ، وضخامة قوافلها التي وصفها المستشرق أندريه ميكال بأنها «عالم يسير» . وكانت تضمّ ، أحياناً ، بين خمسة او ستة آلاف جمل ، وإن يكن القسم الأكبر منها أقل من هذا العدد بكثير . وقد أنشئت على طرقاتها الخانات المحصّنة الواسعة والصغيرة<sup>٧٢</sup> .

كتبت جريدة «العمل» اللبنانية تحت عنوان «كتر عربيّ قديم» : «عثر الجيولوجيون التابعون لأكاديمية العلوم في ألمانيا على كتر عربيّ لا يُقدّر بثمن ، وهو نقود عربيّة فضيّة من القرن التاسع ، وذلك في جزيرة «روغن» الواقعة في بحر البلطيق . النقود العربيّة تزن

٧٠ . قال اندريه ميكال :

«Ce que ne peuvent l'administration et la politique, le commerce le réussit: il crée, à son usage, un ensemble unique, un des plus grands que l'humanité ait connus, et il en crève les limites. La conquête tombée, le marchand relaie le soldat, et pousse même beaucoup plus loin» (L'Islam et sa civilisation, p. 127).

٧١ . D. et J. SOURDEL, La civilisation de l'islam classique, p. 14 .

٧٢ . Op. cit., pp. 139-141 .

ثلاثة كيلوغرامات ، وهي عبارة عن أربعمائة قطعة كاملة و ١٨٠٠ مفتّنة ، وقد صُكّت هذه عام ٨٤٢ ، وفي مكان قد يكون العراق أو إيران حسبَ التحديد الجغرافي الحالي. إلاّ أنّ بين هذه النقود ، كذلك ، ما هو مصكوك في الأراضي التي كانت عربية في ذلك الزمان ، أي في إسبانية ، وفي المنطقة الواقعة على بحر قزوين . والاستنتاج الذي توصل اليه العلماء هو أنّ تجارة العرب وصلت ، في تلك الأيام ، الى البلدان الاسكندنافية النائية»<sup>٧٣</sup>. وأكّد تجارة العرب مع البلاد السلافية والاسكندنافية المستشرقون ومنهم دومينيك سورديل ، الذي قال إن العملة الإسلامية التي وُجدت في تلك البلاد تشكّل وثائق مهمة للعلاقات الإسلامية معها ، وتدلّ على كثافة التبادل التجاري الذي حصل في فترة لا تتعدّى القرن الحادي عشر/ كما يُستنتج من تاريخ القطع النقدية المحفوظة<sup>٧٤</sup>. ووصل التجار العرب الى كوريا والصين ، وكانت لهم جاليات نشيطة على شواطئ الهند الغربية ، وفي مدينة كانتون Canton الصينية التي سمّوها خان فو ، وغيرها<sup>٧٥</sup>. وكان الرسول أول تاجر في الاسلام ، ويبدو أنّه كان ذا موهبة تجارية ، ووصفه ميسرة ، غلام خديجة ، بالنشاط والأمانة . وحلّل القرآن الكريم البيع والشراء واقتناء رؤوس الأموال<sup>٧٦</sup> ، وإن حرّم الربا بشكل قاطع<sup>٧٧</sup>. ومع ذلك ، لم ينظر العرب نظرة احترام الى التجارة قبل القرن التاسع الميلادي ، مع انتشارها في بلادهم ، ومشاركة المرأة فيها ، حتّى إذا جاء القرن العاشر ، أصبحت التجارة عملاً مرموقاً ، وغدا التاجر الغنيّ يمثّل وجهاً من وجوه الحضارة العباسية . وما عاد كبراء القوم يتورعون عن احترافها ،

٧٣. جريدة العمل ، العدد ٩٤٦٦ ، الأحد ٢٧ شباط ١٩٧٧ ، ص ٦ .

٧٤. D. SOURDEL, *L'Islam médiéval*, pp. 74-75 . وكان غوستاف لوبون الذي وضع كتابه

« حضارة العرب » عام ١٨٨٤ قد دوّن هذه المعلومات الجديدة ، (راجع كتابه المذكور ، ص ٦٦٧ - ٦٧٠) . وابن خرداذبة يتحدث عن تجار الصقالبة الآتين الى العراق بمنتجات بلادهم (السلالك والممالك ص ١٥٤) .

٧٥. A. MIQUEL, *L'Islam et sa civilisation*, p. 138 ، وقال فاروق عمر في دراسته حول هرون الرشيد : «Du point de vue économique, les activités commerciales qui atteignirent jusqu'à la Chine, firent connaître le nom d'al-Raṣhīd dans le monde entier de ce temps, et augmentèrent la splendeur de sa cour qui était un centre d'art et de culture» (*Encycl. de l'Islam*, nouv. édit., III/241) .

٧٦. سورة البقرة ، الآيتان ٢٧٥ و ٢٧٩ .

٧٧. الآية ٢٧٥ من سورة البقرة المذكورة ، مثلاً . وصبحي الصالح : النظم الإسلامية ، ص ٣٩٣ .

حتى أنها حظيت ، أحياناً ، بإجلال يقرب من التقديس . وروى الفارقي<sup>٧٨</sup> أنه « كانت سوق البز في ميفارقين<sup>٧٩</sup> لها من الحرمة والناموس شيء كثير بحيث إنه لا يدخل إليها أحد راكباً البتة »<sup>٨٠</sup>.

وحفظت التجارة العباسية مكاناً مميزاً للأصناف الكمالية التي تطلبها الطبقة الأرستقراطية ، ساكنة المدن<sup>٨١</sup>. وكان لتجار الجملة والوكلاء المتنقلين من بلد الى بلد تقدير خاص ، وكانوا معدودين من الأعيان<sup>٨٢</sup>. واختصت التجارة بأسواق تتخللها دور الصرافين ، كما أنشئت في بعض المدن ، كأصفهان ، أسواق مستقلة لهم . ورجح المستشرق ماسينيون أن أصل النظام المصرفي في أوروبا يرجع الى المسلمين<sup>٨٣</sup>. وتجمع أصحاب كل مهنة ، أو صناعة ، في أحياء أو أمكنة مخصوصة<sup>٨٤</sup>. وعرفت في بني العباس (الأسواق الأسبوعية) التي تُقام في يوم معين من كل أسبوع . وعرضوا البضاعة بأشكال مزوّقة لجذب الزبائن ، كما هي عادة التجار في كل زمان . وكان المحتسب يراقب عملية البيع والشراء ، ويمنع التلاعب والغش<sup>٨٥</sup>.

ومنذ مطلع القرن التاسع ، سيطر المسلمون على الحركة الاقتصادية في العالم ، وأصبح البحر المتوسط بين أيديهم ، بما فيه إسبانية ، وأفريقية ، ومصر ، وسورية . وأصبحت لهم قواعد في قرطاج ، وتونس ، والاسكندرية ، وأنطاكية . وما لبثوا أن سيطروا على صقلية ، وهيمنوا على شواطئ كورسيكا وسردينية . ولم يخرج عن سيطرتهم سوى القسطنطينية ، ومرافئ آسية الوسطى . وبقي مفتاح أوروبا بيد البيزنطيين الذين كانوا يمثلون الدولة المسيحية الوحيدة المتحضرة إزاء العالم الإسلامي<sup>٨٦</sup>. وذهبت جهود العباسيين

٧٨. أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق .

٧٩. أشهر قاعدة بديار بكر .

٨٠. تاريخ الفارقي ، ص ٦٦ . وألف الدمشقي (ابو الفضل جعفر بن علي) ، الذي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي ، كتاباً بعنوان : «الإشارة الى محاسن التجارة» ، مطبعة المؤيد ، القاهرة ، ١٣١٨ هـ / ١٩٠٠ م .

٨١. A. MIQUEL, *L'Islam et sa civilisation*, p. 128

٨٢. D. SOURDEL, *L'Islam médiéval*, p. 184

٨٣. صبحي الصالح : النظم الاسلامية ، ص ٣٩٧ .

٨٤. D. SOURDEL, *L'Islam médiéval*, pp. 72 et 183

٨٥. *Ibid.*, pp. 72-73

٨٦. J. PIRENNE, *Les Grands courants*, II/14 et 44

هباءً في محاولتهم السيطرة على القسطنطينية بشنّ الحروب المتتالية عليها<sup>٨٧</sup>. وحافظ البيزنطيون على منافستهم للتجار العرب في شرق البحر المتوسط، وأوروبا<sup>٨٨</sup>. واتسعت التجارة الإسلامية في القرن العاشر الميلادي، حتى غدت في طليعة التجارة العالمية، وسفنها تقطع البحار، وقوافلها تسير من أقصى الشرق الى أقصى الغرب، مروراً بأفريقية وآسية الوسطى. ومثلما تُحدّد الأسعار العالمية، اليوم، في أسواق لندن وباريس ونيويورك وغيرها من العواصم الكبيرة، كانت تُحدّد، يومذاك، في بغداد والبصرة والاسكندرية. قال الجاحظ، وهو من كتّاب القرن التاسع (٧٧٥ - ٨٦٨): «العراق عين الدنيا، والبصرة عين العراق»<sup>٨٩</sup>. ولم يرَ ابن حوقل (ت ٩٧٧) حاجة لإعادة ذكر ما في البصرة من تجارة واسعة مشهورة<sup>٩٠</sup>. وذكر لها المقدسي تجارة التمور، والحناء، والخز<sup>٩١</sup>. ووصف المستشرق ماريوس كانارد Marius CANARD الحياة الاقتصادية ببغداد في القرن العاشر بأنها عظيمة جداً<sup>٩٢</sup>. كما تحدّث سورديل عن كثافة النشاط التجاري الذي ساد، بصورة متصلة، العالم الاسلامي القديم الشاسع حتى أواسط القرن الثالث عشر<sup>٩٣</sup>.

وكتبت المستشرقة الألمانية زيفريد هونكه Sigrid HUNKE: «لقد دخلت البضائع، الواردة من أقاصي الشرق الى أقاصي الغرب، الحياة اليومية الأوروبية. ولم تعد تقتصر على استعمال التوابل والبخور، وإنما تعدّتها الى الإنتفاع بالحشائش الطبية، فأصبحت هذه كلّها من ضرورات حياة رجال الكنيسة، ورهبان الأديرة الذين لم يعد في مكنّهم الاستغناء عنها على موائدهم»<sup>٩٤</sup>. وكان تجار اليهود يجوبون الشرق والغرب، ناقلين مختلف الأصناف بحراً وبراً في

٨٧. J. PIRENNE, *Les Grands courants*, II/12-13

٨٨. A. MIQUEL, *L'Islam et sa civilisation*, p. 128

٨٩. الجاحظ: كتاب البلدان، ص ٤٩٨.

٩٠. المسالك والممالك، ص ١٦١.

٩١. المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ١٣٨.

٩٢. M. CANARD, in *Arabica*, 1962, p. 280

٩٣. D. SOURDEL, *L'Islam médiéval*, p. 76

٩٤. زيفريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٢٣.

السفن والمراكب ، وعلى الدواب ، وعلى ظهورهم . وكان من أهم الواردات البسط ، والتمارق الارمنية التي تباهى أثرياء بغداد باقتنائها<sup>٩٥</sup> . وفي القرن العاشر ، فتح العرب طريقاً تجارياً بينهم وبين الروس في الشمال ، وحملوا من روسية جلود الخنزير<sup>٩٦</sup> ، والثعالب السود ، والسيوف ، وغيرها من السلع . وأصبح لمدينتي عمان وحضرموت ، اللتين كانتا تعيشان من التجارة الأجنبية (transit) ، سفنها الخاصة التي أخذت مكان الأحباش ، وسيطرت على الملاحة في البحر الأحمر وبحر عُمان ، وتوغلت حتى الصين ، ومخرت شواطئ أفريقية ، حيث أنشأت مرفأ زنجبار Zanguebar<sup>٩٧</sup> ، ونقلت بحراً الحجاج الى البيت الحرام من الهند وبلاد فارس<sup>٩٨</sup> .

وخلال القرن العاشر ، تولى شمالي البلاد الاسلامية آل سامان الفرس ، ونهضوا بالبلاد نهضة كبيرة ، وعززوا التجارة بكثرة المال والأبواب ، وجعلوا من بلاد الروس الطريق الرئيس بين شمالي أوروبا وبين الشرق . ووسّع السامانيون التجارة الاسلامية الى الهند والصين ، فكانوا يرسلون الى الصين الحجارة الكريمة ، والخيول ، والمنسوجات الصوفية ، والأجواخ ، وغيرها . ويتلقون ، في المقابل ، النسيج الحريري ، والديباج<sup>٩٩</sup> ، والخزف المطلي ، والشاي ، والمواد الطبية . وعزا جاك بيرين انطلاقة التجارة العباسية الواسعة ، ومداها الفسيح ، الى الحرية او الليبرالية الاقتصادية التي دان بها العالم الاسلامي والصين عبر الخطوط البحرية<sup>١٠٠</sup> . واستأثر اليهود بتجارة الغلمان والحواري التي

٩٥ . المسعودي : مروج الذهب ، ١٧٠/٤ ؛ وابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ١٥٣ ، حيث تكلم على اليهود تحت عنوان : «مسلك التجار اليهود الراذية» ، نسبة الى نهر الـ Rhône الذي كانوا يقيمون حوله في فرنسا ، وقال إنهم ويتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والأندلسية والصقلية ، وإنهم يسافرون من المشرق الى المغرب ، ومن المغرب الى المشرق براً وبحراً ، ووصف سلعمهم ومحطاتهم وصفاً مفصلاً .

٩٦ . الأرناب ، وهي جلود حريرية .

٩٧ . جزيرة في المحيط الهندي ، قرب شاطئ تنغانيكا . تؤلف اليوم ، مع جزيرة يما وتنغانيكا ، دولة تنزانيا .

٩٨ . J. PIRENNE, *Les Grands courants*, II/58 .

٩٩ . القماش الذي سداه ولحمته حرير .

١٠٠ . J. PIRENNE, *Les Grands courants*, II/58 . وكانت تتولى حكم الصين أسرة تانغ Tang

(٦١٨ - ٩٠٧ م) التي أمنت للصين استقراراً سياسياً واقتصادياً ، ودعمت التجارة الخارجية (سليمان العسكري : التجارة والملاحة في الخليج العربي ، ص ١٢٧) . كما تحدّث الباحث الكويتي سليمان العسكري عن أهمية الحرية التجارية التي اعتمدها العباسيون ، بخلاف الروم والفرس الذين تقدّمهم (المرجع نفسه ، ص ١١٣ - ١١٤) .

قامت لها أسواق في الشرق والغرب<sup>١٠١</sup>.

وأسهمت التجارة في توحيد الملابس<sup>١٠٢</sup>، إذ كان التجار ينقلون الأنسجة من قطر الى قطر ومعها الصباغ الملثام : فالنيل<sup>١٠٣</sup> للون الأزرق، والقرمز<sup>١٠٤</sup> Karmoisin للون الأحمر، والزعفران للتلوين الأصفر، والعربي منه يُسمّى الورس<sup>١٠٥</sup>، وهو يُزرع في اليمن والشام وجنوبي فارس، وقد سمّى الإيطاليون خشب البرازيل باسمه Verzino، وكان له قيمة كبيرة، فيرسل من جملة الهدايا الى الملوك، مثلما أرسل منه المتوكل الى ملك الروم، في جملة هداياه الثمينة، سعيًا لفداء أسراه عام ٨٦٠ م.<sup>١٠٦</sup>

ويستحق الخليج العربي<sup>١٠٧</sup> لفئة خاصة في تاريخ التجارة العباسية، لانفتاحه على أهم مدينتين تجاريتين في الخلافة هما البصرة وبغداد بذراعين ملاحيتين طويلتين هما دجلة والفرات، ولأنه كان يتلقّى تجارة الصين والهند وأقاصي الشمال، بحيث أصبح على حدّ قول سليمان ابراهيم العسكري «أكبر مركز تجاري للدولة الإسلامية»<sup>١٠٨</sup>. وقد أزال العباسيون الآثار الباقية للتنافس البغيض الذي حدث بين طريقي البحر الأحمر والخليج العربي، إبان النزاع الفارسي الروماني قبل الاسلام، وكانت بوادر هذا التحول قد ظهرت في صدر الاسلام. وسيطر العباسيون سيطرة تامة على الخليج، واستقرت الأوضاع فيه، بينما بقي البحر الأحمر عرضة للغارات الرومية التي توالّت على مخارجه في مصر والشام لفترة يصعب تحديدها، مما ميّز تجارة الخليج وقدمتها، مع حرص العباسيين على التنسيق بين تجارتي الخليج والبحر الأحمر<sup>١٠٩</sup>.

١٠١. آدم متر: الحضارة الإسلامية، ٣٦٩/٢ وما بعدها.

١٠٢. اختلف اللباس باختلاف الأقاليم، فكان البدوي يلبس الثياب المنسوجة من شعر الضأن والماعز.

١٠٣. نبات أزرق يصيغ به.

١٠٤. صيغ أحمر من أرمنية في الأصل.

١٠٥. نبات كالتسليم تغطّي ثمره غدد حمر، يُصيغ به.

١٠٦. آدم متر: الحضارة الإسلامية، ٣١٤/٢ - ٣١٥.

١٠٧. طول الخليج في خطّ مستقيم من شطّ العرب بالبصرة الى ساحل عمان نحو ثمانمائة كيلومتر. أمّا عرضه، فيتراوح بين ميتين وثمانية وعشرين كلم. في أقصى اتساعه شرقي جزيرة قطر، وبين ستّة وأربعين كلم. في مضيق هرمز (التجارة والملاحه في الخليج العربي، ص ١٨٨).

١٠٨. التجارة والملاحه في الخليج العربي في العصر العباسي، ص ٧٤ - ٧٥.

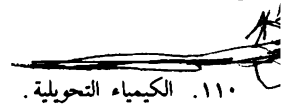
١٠٩. المرجع نفسه، ص ٦٥ و ٦٩ - ٧٤.

ولعلّ خير خاتمة ، بل ربّما أطرف خلاصة ننهي بها بحثنا حول تجارة المسلمين الواسعة ، وتعدّد أصنافها وأسواقها في القرون الوسطى ، ما توصّل اليه يحيى بن خالد البرمكي (ت ٨٠٥ م) حين قرّر قائلاً : «الملوك خمسة : ملك الأناث ، وملك الدواب ، وملك المال ، وملك الفيلة ، وملك الإكسير»<sup>١١٠</sup> . فأما ملك الأناث فملك الصين ، وملك الدواب ملك الترك ، وملك المال ملك العرب ، وملك الفيلة ملك الهند ، وملك الإكسير فملك الروم»<sup>١١١</sup> .

### باء - التجّار

احتلّ الفرس أهمّ الموانئ التجارية كجُدّة وطرابلس وصيدا وبيروت . ولم يكن المصريون بارعين في التجارة ، حتّى أنّ التجارة المصريّة كانت بأيدي غربية ، مع أنّ مصر كانت فائضة الغنى ، وصلة الوصل بين الشرق والغرب . وكان اليهود ينافسون أهل العراق وفارس ، وامتهن التجارة معهم ، الى جانب العرب والفرس ، الروم والهنود الذين كانوا من أنشط تجّار الخلافة .

وكان أغنى التجّار وأكثرهم ترفاً ونعيمًا البزازون<sup>١١٢</sup> . والعطارون . قال ابن مجاهد (ت ٩٣٥ م) : «من قرأ لأبي عمرو ، وتمذهب للشافعي ، واتجر في البزّ ، وروى شعر ابن المعتز ، فقد كمل ظرفه» . وعندما توفّي عفّان بن سليمان البزاز الذي كان أغنى تجّار مصر حوالي عام ٩١٢ ، أخذ الإخشيد<sup>١١٣</sup> من ماله نحو مئة الف دينار . وفي بغداد اتصلت أسواق العطارين والصيدالة وأصحاب الدهون والخزّازين<sup>١١٤</sup> والصاغة . وكان البيع والشراء يتّمان بالمقايضة أي بوضع القبضة في القبضة أو اليد باليد ، والجهر بالبيع



١١٠ . الكيمياء التحويلية .

١١١ . ابن الفقيه : كتاب البلدان ، ص ١٣٦ . وفي كتاب «التجارة والملاحة في الخليج العربي في العصر العباسي» الآف الذكر (ص ١٢٩) ، رواية شبيهة برواية ابن الفقيه ، نقلها سليمان العسكري عن السعدي على لسان ملك الصين . وهي تعدّ الملوك خمسة ، وتختلف في تفاصيل ميزاتهم بعض الاختلاف .

١١٢ . تجّار البزّ : الثياب من الكتّان والقطن .

١١٣ . تُنسب الدولة الاخشيدية الى الاخشيد ، وهو اللقب الذي منحه الخليفة العباسي الراضي بالله محمد بن طفيح (٩٣٥ - ٩٤٦) . يُقال إن معناه بلغة إقليم فرغانة : «ملك الملوك» (الموسوعة العربية الميسرة ، ص ٦٥) .

١١٤ . الخزّ : الحرير .



والشراء<sup>١١٥</sup>. وربما لجأ الخلفاء الى التجار لسد العجز في بيت المال ، مثلاً ساعد التجار اليهود الخليفة المقتدر عندما أحوجته الضرورة الى طلب مساعدتهم<sup>١١٦</sup>. ولا أرى حاجة الى مزيد من التأكيد على أن الصيارفة وأصحاب البنوك، إجمالاً، كانوا من أهل الكتاب، وخصوصاً من اليهود والنصارى، لأن الإسلام نهى أتباعه، مبدئياً، عن الربا.

وقد توسّع غوستاف لوبون في تعداد نشاطات التجار العرب، وسيادتهم على البحر المتوسط، وصلاتهم بأفريقية، والهند والصين، وأوروبا بما فيها البلاد النائية كروسيا وأسوج والدانمارك، وفصل الكثير من سلعهم ومبادلاتهم التجارية مع الأجانب<sup>١١٧</sup>، وأثبت أنه لم يساوهم في التجارة غير أم الزمن الحاضر<sup>١١٨</sup>.  
وتأخذ التعامل التجاري بين التجار العرب والأجانب ثلاث طرائق أساسية، هي :  
أولاً : طريقة المقايضة في جزر المحيط الهندي، وشرقي أفريقيا ووسطها، والصين<sup>١١٩</sup>.

ثانياً : طريقة التعامل المزدوج<sup>١٢٠</sup> في الصين، وفي بعض مناطق الهند، وفي البصرة خصوصاً<sup>١٢١</sup>.

ثالثاً : التعامل بالعملة العربية من دراهم ودنانير في شرق أوروبا (روسية مثلاً)<sup>١٢٢</sup>. وباشتراك التجار العرب مع اليهود والفرس والروم والهنود، أخذوا عنهم كثيراً من طرائقهم التجارية، وعلومهم المصرفية والحسابية خصوصاً، ولكن أثر الاسلام كان أعمق

١١٥. آدم متر : الحضارة الإسلامية، ٣٨٢/٢ - ٣٨٩، و A. MIQUEL, *L'Islam et sa civilisation*, pp. 131-132.

١١٦. D. SOURDEL, *L'Islam médiéval*, pp. 71 et 187-188.

١١٧. للتوسع في الصادرات والواردات، يمكن مراجعة كتاب المقدسي : «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»، وكتاب الجاحظ : «التبصر بالتجارة» طبعة دمشق ١٩٣٢، والقاهرة ١٩٣٥، ص ٣٢١ - ٣٥١.

١١٨. غوستاف لوبون : حضارة العرب، ص ٦٦٠ - ٦٦٧.

١١٩. ابن خرداذبة : المسالك والممالك، ص ٦٥؛ وعبد العزيز الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي، ص

١٥٤؛ وآدم متر : الحضارة الإسلامية، ٣٨٩/٢ - ٣٩٠.

١٢٠. التعامل المزدوج هو أن يقبل التجار العملة المحلية لقاء بضائعهم، ثم يشترون بها بضائع محلية.

١٢١. عبد العزيز الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي، الفصل الخامس، الجبهة والصيرفة.

١٢٢. ابن رسته : الأعلام النفيسة، ص ١٤٢ و ١٤٥ (ط. لندن، ١٨٨٩).

فيهم ، وبقي يشدهم الى كثير من التحفظ ، والى التزام الجانب الانساني والديني في الأخذ والعطاء .

## جيم - العملة نظام حايبي

كان عماد العملة المتداولة في العالم الاسلامي ثلاث وحدات : الدينار الذهبي ، وأصله بيزنطي denarios ، والدرهم الفضي ، وأصله ساساني direm<sup>١٢٣</sup> . والفلس البرونزي<sup>١٢٤</sup> البيزنطي phollis . فاستعملت العملة الذهبية في البلاد التي تحررت من النفوذ البيزنطي ، والفضية في المناطق التي كانت تحت سلطة الفرس<sup>١٢٥</sup> .

وتدقق الذهب على الخلافة العباسية من ثلاثة مصادر : وضع ذهب الكنوز في التداول ، ووصول ذهب جديد ، وتقديم طرائق صناعته ولقد أخذ العرب الذهب من قصور الساسانيين ، ومن الكنائس البيزنطية . فبذل عهد عبد الملك بن مروان (٦٨٥ - ٧٠٥) ، وضعت الدولة يدها على كنوز الكنائس في سورية وما بين النهرين . وشدد هذا الخليفة على التعريب ، وأدخل العربية الى دواوين الدولة ، وضرب الدينار العربي الذي يساوي عشرين درهماً ، وهو أول تغيير للعملة حصل في عامي ٦٩٦ و ٦٩٧ ، وألغى امتيازات رجال الدين المسيحي ، وفرض على كل واحد منهم ديناراً بمثابة جزية ، وأخضع ممتلكاتهم لخراج ثقيل . وقد استعمل العرب حتى عهده العملة الفضية (الدرهم) ، واستوردوا الدينار من بيزنطية<sup>١٢٦</sup> .

وكانت قيمة العملة في العصر العباسي تختلف من عهد الى عهد ، شأنها في كل مكان وزمان . ذكر عن عيسى بن المنصور أنه قال : « وجدت في خزائن أبي المنصور في الكتب أنه أنفق على مدينة السلام وجامعها وقصر الذهب بها والأسواق والفصلان والخنادق وقباها وأبوابها أربعة آلاف ألف وثمانمائة وثلاثة وثلاثين درهماً ، ومبلغها من

١٢٣ . وقد يكون الدرهم من نحاس كما جاء في كتاب الوزير نظام الملك « سياستنامه » ( سير الملوك ) الموضوع في القرن الحادي عشر الميلادي ، ترجمة حسن لواساني ( حولية فرع الآداب العربية - جامعة القديس يوسف ، ١٩٨٢ ، ص ١٧٥ ) .

١٢٤ . البرونز خليط النحاس والقصدير .

١٢٥ . M. LOMBARD, L'Islam dans sa première grandeur, p. 107 .

١٢٦ . LAMMENS, La Syrie, 1/85 ، و Ibid., pp. 15 et 107 .

الفلوس مائة ألف ألف فلس وثلاثة وعشرون ألف فلس ، وذلك أن الأستاذ من البنّائين كان يعمل يومه بقيراط فضّة ، والروزكاري<sup>١٢٧</sup> بجبتين إلى ثلاث حبات<sup>١٢٨</sup> . يُستتج من هذا النص أن وحدة العملة المتداولة أيام المنصور كانت الدرهم الفضي الذي يساوي حوالى ٢٥ فلساً . وتتضح لنا ، في الوقت نفسه ، زهادة أجر العمّال ، وبالتالي كثرتهم . فرييس البنّائين يقبض يومياً قيراط فضّة ، والدرهم يساوي حوالى ٧٢ قيراطاً . والعامل يقبض يومياً حبتين أو ثلاث حبات ، والقيراط يساوي حوالى ١١٥٢ حبة<sup>١٢٩</sup> .

وشاع التعامل بالدينار من بعد ، وغزرت موارد الدولة . وكان الملوك المستقلّون يرسلون الأموال الوافرة الى الخليفة في بغداد اتقاءً لسلطوته ، وابتغاءً لمرضاته . فكان الطولونيّون ، مثلاً ، يدفعون في القرن التاسع ٣٠٠ ٠٠٠ دينار في السنة لخليفة بغداد الذي كانت ميزانيته تتكوّن حتى أواخر القرن التاسع من دنائير الغرب ودراهم الشرق<sup>١٣٠</sup> . وابتداءً من القرن العاشر ، توحدت العملة ، وأصبحت وحدتها الأساسيّة الدينار . وقد نمى الفاطميّون استعمال الدينار الذهبي الذي أخذوا مادّته من السودان بنوع خاص ، وجدّدوا في العملة المتداولة الرّبع ، أي أنهم ضربوا رُبع الدينار<sup>١٣١</sup> . وبينما كانت عطايا الخليفة في أوّل القرن التاسع الميلاديّ تحسب بالدرهم ، أصبحت في أوائل القرن العاشر تحسب بالدنانير ، اذ دخلت هذه العملة بغداد من الشام ومصر ، واتّخذتها الحكومة العبّاسيّة لحساباتها الرسميّة . إلّا أنّ الجزء الشرقي من الخلافة العبّاسيّة ، كبلاد فارس وبخارى ، ظلّ يؤثّر الدرهم القديم على الدينار المستحدث . وكان الدينار في القرن العاشر يساوي أربعة عشر درهماً ، والدرهم يساوي ستة دوايق ، والدوايق اثني عشر قيراطاً ، والقيراط أربعة وعشرين طسوجاً<sup>١٣٢</sup> ، والطسوج ثمانى وأربعين حبة .

١٢٧ . العامل المياوم .

١٢٨ . الطبري ، ٦٥٥/٧ .

١٢٩ . يتّضح تفصيل هذا الحساب التقريبي فيما ورد لاحقاً عن القرن العاشر . وقد يبدو لنا ، اليوم ، أجر العامل المزعوم ، غير واقعيّ ؛ أمّا في زمن السخرة ، فليس مستغرباً ، ولا بعيداً جدّاً عن الواقع .

١٣٠ . M. LOMBARD, *L'Islam dans sa première grandeur*, pp. 116-117 .

١٣١ . *Ibid.*, pp. 117-118 .

١٣٢ . وجاءت لفظة طسوج أيضاً بمعنى ناحية ، جمعها طساسيج (الطبري ، ٦١٦/٧ - ٦١٧ ؛ وسليمان

العسكري : التجارة والملاحة في الخليج العربي في العصر العبّاسي ، ص ٨١) .

وما كان تزيف العملة مجهولاً ، آنذاك ، بل إنهم باعوا العملة المزيفة بأثمان زهيدة . وكانوا يحفرون على العملة اسم الرسول وآيات من القرآن ، ممّا أحدث جدالاً فيما إذا كان هذا الأمر مقبولاً ، أو انه يُستحسن عدم وضع الآيات على العملة التي يتداولها اليهود والنصارى والخطأة والنساء في أوقات حيضهنّ .

وكان الصكّ أو السند من وسائل المعاملة عندهم . وكثيراً ما سمّوه الرقعة . قال جَحْظَةُ الشاعر (ت ٩٣٦) لأحد الرؤساء :

إِذَا كَانَتْ صِلَاتُكُمْ رِقَاعًا      تُخَطِّطُ بِالْأَنَامِلِ وَالْأُكْفِ  
وَلَمْ تَكُنِ الرِّقَاعُ تَجَرُّ نَفْعًا      فَهَا خَطِّي خُذُوهُ بِالْفِ أَلْفِ ١٣٣

وكان الصّرافون يقبلون الرّقاع ويصرفونها مثلاً يقبلون « الشيك » cheque في أيامنا ١٣٤ .

#### ٤ - الملاحه النهريّة

لم تكن الأنهار كثيرة في البلاد الواقعة تحت سلطة بني العباس على شسوعها . فكان فيها اثنا عشر نهراً تجري فيها السفن ، وهي : دجلة ، والفرات ، والنيل ، وجيحون ١٣٥ ، والشاش ١٣٦ ، وسبحان ١٣٧ ، وجيحان ١٣٨ ، وبردكان ١٣٩ ، ومهران ١٤٠ ، والرّس ١٤١ ،

١٣٣ . آدم متر : الحضارة الإسلامية ، ٣٨٠/٢ . و J.M. FIEY, *Chrétiens Syriques sous les abbassides*, p. 17.

١٣٤ . A. MIQUEL, *L'Islam et sa civilisation*, p. 135 . ولقد نفى كليمن هوار Cl. HUARI «La lettre de change n'existait pas encore» وقال : *Histoire des Arabes*, 1/290) وهو رأي قديم (١٩١٢) دحضته الدراسات الحديثة .

١٣٥ . جيحون أو أمودريا Amou Daria هو أوكسوس القديم . نبه من جبال بامير في الهند ، يمتاز آسية السوفياتية ، ويصب في بحر آرال (٢,٥٤٠ كلم) .

١٣٦ . في الشمال الشرقي من سمرقند .

١٣٧ . نهر في جنوب تركية الآسيوية ، يصب في المتوسط .

١٣٨ . نهر يُعرف اليوم بجيجان يمتاز سهول قزليقية ، ويمر بالقرب من مَرَعَش ، ويصب في المتوسط .

١٣٩ . نهر في بلاد الروم يصب على مسافة ستة أميال من طرسوس ويُنسب إليها . قال أحمد بن الطيّب

السرخسيّ (ت ٨٩٩) :

ونهر الملك<sup>١٤٢</sup>، ونهر الأهواز<sup>١٤٣</sup>. وقيل عن نهر الشاش إنه، عند مدينة فرغانة<sup>١٤٤</sup>، لا يستطيع أن يُقَلَّ قاربًا للصيد في بعض الأحيان، ومثله جِيحون الذي تختلف نسبة المياه فيه من مكان لآخر<sup>١٤٥</sup>.

وكان يجري على هذه الأنهار من السفن والقوارب أصنافٌ كثيرة، ويُسمع عليها أصوات رافعات الماء، وصُيَّاح الملاحين. ولما انتدب محمد بن رائق (ت ٩٤٢) لولاية الشام لم يذهب إليها، واستخلف ابنه الحسن، وقال: «ركوبي في الطَّيَّار في دجلة، وصُيَّاح الملاحين، أَحَبُّ إِلَيَّ من ملك الشام كلَّه». وكانت الملاحة على الفرات من مدينة سُميساط<sup>١٤٦</sup> حتى بغداد، فتنقل عليه التجارة بين الشام والعراق. ولم يكن سفر الناس على الأنهر شائعًا، بل كانوا يفضلون السفر البرِّي على الجياد، إلا أن الحجاج كانوا يأتون على الأنهر من الشمال. وقد نقلوا خصوصًا على الفرات خشب البناء من جبال أرمينية، وزيت الزيتون من الشام. وكانت مراكب كبيرة تُسمَّى القراقير تنقل الرِّمَّان. وبين بغداد والكوفة سواد مشتبك غير متميِّز تخترقه أنهار من الفرات<sup>١٤٧</sup>.

وكثرَت الفروع في شط العرب شرقيَّ البصرة، بحيث بلغت النهرات الآلاف، تجري فيها سفن صغيرة تسمَّى السُميريات. قال الاصطخري: «ذكر بعض أهل الأخبار أن

---

ألا إن في قلبي جوى لا يئله قُوْنُقٌ ولا العاصي ولا البردان.  
وقُوْنُقٌ (تصغير قاق، صوت الضفدع): نهر مدينة حلب، يجف في الصيف، ومن أقوال الشعراء فيه:  
إذا ما الضفادع ناديتُ قُوْنُقٌ قُوْنُقٌ أبى أن يجييا  
تغوص البعوضة في قعره وتأبى قوائمها أن تغيا.

١٤٠. موضع لنهر السند، يصب في بحر فارس، وهو نهر عظيم.

١٤١. نهر آذربيجان يصب في بحر جرجان.

١٤٢. كورة واسعة ببغداد بعد نهر عيسى، قيل إنها تشتمل على ثلاثمائة وستين قرية.

١٤٣. اسمها الفارسي القديم خوزستان، تضم سبع كُور بين البصرة وفارس.

— المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ١٩.

١٤٤. تقع فرغانة، اليوم، في الاتحاد السوفياتي.

١٤٥. يمكن مراجعة منابع هذه الأنهار، والأمكنة التي تمر فيها حتى مصبها، على شيء من التغيير والتنوع، في

المسالك والممالك لابن خرداذبة، ص ١٧٣ - ١٧٧.

١٤٦. أو شمشاط: مدينة سورية على الفرات، هي اليوم قرية سمرات Samosate جنوبي تركيا.

١٤٧. آدم متر: الحصار الإسلامية، ٣٩٤/٢ - ٣٩٦؛ وابن حوقل: المسالك والممالك، ص ١٦٦.

أنهار البصرة عُدَّت أيام بلال بن أبي بُردة فزادت على مئة الف نهر وعشرين الف نهر ، تجري فيها الزواريق ، وقد كنت أنكر ما ذكر من عدد هذه الأنهار ، حتى رأيت كثيراً من تلك البقاع ، فربّما رأيت في مقدار رمية سهم عدداً من الأنهار صغاراً تجري في كلّها زواريق صغار ، ولكل نهر اسم»<sup>١٤٨</sup>. وتحدّث ابن حوقل عن كثرة الأنهار المتشعبة فوق البصرة وتحتها ، وخصّ بالذكر نهر الأُبلة ، وقال إن طوله أربعة فراسخ ما بين البصرة والأُبلة ، وعلى جانبي هذا النهر بساتين وقصور متصلة ، «كأنها بستان واحد قد مُدَّت على خيط»<sup>١٤٩</sup>.

وأتسعت الملاحة على دجلة ، فكانت بضائع أرمينية تنحدر الى بغداد من الموصل . وشبه بعضهم بغداد بالبندقية إذ كان الناس يذهبون ويحيثون ويعبرون في السفن . وأحصيت السفن التي كانت تنقل أهل بغداد وتجارهم في أوائل القرن العاشر ، فكانت ثلاثين ألفاً . وكان منها السُمريّات ، والطّيّارات ، والحراقات ، والشذوات ، والزبازب . ولم تكن تشبه القِفاف (جمع قفّة) التي يستعملها اليوم أهل بغداد . وكان للأثرياء قواربهم الخاصّة من الطّيّارات . وكان للأمين خمسُ حراقات في دجلة على هيئة الأسد ، والفيل ، والعقاب ، والحية ، والفُرس ، فقال نديمه أبو نواس يمدحه :

سخرَ الله للأمين مَطَايَا      لم تُسخرْ لصاحبِ المحرابِ  
فإذا ما ركأه سِرْنَ برّاً      سار في الماء راكباً ليثَ غابِ  
أسداً باسطاً ذراعيه يهوي      أهرتَ<sup>١٥٠</sup> الشدق كالـحِ الأنيابِ  
لا يُعانيه باللجام ولا السو      طِ ولا غمزَ رجلِه في الركابِ  
عجبَ الناسُ إذ رأوكَ عليه      كيفَ لو أبصروكَ فوقَ العقابِ  
ذاتِ زُورٍ ومنسِرٍ وجناحينِ تشقُّ العُبابَ      بعدَ العُبابِ  
تسبقُ الطيرُ في السماء إذا ما استعجلوها بجيشةٍ      وذهبَ<sup>١٥١</sup>

وأنشأ الأمين سفينة كبيرة على هيئة الدلفين ، فقال أبو نواس :

١٤٨ . الاصطخري : مسالك الممالك ، ص ٨٠ .

١٤٩ . ابن حوقل : المسالك والممالك ، ص ١٦٠ .

١٥٠ . أهرت : واسع .

١٥١ . السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١٧٤ ، والطبري ، ٥٠٩/٨ .

قد ركب الدُّلُفَيْنَ بدرُ الدُّجَى مقتحماً في الماء قد لَجَجَا<sup>١٥٢</sup>

وكان للمستكني (٩٤٤ - ٩٤٥) طيَّار يُسمَّى الغزال<sup>١٥٣</sup>. واستعملت هذه السفن للنزهة، ولإظهار أُبْهة الخلافة. وكثيراً ما كان خلفاء بغداد وسلاطينها يقيمون الاحتفالات الرسميَّة على دجلة، ويزرعون على شاطئها معالم الزينة، ويجتمع الناس مندهشين ومعبِّرين عن ولائهم. وكان على جانبي النهر زرد وحبال يشدُّ بها الملاحون، وهم يغنُّون، اذا أرادوا الرسو<sup>١٥٤</sup>.

وكان بين بغداد وسامراً نقطة صعبة للملاحة، في قرية عَلكَ، لضيقها وكثرة حجارتها. وكانت السفينة، إذا وصلت الى عَلكَ، اكترت بعض أهلها ليرشدوها في مجاز هذا الموضع الصعب المسمَّى الأبواب. والعقبة الكبرى كانت جنوبيَّ العراق، بين واسط والبصرة، حيث تنفرِّع دجلة ثلاثة فروع تنصبُّ في مستنقعات تُسمَّى البطائح، ويملأها القصب. فكانت السفن تُفرِّغ بضاعتها في زوارق تجتاز مسارِب القصب الضيقة، وكثيراً ما تتعرَّض للنهب والتعدي من قبل اللصوص المتخفين في تلك الغياض. واشتهر منهم في القرن العاشر الميلادي لصٌّ شريف يُدعى ابن حمدون. وكانت تؤخذ الضرائب من السفن المارة في دجلة، كما تُمنع المراكب من اجتياز النهر ليلاً. وفي مصر، كان النيل مدار حركة واسعة. وكان تجار النوبة السودانيون يسيطرون على الملاحة فيه<sup>١٥٥</sup>.

## ٥ - الملاحة البحرية

إنَّه لمن الطبيعي أن يهتمَّ العرب بالملاحة البحرية، وقسم كبير من بلادهم محاط بالبحار. والبحر باب واسع لطرق المجهول، واستخراج اللؤلؤ والاسفنج والسمك، والتعرُّف الى العالم وشعوبه. ولم ينقض عهد طويل على العرب حتى برعوا في اقتحام الأبعاد وبناء السفن، وقد نقلوا عن البرتغاليين استعمال الشراع الثالث لكي يزيدوا سرعة

١٥٢. الطبري، ٥٠٩/٨ - ٥١٠.

١٥٣. السعدي: مروج الذهب، ٢٣١/٥ و ٢٤٤.

١٥٤. آدم متر: الحاضرة الإسلامية، ٣٩٦/٢ - ٣٩٨.

١٥٥. المرجع نفسه، ٣٩٩/٢ - ٤٠٣؛ وياقوت: معجم البلدان، ٣١٥/٥ - ٣٢٤.

سفنهم ، فأخذت أوروبية عنهم هذا التعديل المهم الذي ساعد مكتشفها الكبار على التوغل في البحار في سفن كبيرة ذات ثلاثة صواري<sup>١٥٦</sup> . وكان على العباسيين أن يتجهّزوا لصدد غارات أعدائهم البحرية ، وخصوصاً البيزنطيين ، فحضر هرون الرشيد القوة البحرية بالغ اهتمامه<sup>١٥٧</sup> .

انفتحت الخلافة العباسية على بحرين منفصلين ببرزخ السويس ، وهما المحيط الهندي والبحر المتوسط . فكان على الذي يريد أن ينقل بضاعته من مصر الى الهند ، وإلى شرق آسية ، أن يحملها على ظهره أو على ظهور الرواحل ، من الفرما (أو الفرما) ١٥٨ شمالي سيناء ، الى القلزم<sup>١٥٩</sup> ، أو البحر الأحمر في جنوبها ، فيقطع الصحراء في سبع مراحل<sup>١٦٠</sup> . واختلفت السفن الماخرة في كلا البحرين . فكانت سفن المتوسط ذات مسامير بارزة . أما سفن البحر الأحمر والمحيط الهندي ، فكانت من خشب الساج أو الدلب الهندي (Teck ou Tek) ، أو خشب جوز الهند المعروف في المحيط الهندي باسم «النارجيل» ، وكانت تُخاط بجمال الليف وبألياف جوز الهند ، ولا يدخلها مسمار ، وتسير بالمحاذيف والأشرعة<sup>١٦١</sup> ، وهي الطريقة القديمة في إنشاء السفن . وكانت بواخر المتوسط أكبر من مراكب المحيط ، وقد اندهش القدماء أمام قصر عائم يحمل آلاف الرجال ، وعليه الحوانيت والمصانع . وامتازت بعض سفن المتوسط بطبقتين ودقتين . أما سفن المحيط ، فكانت بطبقة ودقة واحدة . وفاقَت المراكب الصينية كل ما عداها في السعة والضخامة بحيث عجزت عن قطع مضائق الخليج الفارسي (العربي) . واستورد

١٥٦ . راجع مارون حدّاد : «العرب والبحر - الملاحون العرب سبقوا كولبس الى أميركا» ، الأسبوع العربي ، العدد ١٠٤٥ ، الاثنين ٢٢ تشرين الأول ١٩٧٩ ، ص ٥٩ .

١٥٧ . فاروق عمر في دراسته حول هرون الرشيد (Encyl. de l'Islam, nouv. édit., III/240) .

١٥٨ . الفرما : مدينة صغيرة على شاطئ بحيرة تينيس ، وبها قبر جالينوس اليوناني (الاصطخري : مسالك الممالك ، ص ٥٣) .

١٥٩ . القلزم : مرفأ مصري قديم في شمال البحر الأحمر . وبحر القلزم هو البحر الأحمر . قال الاصطخري : «القلزم مدينة تامة العمارة ينتهي إليها البحر الأحمر ، بها غرضة مصر والشام ، ومنها تحمل حمولات الشام ومصر الى الحجاز واليمن (مسالك الممالك ، ص ٣٣) .

١٦٠ . المرحلة هي المسافة التي يقطعها المسافر في يوم واحد ، أي حوالي ٣٠ كلم .

١٦١ . A. MIQUEL, *L'Islam et sa civilisation*, p. 139 . ورحلة ابن جبير ، ص ٦٤ - ٦٥ .

ومثل ذلك كانت سفن الخليج العربي (سلبان العسكري : التجارة والملاحه في الخليج العربي في العصر العباسي ، ص ٢١٣) .



العرب خشب السفن من البندقية الى أن أمر الامبراطور البيزنطي بقطعه عنهم لأسباب سياسية واقتصادية. وأمنت عُمان خشب الساج الجيد، إلا أنه لم يكن واسع الانتشار<sup>١٦٢</sup>. ودهش ابن حوقل من مهارة الملاحين في بحيرة تَنيس بمصر السفلى إذ كانت البحيرة «قليلة العمق، يُسار في أكثرها بالمداري، وتلتقي السفينتان، تحكّ إحداها بالأخرى، هذه مصعدة، وهذه نازلة بريح واحدة، مملأة شرعها بالريح، ومتساوية في سرعة السير»<sup>١٦٣</sup>. وفي بحيرة تَنيس مدن مثل الجزر لا طريق إليها إلا في السفن، مثل مدينتي تَنيس ودمياط<sup>١٦٤</sup>.

وكان في السفن غواصون يستعملونهم لسبر الأغوار وسدّ الثقوب الطارئة على السفينة بالشمع أو دهن الحيتان، وللقيام بغير ذلك من الأعمال تحت المياه، بعد طلي أجسادهم بزيت السمسم، وسدّ أنوفهم بالشمع<sup>١٦٥</sup>. واستعملت سفن الفرس حمام الزاجل رسلاً بين البحر واليابسة. وسيطر العرب على البحر المتوسط في القرن العاشر، بحيث كانت أوروبة تلجأ الى استرضائهم كلما أرادت قطعه. وكثيراً ما كانوا يقدمون اليها الخدمات المأجورة، كما استعان فاسكو دي غاما (Vasco de Gama) (١٤٦٩ - ١٥٢٤) البرتغالي، فيما بعد، بابن ماجد<sup>١٦٦</sup> ليهندي الى طريقه في مجاهل المحيط الهندي. وكانت السفن العربية تقطع البحر المتوسط في ستة وثلاثين يوماً من الغرب حتى أنطاكية. وكان ميناء أنطاكية او سلوقية أهم ميناء تجاري في بلاد الشام. وقد حصّن الخليفة المعتصم هذه المدينة. ويقول اليعقوبي إن ميناء طرابلس الشام، في أواخر القرن التاسع،

١٦٢. D. Sourdel, *L'Islam médiéval*, p. 68.

١٦٣. ابن حوقل: المسالك والممالك، ص ١٠٣.

١٦٤. الاصطخري: مسالك الممالك، ص ٥٢.

١٦٥. سمى العرب هؤلاء الغواصين بالجلالطة أيضاً، لأن الجلفاط هو من يسدّ حوز السفن. وقد أصبحت مادتهم المفصلة، فيما بعد، الزفت.

١٦٦. شهاب الدين أحمد بن ماجد. ملاح عربي مشهور. وُلد في جزيرة العرب. التقى فاسكو دي غاما في ملندي، شرقي افريقية، عام ١٤٩٨. ألف، بين ١٤٦٢ و ١٤٩٠، ثلاثين كتاباً في العلوم البحرية، أشهرها كتاب «الغوايد في أصول البحر والقواعد». ظلّ اسمه معروفاً على شواطئ بحر الهند حتى القرن الماضي (م.ع.م)، ص ٢٥؛ ومحمد خلف الله أحمد في كتاب «أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية»، ص ١٤.

وقيل إنّ دي غاما استعان أيضاً بالمعارف الملاحية المترجمة عن العربية، وكتب عربية للملاحة استولى عليها من سفينة هنديه (الرجع الأخير نفسه، والصفحة نفسها).

كان يحتمل ألف مركب . كما يتحدث عن مدينة صور ومينائها الحربي المواجه لبيزنطية ، فيقول إنّ « بها دار الصناعة ، ومنها تخرج مراكب السلطان لغزو الروم ، وكانت حصينة جلييلة »<sup>١٦٧</sup>.

ولم يكن القسم الشرقيّ من ساحل أفريقية الشمالية ملائماً للملاحة ، فلم يكن بين ميناء طرابلس الشام وميناء القيروان في تونس أيّ مرسى تطمئن اليه السفن . وكانت الملاحة صعبة في البحر الأحمر ، لما فيه من نتوءات ورياح معاكسة ، وكان سلوكه في النهار فقط<sup>١٦٨</sup> ، وكانت عيذاب نقطة الاتصال بين البحر الأحمر والنيل ، ولها ميناء عميق مأمون الجانب ، فكانت ترد اليها البضائع من الحبشة واليمن وزنجبار في البحر ، ثمّ تحمل على الإبل في الصحراء عشرين يوماً الى أسوان أو قوص<sup>١٦٩</sup> ، ومن ثمّ تنقل الى القاهرة في النيل . ولم يصل مرفأً عدن الى مرتبة عيذاب قبل القرن الخامس عشر (١٤٣٠) . وتحوّف العرب من بحر الزنج المحيط بأفريقية ، وكان أقصى ما تصل اليه مراكبهم فيه إقليم سُفالة (موزمبيق) حيث كانوا يجدون الذهب والحديد . وكان العرب يحسبون عدناً أول البحر الفارسي الذي يلفّ الجزيرة حتى الخليج ، ثم اعتبروه ، بعد ذلك ، من المحيط الهندي .

وكانت البحار عرضة لهجمات القراصنة من عرب وهنود وغيرهم<sup>١٧٠</sup> . ولم تكن القرصنة عملاً شائعاً . وكانت السفن تتحاماهم بعدد من المقاتلة والنقاطين<sup>١٧١</sup> . وأهمّ المرافئ على المحيط الهندي ، آنذاك ، عدن وسيراف وعُمان ، ثم البصرة ، ودبيل<sup>١٧٢</sup> ، وهرمز ، وفُرْضة كرمان . وكانت عدن وافرة الغنى ، ونقطة ارتكاز التجارة بين الهند والصين ومصر . وصادرات فارس والصين واليمن تمرّ في فُرْضة سيراف على الخليج الفارسي ، ممّا أعطاهما مركزاً ممتازاً بين المدن الفارسية بغنى تجّارها<sup>١٧٣</sup> ، ومساكنها العالية

١٦٧. جغرافية البعقوي ، ص ٣٢٧.

١٦٨. الاصطخري : مسالك المالك ، ص ٣٠.

١٦٩. مدينة في مصر ، على ضفّة النيل الشرقية . أنظر رحلة ابن جبير . ص ٦٢ - ٦٣.

١٧٠. قال اندريه ميكال إنّ القراصنة كانوا هنوداً في الشرق ، وخصوصاً في جزيرة سُقُطرة والقرن الإفريقي ،

ومسيحيين في البحر المتوسط (A. MIQUEL, *L'Islam et sa civilisation*, p. 139).

١٧١. رماة النفط .

١٧٢. على مصب نهر السند في بحر عُمان .

١٧٣. وصف الاصطخري سيراف بأنّها أغنى بلاد فارس (مسالك المالك ، ص ٣٤).

ذات الطبقات العديدة المبنية من خشب الساج الثمين. وكان الكثيرون من أهلها يقضون حياتهم في البحر من سفينة الى سفينة. ولأهمية هذا المركز البحري الفارسي، دخلت اللغة العربية اصطلاحات بحرية فارسية مثل «ناخدا» وهو صاحب السفينة، و «دِيدُبَان» أي الحارس، و «رُبَان» أي قائد السفينة، وأصلها «رُهْبَان»<sup>١٧٤</sup>.

وبين البصرة الواقعة على نهر شط العرب وبين البحر مرحلتان. وعند مصب النهر مدينة عُبَّادان، وهي حصن صغير عامر، فيها رباطات وعُبَّاد قانتون، والبحر مطبق عليها، وفيها تُجسب رسوم المراكب، وتقوم حامية لمكافحة القرصان. وفي طرف المدينة، بلجهة البحر، خشبات رُكِب عليها مرقب عالٍ ذو شعلة يسكنه ناظور لهداية السفن<sup>١٧٥</sup>. قال ابن خرداذبة: «ومن الخشبات الى مدينة البحرين في شط العرب سبعون فرسخاً، وأهلها لصوص يقطعون على المراكب، ولا زرع لهم، ولهم نخل وإبل. قال أعرابي: رَمَى بِهِ فِي مُوحِشِ الْفَقَارِ بِسَاحِلِ الْبَحْرَيْنِ لِلصَّغَارِ»<sup>١٧٦</sup>.

وكان للعرب، كما رأينا، جالية كبيرة في مدينة كانتون في الصين، وقد نُظِم فيها ديوان البحر، وكان يُخطب فيها للخليفة العباسي. وإمبراطور الصين يستقبل تجّار المسلمين بالحفاوة والإكرام. وكانت الحكومة الصينية في القرن العاشر تجتهد لاجتذاب التجارة البحرية اليها، وخصوصاً ما كان من بلاد الشرق الأدنى والاسلام. وكانت الرحلات البحرية الى البلاد البعيدة محفوفة بالمخاطر لأن الآلات التي يُستعان بها على توجيه السفن ومحاربة الأخطار لم تكن قد اكتُشفت بعد<sup>١٧٧</sup>. وعلى الرغم من ذلك يذكر روجيه غارودي البوصلة بين الاختراعات التي أفادها الغرب من الصينيين والعرب<sup>١٧٨</sup>. ويقول العقّاد: «وليس أرجح من الأقوال التي ترجع بتاريخ الايرة المغناطيسية الى الملاحين العرب والمسلمين»<sup>١٧٩</sup>.

١٧٤. الأب رفاثيل نخله اليسوعي: غرائب اللغة العربية، ص ٢٢٩ و ٢٣٠ و ٢٤٦.

١٧٥. الاصطخري: مسالك الممالك، ص ٣٢ - ٣٤.

١٧٦. ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص ٦٠.

١٧٧. لم تُذكر البوصلة لدى كتاب القرن العاشر، وقد وصفت لأول مرة عام ١٢٨٢ م.، كما ذكرها المقرئزي

المتوفى عام ١٤٤٢ م.

- آدم متر: الحضارة الإسلامية، ٤٢٦/٢ - ٤٤٦.

١٧٨. R. GARAUDY, Pour un dialogue des civilisations, p. 40.

١٧٩. عباس محمود العقّاد: أثر العرب في الحضارة الأوروبية، ص ٤٥.

## ٦ - المواصلات البرية

لم يهتمّ العرب اهتماماً شديداً بالطرق ، إجمالاً ، لأنهم كانوا يعتمدون النقل والانتقال على الرواحل . والتتر هم أول من اتخذ المراكب شماليّ فارس . وعندما كانت البلاد الاسلاميّة بيد الرومان ، أنشأوا بعض الطرق فيها . وكانت الطرق والجسور الترابيّة بحاجة دائمة الى الترميم والتجديد . وانصرفت عناية العرب الى الحراسة الطرق ، وإقامة أماكن أو رباطات لاستراحة المسافرين ، وتيسير الماء لهم . وكانت هذه الأماكن تنشأ ، خصوصاً ، على الطرق الصحراويّة ، ويسكنها ، في الغالب ، زهاد ورعون يهتمون بدواب النازل وطعامه . وفي بلاد فارس كانوا يربّون البقر حول محطّات المسافرين لكي يستطيعوا القيام بضيافتهم . وفي مناطق النصارى ، كانت الأديرة تقدّم للمسافرين ما يحتاجون اليه ، مثل دير يوحنا على مقربة من تكريت على نهر الفرات ، ودير باعربا الى شماله . وأصبح بناء الفنادق معروفاً في هذا العصر ، خصوصاً في مدن فارس كنيسابور وشيراز<sup>١٨٠</sup> .

وكان على نهر دجلة قناطر ثابتة يقطع عليها المسافرون ، ولا يزال بعض آثارها باقياً الى اليوم . وفي القرن العاشر ، بعد أن انهدمت القناطر ، أقاموا مكانها جسوراً من السفن المتحرّكة وغير المتحرّكة كما نرى في بغداد وواسط . ولم يكن هذا النمط من الجسور معروفاً في بلاد فارس آنذاك . وكان على قناة عيسى المتفرّعة من الفرات قنطرة ذات خمسة أبواب . وكان بخوزستان (الأهواز) قنطرة طولها ثلاثمائة وعشرون خطوة ، وعرضها خمس عشرة ، تقوم على اثنتين وسبعين أسطوانة ، وقد سُمّيت «قنطرة الروم» ، وقنطرة أخرى من الآجر عليها مسجد يُشرف على النهر . وعلى نهر قارون قنطرة عجبية مبنية بالصخر على وادٍ سحيق ، وتقوم على دعائم ارتفاع الواحدة منها مائة وخمسون ذراعاً تشدّها قضبان من الحديد . وأجمل قنطرة في البلاد الاسلاميّة كانت قنطرة سِنْجَة أحد فروع دجلة ، بناها الامبراطور الروماني فلافيوس فسبازيان FLAVIUS VESPASIEN (٦٩ - ٧٩م) ، فكانت كبيرة شاهقة ، متّصلة بالجبل بعقد واحد ، كل حجر من أحجاره عشرة أذرع في خمسة . وكان أعظم الجسور الخشبيّة قنطرة نهر طاب بين

١٨٠ . تاريخ الفارقي ، ص ١٤٢ - ١٤٣ ، وآدم متر : الحضارة الإسلاميّة ، ٤٠٤/٢ - ٤٠٧ .

خوزستان وفارس ، فهي « معلقة بين السماء والماء ، وبينها وبين الماء عشرة أذرع »<sup>١٨١</sup> . واستعمل العرب البريد ، وهو نقل الرسائل والطرود من بلد الى بلد على الدواب والبغال والخيول . والبريد مؤسسة قديمة ، ازدهرت على عهد داريوس الأول ( ٥٢١ - ٤٨٦ ق.م ) . ملك الفرس . ونقلها العرب عن بيزنطية وبلاد فارس . لذلك نجد مصطلحات بريدية كثيرة اقتبسها العرب عن الفارسية مثل الفرانق<sup>١٨٢</sup> ، والفنج<sup>١٨٣</sup> والشاكري<sup>١٨٤</sup> واستعملوها بمعنى راكب البريد ، كما استعملوا الأسكدار ، وهو السجل الذي يدون فيه عدد الخقائب والخرائط<sup>١٨٥</sup> ، والرسائل . وبعد ان استعمل العرب الخيل في الجاهلية لنقل بريدهم ، استعملوا البغال بعد الاسلام<sup>١٨٦</sup> . وقيل إن أول من وضع نظام البريد في الاسلام معاوية بن ابي سفيان ( ٦٦١ - ٦٨٠ ) الذي أخذه عن البيزنطيين<sup>١٨٧</sup> .

وقاس الخلفاء المسافات بالأميال<sup>١٨٨</sup> والفراسخ<sup>١٨٩</sup> ، وأوجدوا محطات للبريد سموها السكك ، وفيها البغال والرجال الذين يبدلون كل ستة أميال او كل فرسخين . وربما قطع راكب البريد المسافة كلها من غير أن يتبدل ، كالخلنجي الذي كان يحمل الخريطة من مكة الى بغداد ، ويسبق بأخبار الحج دون توقف<sup>١٩٠</sup> . وكان يحاذي مؤسسة البريد وظيفة شديدة الخطورة هي وظيفة صاحب الخبر القريبة من وظيفة « الأمن العام » او « المخابرات » في أيامنا ، تراقب الموظفين والعمال ، وحتى الوزراء ، وتتجسس على

١٨١. آدم متر : الحضارة الإسلامية ، ٤٠٧/٢ - ٤٠٩ ؛ وابن حوقل : المسالك والممالك ، ص ١٧٠ ، ورحلة ابن جبير ، ص ١٥٤ - ١٥٧ .

١٨٢. الفرانق : دليل صاحب البريد ، ويروانك : رسول ( ر . نخله : غرائب اللغة العربية ، ص ٢٣٩ ) .

١٨٣. رسول ملك يسير على رجله ( المرجع نفسه ، ص ٢٤٠ ) .

١٨٤. الأجير والمستخدم والعبد ( المرجع نفسه ، ص ٢٣٥ ) .

١٨٥. جمع خريطة : كيس من جلد أو نحوه يُشد على ما فيه .

١٨٦. آدم متر : الحضارة الإسلامية ، ٤١٠/٢ - ٤١١ .

١٨٧. صبحي الصالح : النظم الإسلامية ، ص ٣٣١ .

١٨٨. لفظة قيل مأخوذة من الرومية او اللاتينية وأصل الميل ألف خطوة Mille passuum . ( ر . نخله :

غرائب اللغة العربية ، ص ٢٨٠ ) .

١٨٩. فرسخ مأخوذة من الفارسية ، وكانت تعني عندهم ما يطاله النظر أو ثلاثة أميال ، وبمقاييسنا الحالية طول الفرسخ حوالي ٨ كلم .

١٩٠. آدم متر : الحضارة الإسلامية ، ٤١١/٢ - ٤١٢ .

الأعداء في الداخل والخارج ، وتزود السلطة المركزية بالأخبار التي قد يشكل بعضها خطراً على « الأمن القومي » ، كما يُقال اليوم . وربما أُسندت وظيفة الخبر الى صاحب البريد نفسه لسرعة تنقله وكثرته ، كما كان من أمر ابن خرداذبة الذي عُيِّن صاحب البريد والخبر في مقاطعة الجبل بفارس<sup>١٩١</sup> .

وأهم طرق البريد في الخلافة العباسية هي :

١ - من بغداد الى الموصل ، فالى منبج وحلب وحماة وحمص وبلبلك ودمشق وطبرية والرملة والقاهرة والاسكندرية .

٢ - من بغداد الى الشام بمحاذاة الضفة الغربية للفرات .

٣ - من بغداد الى همدان فالريّ ونيسابور ومرو فبخارى وسمرقند ، فالى الصين ، مروراً ببلاد الصغد (أو السغد) الجبلية<sup>١٩٢</sup> . ولم يكن هذا الطريق سهلاً لما يتتاه من ثلوج في جبال تركية وروسية ، ومن شرّ اللصوص الذين لا يقنعون بالمال حتى يقتلوا من ظفروا به بالحجارة .

٤ - من بغداد الى مكة عن طريق الكوفة فالعديب في الصحراء .

٥ - ومن مصر الى المغرب الأقصى طريقان ، أحدهما يسير إزاء الساحل ، والآخر يسير جنوباً على حدود الصحراء . وكان البريد يسير أولاً على الطريق الثاني ، ثم عدل الى الأول لما اعترضه من لصوص وقطاع طرق . فكان يتوجّه الى طرابلس الغرب ، فالى القيروان ، فالى بلاد السوس على المحيط الأطلسي ، فالى الأندلس عن طريق الجزيرة الخضراء<sup>١٩٣</sup> .

وكان البريد خاصاً بحكومة بني العباس ، ولم يكن يحمل الناس أو أمتعتهم إلا عند الضرورة القصوى . وكان ، أحياناً ، يحمل ، الى جانب الرسائل ، هدايا للخليفة أو السلطان كالثمار والسّمك ونحوهما . واستعمل الى جانب البغال ، في البريد ، الخيل والجمال من الجمال السريعة ، والسعاة العدّاءون . واستعملوا حمام الزاجل استعمالاً واسعاً ، ونظّموا سيره

١٩١ . دائرة معارف ف.أ.ب. ، ٤٨٩/٢ ؛ و A. MIQUEL, *L'Islam et sa civilisation*, p. 124 .

١٩٢ . منطقة في جنوب الاتحاد السوفياتي ، سكنتها أمة إيرانية الأصل ، دخلت في طاعة الفرس على أيّام

داريوس .

١٩٣ . آدم متر : الحضارة الإسلامية ، ٤١٢/٢ - ٤١٩ .

على الطرق التي كانت معروفة أيام الرومان . ويبدو أن أول من وسّع استعماله مؤسس فرقة القرامطة . أمّا جوازات السفر ، فلم تُستعمل شرقيّ الخلافة . وكان تنقّل الناس حرّاً ، إلّا ما فرضه منها عضد الدولة على من يريد أن يدخل مدينة شيراز . غير أنّها استعملت في مصر للدخول والخروج ، وللتنقّل من ناحية الى ناحية . وكان لها نظام وسجلاّت خاصة<sup>١٩٤</sup> .

وكان العباسيون يسمّون البلاد الواقعة ما وراء الفرات «بلاد الشام» . وكانت كُور الشام جُند فلسطين ومدينتاه الكبيرتان الرملة ثم بيت المقدس ؛ وجُند الأردن ومدينته الكبرى طبرية ؛ وجُند حمص ؛ وجُند دمشق ؛ وجُند قنّسرين ومدينته حلب . أمّا مدينة قنّسرين التي يُنسب إليها ، فهي من أصغر مدنه<sup>١٩٥</sup> .

وكانت «ديار العرب» عندهم أرض الجزيرة العربية ، وما يتّصل بها من البوادي ، كبادية العراق ، وبادية الشام<sup>١٩٦</sup> . وأمّا «مملكة الاسلام» ، فإنّ شرقيّها أرض الهند وبحر فارس ؛ وغربيّها مملكة الروم وما يتّصل بها من الأرمن واللان والران والسرير والخزر والروس والبُلغار والصقالبة وطائفة من الترك ؛ وشماليّها مملكة الصين وما اتّصل بها من بلاد الأتراك ؛ وجنوبيّها بحر فارس<sup>١٩٧</sup> . و «الأقاليم العربيّة» جزيرة العرب والعراق وأقور<sup>١٩٨</sup> والشام ومصر والمغرب . و «أقاليم العجم» أولها المشرق ، فالديلم ، فالرحاب ، فالجبال ، فخوزستان ، ففارس ، فكرمان ، فالسند<sup>١٩٩</sup> .

وهكذا ، كان التقدّم الذي أحرزته الخلافة العبّاسيّة في التجارة ، والتنظيم ، وبعد الأفاق ، مدعاةً لاهتمامها بالطرق الطويلة ، الواضحة المعالم .

١٩٤ . آدم متر : الحضارة الإسلاميّة ، ٤١٩/٢ - ٤٢٥ .

١٩٥ . الاصطخري : مسالك المالك ، ص ٥٥ - ٦١ ؛ وابن حوقل : المسالك والممالك ، ص ١٠٨ ؛ والمقدّسي ؛ أحسن التقاسيم ، ص ١٥٣ .

١٩٦ . الاصطخري : مسالك المالك ، ص ١٢ - ١٥ و ٢٨ .

١٩٧ . المصدر نفسه ، ص ٥ .

١٩٨ . اسم كورة في الجزيرة ، أو هي الجزيرة التي بين الموصل والفرات بأسرها (ياقوت : معجم البلدان ، ١٩٥٥ ، ٢٣٨/١) .

١٩٩ . أحسن التقاسيم ، ص ٩ - ١٠ .



مكتبة  
المفتدين



# البحث الثالث

## الثقافات الأجنبية\*

- ١ - الثقافة اليونانية
- ٢ - الثقافة الفارسية
- ٣ - الثقافة الهندية

---

\* للتوسع في ثقافات ذلك العصر، راجع كتاب أحمد أمين «ضحى الإسلام» الجزء الأول، ص ١٦٢ وما بعدها.



## الثقافة اليونانية<sup>١</sup>

لم ترفد أية ثقافة عالمية رقيّ الانسان ومعرفته مثلما رقدت الثقافة اليونانية ؛ فإنك ، من أيّ النواحي أتيتها ، كانت نبعاُ ثرا بعيد الأعماق . وكان تأثيرها الفكري في العرب كبيراً ، خصوصاً على عهد المأمون . ورد لابن النديم<sup>٢</sup> أن أرسطو ظهر للمأمون في الحلم ، وأكد له أن لا فرق بين العقل والشرع . وكأنه بذلك حلّ أكبر إشكال للخليفة ، وفتح للإسلام باباً واسعاً على الفكر اليوناني . والثقافة اليونانية متأثرة ، أصلاً ، بالحضارات الشرقية القديمة في مصر وبابل وفينيقية وغيرها . فقد نقل اليونان نتائج الفكر الشرقي من المجال العقلائي ، وأزجوا الى العالم فلسفةً وعلومًا<sup>٣</sup> .

ورأى العرب أن حاجتهم الى الفلسفة اليونانية وعلومها تفوق غيرها من سائر أبواب المعرفة كالأداب والفنون ، إذ إن إرث الأدب العباسي كان كبيراً من الجاهلية والعصر الأموي . والفنون العربية مقيدة بحدود الإسلام ، وعادات المجتمع وتقاليده . والبيئة العباسية مشبعة بمنافذ الخيال والعاطفة والدين ، وعطشى الى مناهج الفكر المجرّد ، والحقيقة العلمية الموضوعية . وقد أتقن بعض العرب علوم اليونان إتقاناً مدهشاً ، على حدّ تعبير العلامة الألماني ماكس مايرهوف ، ابتداءً بفيلسوف العرب أبي يوسف يعقوب بن إسحق الكندي (ت بعد ٨٧٠)<sup>٤</sup> .

١ . من الكتب المفيدة التي يحسن الاطلاع عليها ، في هذا المجال ، كتاب عبد الرحمن بدوي : التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية . وفيه دراسات أصيلة لكارل هينرش بكر ، وماكس مايرهوف ، ويول كروس ، وإجتس جولدنسير ، وكرلو ألفونسو نلينو .

٢ . الفهرست ، ص ٢٤٣ .

٣ . J. PIRENNE, Les Grands courants, II/XII .

٤ . ماكس مايرهوف في كتاب بدوي : التراث اليوناني ، ص ٥٩ .

وكان للعرب احتكاك قريب بالبيزنطيين أو الروم ، ورثة الحضارة الهلنسية ، فنظروا إليهم نظرة معجبة ، وانبهروا بمهاراتهم . قال ابن الفقيه <sup>٥</sup> « إن الروم هم أهل صناعات وحكم وطب ، وهم أحذق الأمم بالتصاوير . يصور مصورهم الانسان حتى لا يغادر منه شيئاً ، ثم لا يرضى بذلك حتى يصيره شاباً ، وإن شاء كهلاً ، وإن شاء شيخاً ، ثم لا يرضى بذلك حتى يجعله جميلاً ، إلخ ... » <sup>٦</sup> . وهذه النظرة ، بل هذا الموقف شبيه بموقف كل شعب أمام حضارة متقدمة .

« وأتاحت فتوح الاسكندر (٣٥٦ - ٣٢٤ ق.م.) ، منذ القرن الرابع قبل الميلاد ، لبلاد الشرق ، أول اتصال واسع بالثقافة اليونانية ، غير أن أثر هذه الثقافة تجلّى ، مع غيره من مظاهر الحضارة ، خلال النهضة العباسية . ووصلت الكتب اليونانية الى العرب مترجمة باللغة السريانية أولاً ، ثم باللغة العربية . قال الدكتور فيليب حتي : « وكانت طريقة السريان أن ينقلوا الكتاب اليوناني الى لغتهم السريانية ، ثم يترجموه ، بعدئذ من السريانية الى العربية . وبلغ التأثير اليوناني أوجه في عهد المأمون » <sup>٧</sup> . وكانت أهم مراكز الثقافة اليونانية في العصر العباسي ، عدا الأديرة الكثيرة في سورية وما بين النهرين ، ثلاثة : جنديسابور ، وحران ، والاسكندرية . (٢)

جنديسابور مدينة من مدن خوزستان في فارس ، اتخذت اسمها من اسم بانها سابور الأول الساساني <sup>٨</sup> حيث كان يجمع أسرى الروم . ثم أسس فيها كسرى أنو شروان (٥٣١ - ٥٧٩) مدرسة للطب ألحق بها مستشفى كبير . وكان الأساتذة والأطباء من الهنود واليونان الذين لجأوا الى فارس ، أو من النصاري السريان . وعندما فتح العرب بلاد الفرس ، كانت الفلسفة تدرس فيها باللغة الآرامية ، وكان الطب منحصرًا بأولاد الأطباء ، وأبناء جلدتهم . ويقال إن الحرث بن كلدة تخصص فيها قبيل الإسلام . وفي العصر العباسي الأول ، طلب المنصور ، الذي كان معوذاً ، عددًا من أطبائها لمعالجته ، فجاءه رئيس الأطباء فيها جورجيس بن بختيشوع الذي جعله طبيبه الخاص . وعلى

٥ . أبو بكر وقيل أبو عبدالله أحمد بن محمد الحمداني المعروف بابن الفقيه . اشهر بكتاب البلدان الذي ألفه حوالي عام ٩٠٣ .

٦ . ابن الفقيه : كتاب البلدان ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .

٧ . تاريخ العرب ، ص ٣٧٨ .

٨ . ملك فارس (٢٤١ - ٢٧٢) . ابن أردشير .

عهد الرشيد أنشأ جبريل بن بختيشوع بيارستاناً في بغداد بناء على طلب الخليفة ، وتولّى إدارته أطباء من جُنْدِيسابور. وظلت مدرسة جُنْدِيسابور تمدّ الخلفاء العبّاسيّين قروناً عديدة<sup>٩</sup>.

حِرّان مدينة شماليّ العراق<sup>١٠</sup>، أبى أهلها ، وهم من اليونان والسريان والأرمن والعرب ، اعتناق النصرانيّة أو الإسلام ، وظلّوا على مذهب خاص مزيج من الديانات القديمة ، فنظّمهم العبّاسيون في سلك الصابئة ، وليسوا منها أصلاً. وكانوا يعظّمون الكواكب ، وقيمون لها الهياكل الفخمة. وكانت حِرّان مركز العلوم الرياضيّة ، والهندسيّة ، والطبيّة ، والفلكيّة. ونبغ من رجالها ثابت بن قرة (٨٣٦ - ٩٠١) ، وابناه إبراهيم وستان ، وغيرهم من علماء هذه الأسرة ، كما اشتهرت أسرة هلال ، وكان منها هلال بن إبراهيم الطيّب ، وابنه إبراهيم أبو إسحق الصابئي (٩٢٥ - ٩٩٤) الذي جمع العلم إلى الأدب والترسل ، وهلال بن المحسن بن إبراهيم (٩٦٩ - ١٠٥٦) المؤرّخ<sup>١١</sup>. ومن أكبر علماء حِرّان والعرب البتاني Albaténus<sup>١٢</sup> (٨٥٨ - ٩٢٩) المشهور برصد الكواكب ، وبالإنشاءات الهندسيّة<sup>١٣</sup>.

استمرّت الدراسة في حِرّان أربعين عاماً تقريباً ، وظلّت مركزاً مهماً ، متّصلاً ، للثقافة اليونانيّة في منطقة يتكلّم أهلها اللغة الآرامية الشرقيّة. وهي ، إلى ذلك ، نقطة مهمّة للتبادل الثقافيّ مع آسية الصغرى بؤرة الثقافة اليونانيّة. ويكفي للدلالة على أهميّة هذه المدرسة أن نذكر أنّ مدرسة الاسكندرّيّة انتقلت إلى أنطاكية على عهد عمر بن عبد العزيز (٧١٧ - ٧٢٠) ، ثمّ إلى حِرّان في خلافة المتوكّل (٨٤٧ - ٨٦١)<sup>١٤</sup>. وكانت الاسكندرّيّة عاصمة الفلسفة اليونانيّة ، ففيها نشأ المذهب الاسكندرّيّ أو

٩. أحمد أمين: ضحى الإسلام ، ٢٥٥/١ ، وزيفريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ١٨١ ، والعقاد: أثر العرب في الحضارة الأوربيّة ، ص ٣١.

١٠. تلي حِرّان الرقة في الكبر. وكانت مدينة الصابئين ، وبها سكّنتهم السبعة عشر ، وبها تلّ عليه مصلّى يعظّمه الصابئون ، ويُنسب إلى إبراهيم الخليل. وهي قليلة الماء والشجر ، إلّا أنّ فيها أراضيّ تنبت من غير سقيا (الاصطخري: مسائل المالك ، ص ٧٦).

١١. له كتاب «تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء».

١٢. سُمّي البتاني إلى بتان إحدى مقاطعات حِرّان. وهو أبو عبد الله محمّد بن ستان.

١٣. أحمد أمين: ضحى الإسلام ، ٢٥٦/١ وما بعدها.

١٤. مايرهوف في كتاب بدوي: التراث اليوناني ، ص ٦٨ - ٧١.

الأفلاطونية الحديثة التي أسسها أفلوطين (٢٠٥-٢٦٩ م.)، مستنداً الى فلاسفة اليونان، ومحارباً المذاهب المادية والعقلانية، ومغرقاً في الروحانية حتى الفناء في الملائ الأعلى. وإذا كانت مدارسها الفلسفية قد أغلقت بأمر الامبراطور جوستنيان الأول (٥٢٧-٥٦٥ م.) عام ٥٢٩ ميلادية، مع غيرها من مدارس أثينا، فقد ظلت فيها حركة فلسفية وأدبية وفنية واسعة، حتى أواسط القرن السابع للميلاد. وقد أكد بعض العلماء الألمان: «أن مدرسة الاسكندرية كانت لا تزال قائمة وقت أن فتح العرب مصر»<sup>١٥</sup>.

وأفاد فلاسفة العرب ومتصوفوهم ممّا وصل إليهم من الكتب والآراء الباقية من هذه المدرسة التي عمّ صيتها الشرق والغرب، وعملت بتعاليمها مدرستا نصيبين<sup>١٦</sup>، والرها<sup>١٧</sup>، القائمتين ما بين النهرين، وفي تركيا حالياً. وبقيت الأولى حتى منتصف القرن السادس الميلادي، والثانية حتى القرن السابع. وكان القيمون على المدرستين من السريان النساطرة الذين ترجموا الفلسفة والعلوم اليونانية الى لغتهم، ونبغ فيهم كبار المترجمين كحنين بن إسحق (٨٠٨-٨٧٣)، وغيره. وشارك النساطرة في نقل فلسفة اليونان، وعلومهم، اليعاقبة السريان الذين كان مركزهم مصر، والاسكندرية بنوع خاص. وكان اليعاقبة أقرب الى التصوف والزهد، والنساطرة الى المنطق والفلسفة النظرية، مع التزامهم بالرهبانية والتقشف. إلا أن مدرستي جنديسابور وحران كانتا أكثر تأثيراً في بني العباس لقربهما من العراق، واختصاصهما بالعلوم الموضوعية الواقعية التي تتوافق مع حاجة المجتمع العباسي المتنامي<sup>١٨</sup>.

١٥. ماكس مايرهوف في كتاب بدوي: التراث اليوناني، ص ٣٧.

١٦. Nisibis أو Nusaybin اليوم. جاء في كتاب مسالك المالك للاصطخري. ص ٧٢-٧٣، أن نصيبين «أزهر بلد في الجزيرة ما بين دجلة والفرات، وأكثرها خضرة. وهي مدينة كبيرة في مستوى من الأرض، ومخرج ماؤها من شعب جبل يُعرف ببالوسا، وهو أزهر مكان بها، حتى ينبسط في بسايتها ومزارعها... وبها دير عظيم وحواليها ديارات وصوامع للنصارى كثيرة». ووصف ازدهارها واخضرارها ابن جبير في رحلته (ص ١٧٠-١٧١)، وذكر أن فيها مدرستين ومارستاناً واحداً.

١٧. Edesse واليوم Urfa وأوديسا. أورد الاصطخري في مسالك المالك، ص ٧٦، أنها «مدينة وسطية. والغالب على أهلها النصارى، وفيها زيادة على ثلاثمائة دير، وصوامع كثيرة، ورهابين، ولهم بها كنيسة ليس في بلاد الاسلام كنيسة أعظم منها، ولها مياه وبساتين كثيرة وزروع».

١٨. أحمد أمين: ضحى الإسلام، ٢٥٩/١ وما بعدها.

## الثقافة الفارسية

إستطاع العرب أن يقضوا قضاءً تاماً على الامبراطورية الفارسية وارثة الحضارة الشرقية التليدة ، وأن يحتلوا أراضيها . وقامت الخلافة العباسية بمؤازرة الفرس الذين نقلوا الى المجتمع العربي علومهم ، وآدابهم ، وعاداتهم في مختلف الميادين . وأثر الفرس في العراق سابق لخلافة بني العباس ، لما يربط البلدين من جوار . فلما قامت الدولة العباسية أعطي الفرس مناصب قيادية كالوزارة ، وقيادة الجيش ، ورئاسة الدواوين ، وغيرها . وظل نفوذ الفرس يتسع حتى نافسوا الخلفاء في أبتهم وجاههم ، فاضطر الرشيد الى القضاء عليهم وعلى زعمائهم البرامكة عام ٨٠٣ .

واشتهر الفرس بالكتابة والتدوين ، فتشكّلت منهم ومن تلاميذهم طبقة الكتاب المعهودة لديهم ، والتي نشرت الثقافة الفارسية في بني العباس . والكتاب ، بحكم وظيفتهم ، أحوج ما يكونون الى الثقافة الشاملة . وكان مفهوم الأديب والآداب ، في ذلك الزمان ، يشمل مختلف جوانب المعرفة ، ولا ينحصر في النواحي الفكرية والتعبير اللغوي المنمّق ، كما جاء في الكتب المصنفة آنذاك ككتب الجاحظ (٧٧٥ - ٨٦٨) ، و«أدب الكاتب» لابن قتيبة (٨٢٨ - ٨٨٩) ، و«أدب الكاتب» لأبي بكر الصولي (ت ٩٤٦) . ولا شك في ما كان للأسلوب الفارسي الموشى بأنواع البيان والبديع من أثر بارز في الكتاب العرب وأساليبهم .

وظهرت الثقافة الفارسية بالعصر العباسي في الترجمة ، واللغة ، والأدب ، والتاريخ ، والجغرافية ، والفلك ، والطب ، والأخلاق ، والحكم ، والعادات ، وأصول الحكم . وكانت أصيلة في الفنون والآداب ، ومترجمة ، إجمالاً ، في العلوم والفلسفة . وإذا كانت هذه الثقافة قد عمّت وغطت على مختلف ميادين العصر العباسي الأول ، فإن نكبة البرامكة لم تقض على الأثر الفارسي ، لأنه كان قد ترسّخ وانتشر في المجتمع العربي ، ولأن الأتراك ، الذين سيطروا في العصر العباسي الثاني ، لم يكونوا أهل ثقافة وعلم . وتبعهم سلاطين بني بويه في العصر العباسي الثالث ، وأعادوا لبني ساسان سابق عزهم<sup>١٩</sup> .

١٩. المرجع نفسه ، ١٦٤/١ وما بعدها ، وحتي : تاريخ العرب ، ص ٣٧٥ - ٣٧٧ .

وهكذا كانت الثقافة الفارسية الأكثر تأثيراً وانتشاراً بعد الإرث العربي، ولم تنحصر في التبادل الثقافي، وإنما كانت حاضرة في الأذهان المليئة بذكريات الماضي الفارسي، وبمذهب زرادشت وتقديس النار، ومراكز المانوية والمزدكية التي لا يزال أوارها يلفح النفوس، بلّغ أنها كانت تعيش على شفاة الألوف من الناس الذين ما زالوا يتكلمون لغتها الحية التي نشأ بينها وبين العربية تيار متصل من تبادل الكلمات والنظريات. وأسهم اجتماع تراثين محلّين، فارسيّ وعربيّ، في قيام حضارة على مستوى عالمي<sup>٢٠</sup>. وما أخذته الحضارة العباسية عن الفرس من مؤسسات ومظاهر حضارية، جعل المؤرخ الفرنسي جاك بيرين Jacques PIRENE ينعت «امبراطورية بغداد» «بورينة الساسانيين»<sup>٢١</sup>.

### الثقافة الهندية

عرف العرب الهند منذ جاهليّتهم. وكان اتّصالهم بها، أولاً، اتصالاً تجارياً، وذكروا طيها وسوقها المهندة. ثم أخذوا يتغلغلون في أقاصيها، ويفتتحونها مدينة بعد مدينة، وناحية بعد ناحية، منذ عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٧٠٥-٧١٥ م) على يد قائده محمد بن القاسم الثقفي عام ٧٠٩ م. وفي العصر العباسي، كانت بلاد السند تابعة للخلافة. ومثلما جاء منها العود والسكر، حضر العلماء ومعهم ثقافتهم الخاصة، واشتهر منهم اللغويون كابن الأعرابي<sup>٢٢</sup>، والمحدثون، والحكماء، والحاسبون، والمنجمون، والأطباء، وأصحاب الحرف كالنجارين والمصوّرين والطّباخين، وغيرهم. وحوالي عام ٧٧١ م، جاء من الهند رحالة الى بغداد، ومعه كتاب في علم الفلك يدعى سدذانتا (السندهند) لبراهما غوبتا Brahma Gupta (٦٢٨ م)، فترجمه أبو اسحق إبراهيم بن حبيب الفزاري (ت حوالي ٨٠٠ م)، بناء على طلب المنصور، وكان له أثر رائد في هذا العلم<sup>٢٣</sup>.

٢٠. A. MIQUEL, *L'Islam et sa civilisation*, p. 108.

٢١. J. PIRENE, *Les Grands courants* II/11-12.

٢٢. محمد بن زياد بن الأعرابي (٧٦٧-٨٤٤): لغوي، راوية، مؤرخ. وُلد بالكوفة ومات بسامرا. بعد وفاة أبيه السدي الأصل، تزوّجت أمّه من الفضل بن محمد الضبي (ت ٧٨٠) اللغوي الذي تلمذ عليه. ثم اشتغل بالتدريس في بغداد (م.ع.م)، ص ١٠ و١٧٢٨.

٢٣. من المؤرخين من عزا ترجمة «السند هند» الى محمد بن ابراهيم الفزاري (راجع فيليب حتي: تاريخ



وبعد المنصور، عرف البرامكة فضل الهنود وآثارهم، فأرسلوا الرسل يحضرون العلماء، والصنّاع، وأهل المعرفة منهم. «قال محمد بن اسحق: الذي عُني بأمر الهند في دولة العرب، يحيى بن خالد، وجماعة البرامكة، واهتمامها بأمر الهند وإحضارها علماء طبّها وحكّائها»<sup>٢٤</sup>.

وأبرز ما ظهر فيه أثر الهنود عند المسلمين الفلسفة الروحانية، وعلم الحساب والتنجيم. وقد امتازت الفلسفة الهندية بامتزاجها بالدين، وبصوفيّتها، وتعبيرها عن الحقائق بلغة مجازية تصويرية. وهي فلسفة متطوّعة لخدمة الانسان، ولا تتوقّف عند النظريات المجردة بشكل خاص، كالفلسفة اليونانية. ومن أبرز عقائدها تناسخ الأرواح التي يرتبط بها الثواب والعقاب والجنة والنار. فجعلوا الترقّي في الدرجات الانسانية والعلمية مرهوناً بترقي الأجسام التي تلبسها الأرواح. فبقدر ما تتبلور إنسانية الإنسان وتسمو، تنتقل الى جسم أصفى وأشرف. ومن أهم ما أفادت الآداب العربية من الهند الألفاظ الهندية المعربة كالزنجبيل والكافور والخيزران والفلفل، والقصص الهندي ككليّة ودمنة، والف ليلة وليلة، وقصص السندباد، والحكمة الهندية<sup>٢٥</sup>.

العرب، ص ٣٧٤؛ والمتجد في الأعلام، ١٩٧٥، ص ٥٢٧؛ وعمر فروخ: تاريخ العلوم عند العرب، ص ٣٣٠. مع العلم بأن فروخ نفسه أورد أن مترجم الكتاب هو إبراهيم الفزاري في الصفحات ١١٦ و ١١٧ و ١٢٥ و (١٦١).

٢٤. الفهرست، دار المعرفة، بيروت، ص ٤٨٤.

٢٥. أحمد أمين: ضحى الإسلام، ١/ ٢٢٩ وما بعدها؛ وحتي: تاريخ العرب، ص ٣٧٤ - ٣٧٥.



# البحث الرابع الحركة العالمية

- ١ - الطبّ
- ٢ - الصيدلة والكيمياء
- ٣ - الفيزياء
- ٤ - الجغرافية
- ٥ - علم الفلك
- ٦ - الحساب والرياضيات
- ٧ - الفنون الجميلة





## الحركة العلمية

— «إبتدأت العلوم المنظّمة عند العرب في الأعصر العباسية، إذ كانت قبلها، إجمالاً، مبعثرة، ومتواترة، وموروثة، يرونها الخلف عن السلف، <sup>قبله</sup> ومنصرفه إلى العلوم الدينية واللغوية خصوصاً. ومع استمرار هذه العلوم عندهم، تفتّحت عيونهم على علوم جديدة منظّمة، أدخلتها الشعوب الأجنبية التي دانت لهم، فاقبّسوها، وزادوا عليها، وسمّوها العلوم الدخيلة. وأقرّ المستشرقون والعلماء الأجانب، للعرب، بفضل كبير في نقل العلوم وتطويرها، فقال مثلاً جورج سارطون<sup>١</sup>: «كان العرب أعظم معلمي العالم. فلو لم ينقلوا كنوز الحكمة اليونانية، لتوقّف سير المدنية بضعة قرون. فوجود ابن الهيثم، وجابر بن حيان، وأمثالهما، كان لازماً، وممهّداً لظهور غاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢)، ونيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧)» (م).

لـ «وأرى لزماً عليّ الإشارة إلى فضل العصر الأمويّ في التمهيد للحركة العلمية التي ذاعت في العصر اللاحق، خصوصاً ما قام به خالد بن يزيد بن معاوية (ت ٧٠٤ م) الذي فضّل العلم على السلطة، وأحضر فلاسفة يونانيين من مصر، وأمرهم بنقل الكتب في الكيمياء، والطبّ، والنجوم، من اليونانية والقبطية إلى العربية، مسجلاً أول نقل من

- 
١. Georges SARTON: مستشرق بلجيكي (١٨٨٥ - ١٩٥٦)، درّس تاريخ العلوم في جامعة هارفارد بأميركة بعد عام ١٩٠٦، وغدا عضواً في الجمع العلمي العربي. صاحب كتاب «المدخل إلى تاريخ العلوم».
  ٢. أسعد سكاف ومحمود مطرجي: تاريخ العلوم عند العرب، ص ٨. ويمكن مراجعة أقوال المستشرقين في
  - العلمية في كتاب قدرتي حافظ طوقان «تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك»، ط ١. مطبعة
  - القاهرة، ١٩٤١؛ وط ٢. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٤؛ وط ٣. دار القلم
  - بـ ١٩٦٠، وآخرها طبعة دار الشروق، بيروت، ١٩٧٩.

لغة الى لغة في الاسلام<sup>٣</sup>، وما أنجزه عبد الملك بن مروان (٦٨٥ - ٧٠٥ م) بنقله الدواوين وغيرها من الفارسية، إثر انفتاحه على العلوم والثقافات الدخيلة.

بدا العرب في العلوم تلاميذ الهنود والفرس واليونانيين، ونجحوا نجاحاً كبيراً، وكانوا جُماعاً مرةً، ومُبدعين مرةً أخرى (وكان المنصور أول خليفة عباسي قُرب العلماء، وحبّاهم التشجيع والمساندة، وأعلى منزلتهم، وترجمت له الكتب القديمة من اليونانية، والرومية، والفهلوية، والفارسية، والسريانية؛ فنشرها بين الناس، فكثرت، في أيامه، رواياتهم، واتسعت علومهم<sup>٤</sup>). أما المأمون، فشجّع كنه الخاصة، البحث، والجدل، والمناظرة، واستقبل الفقهاء وأهل المعرفة من الأدباء، وأجرى لهم مجالس معلومة، وشاركهم فيها، وبذل لهم بسخاءً<sup>٥</sup>. وأنشأ المأمون، عام ٨٣٠، مدرسة للترجمة في بغداد سُميت «بيت الحكمة»، ووضع على رأس المترجمين فيها يوحنا بن ماسويه (ت ٨٥٧). وبعد خمس وعشرين سنة، تقريباً، جدد المتوكل هذه المدرسة، وجعل حنين بن إسحق (٨٠٨ - ٨٧٣) رئيساً لعلمائها<sup>٦</sup>. أما المدير العام لبيت الحكمة زمن المأمون، فقد كان وزيره سهل بن هرون (ت ٨٣٠). ولم يكن «بيت الحكمة» بدعة ابتدعها المأمون، فإن الخليفة استوحاه من مدرسة جنديسابور. كما كانت قد تكونت، على عهدي المهدي، والرشد «خزانة الحكمة» التي يمكن اعتبارها، أيضاً، نواة لبيت الحكمة<sup>٧</sup>. واتصل المأمون بالبيزنطيين، أعداء الخلافة، لكي يؤمّنوا له الكتب العلمية، كما أقام سلفه المهدي (٧٧٥ - ٧٨٥) علاقات بالامبراطور البيزنطي لاون<sup>٨</sup>، مستمداً منه كتب العلوم اليونانية القديمة<sup>٩</sup>.

ومجدر الإشارة الى دور المسيحيين الطليعي، الرفيع الشأن، في الحركة العلمية، وحركة الترجمة في بني العباس. وأكثر المترجمين في «بيت الحكمة»، في بدايات عمله،

٣. ابن النديم: الفهرست، طبعة دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨، ص ٣٣٨.

٤. المسعودي: مروج الذهب، ٢١٤/٥.

٥. ماكس مايرهوف في كتاب بدوي: التراث اليوناني، ص ٥٨.

٦. J.M. FIEY, *Chrétiens Syriques sous les abbassides*, pp. 43 et 73.

٧. إنه لاون الرابع الخزري (٧٧٥ - ٧٨٠)، أخذ لقبه من أمّه الأميرة الخزرية. ويذكر المنجد في الأعلام، ١٩٧٥، ص ٦١٠ أن المأمون، هو أيضاً، أرسل وفدًا الى لاون الخامس الأرمني (٨١٣ - ٨٢٠) يطلب منه كتباً يونانية لنقلها الى العربية. وقد ورد اتصال المأمون بالامبراطور الأرمني في الصفحة ٥٦ من كتابنا هذا.

٨. J.M. FIEY, *op. cit.*, p. 31.

كانوا مسيحيين ملكيين وبعاقة ، وبخاصة نساطرة . وبفضلهم ، انتقل العلم اليوناني الى العرب الذين نقلوه الى أوروبا<sup>٩</sup> .

وكثيراً ما كان العلماء يجمعون بين علوم مختلفة ، ويشعّون مادة اختصاصهم . فترى الطبيب فيلسوفاً ، أو مهندساً ، أو فلكياً ، أو كيميائياً ، يؤلف الموسوعات في هذه العلوم<sup>١٠</sup> . ولا يمكن فهم أنة حركة في الاسلام خارج الدين . والذي يبحث في تاريخ البلاد الاسلامية غير ملتفت الى أثر الدين ، يكون كالباحث عن شيء خارج إطاره الصحيح ، وذلك للصلة الوثيقة بين المسلم والاسلام عبر التاريخ ، ولطبيعة الاسلام المهيمن على كل حركة من حركات المسلم ، وعلى كل دقيقة من حياته الروحية والعملية . وفي العلوم الزمنية يقول ابن قتيبة : « وخير العلوم أنفعها ، وأنفعها أحملها مغبةً ، وأحملها مغبةً ما تُعلم وعلم الله ، وأريد به وجه الله تعالى »<sup>١١</sup> . وتوجيه ابن قتيبة هذا ، يحدونا على القول إن المسلمين المترتئين وقفوا من العلوم ، خارج العلوم الشرعية وما يتبعها ، موقف شك وحذر ، لا لأنها تتعرض للدين ، أو تدعو الى الإلحاد ، ولكن ، لأنها غريبة عن علوم القرآن النافعة ، والمؤدية لخلاص الإنسان . وفقهاء الشرع القدامى ، كالماوردي (ت ١٠٥٨ م) ، وتقي الدين بن تيمية الحنبلي (ت ١٢٥٤ م) ، اعتبروا أن العلوم التي حث الرسول على طلبها هي العلوم الشرعية ، أو ما كان منها ضرورياً لتأدية الفرائض الدينية<sup>١٢</sup> . ويمكن إخراج الحساب من دائرة المنع لأن الاشتغال به من مستلزمات علم الفرائض ، والشرعية تقضي بتعلمه ، بخلاف الهندسة ودوائرها وأشكالها

٩ . Ibid., pp. 44 et 73 .

١٠ . عباس محمود العقاد : أثر العرب في الحضارة الأوربية . ص ٣٤ . فإن قسطا بن لوقا البعلبكي (حوالي

٨٢٠-٩١٢) برع في الترجمة والطب والفلسفة والهندسة والحساب والموسيقى (ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٧٩ و ٤١٠) ؛ والسرخسي (ابو العباس احمد بن الطيب بن مروان ، ت ٨٩٦ م) كان له مؤلفات في الفلسفة والطب والرياضيات والموسيقى وعلم البلدان (عبد الكريم حتامه : خلافة المعتضد بالله ، ص ٩١ ؛ والمسعودي : مروج الذهب ، ١٦١/٥) .

١١ . ابن قتيبة : عيون الأخبار ، الصفحة الأولى من المقدمة . وقد لفت تأثير الدين الكبير في مواقف المسلمين

والترامهم ، خصوصاً في القرون الوسطى ، المستشرقين ، فقال دومنيك وجانين سورديل :

« Religion révélée, l'Islam, dans son acception médiévale, régissait toutes les activités de l'homme, sa vie spirituelle et morale comme son attitude sociale et politique... » (La civilisation de l'Islam classique, p. 129).

١٢ . اجتس جولدتسيهر Ignaz GOLDZIEHER في كتاب بدوي : التراث اليوناني ، ص ١٢٥ - ١٢٧ .

المريية<sup>١٣</sup>. وربما قال قائل إنَّ علم الهيئة يمكنه أيضاً أن يفيد المسلمين بتحديد مواعيد الصلاة والقبلة وغيرها، فلماذا رفضه علماء الإسلام؟ والجواب عن ذلك أنَّ علم الهيئة، مع ما يمكن أن يكون له من فائدة، معدود من «علوم الأوائل»، أو «علوم القدماء»، أو «العلوم القديمة»، المأخوذة، أو المتأثرة بالكتب اليونانية الداخلة بالإلحاد. ويكفي ذلك لإهماله، ومنع تداوله<sup>١٤</sup>. والمواقف الدينية المترتبة فرضت صراعاً قاسياً بين الإيمان الملتزم بالسنة وأعرافها، وبين المعارف المادية الوافدة مع تعدد الجنسيات التي دخلت الخلافة، وأثبتت وجودها فيها.

## ١ - الطب

إنَّ الطبَّ العربيَّ الذي نعالج تحت هذا العنوان هو علم راقٍ توصَّل إليه العرب بعد نقلهم عن مختلف الحضارات القديمة. أمَّا ما انحدر إليهم من مجتمعاتهم السابقة، فكان مزيجاً من الطب، والكهانة، ومعالجة الأمراض بالوسائل البدائية. فكان الطبيب يعالج بالفصد، والكَيِّ، والحجامة، والحمية، وبعض العقاقير والأعشاب التي تنبت في بلاد العرب، أو تجلب من الهند والصين... وعرف القبيلة يخلط بين الرقي، والتبخير، والأدوية المقرنة بالعزائم والتماثيم والتعاويز. وقد أصبح الطبَّ العربيُّ في بني العباس علماً واقعياً له مدارس وكتبه وآلاته، وهو يستعمل التشخيص، والجراحة، والأدوية المركبة، وإن بقيت في طبهم بعض المعالجات النباتية، كعلاج انطلاق البطن بالسفرجل والزعرور<sup>١٥</sup>. وتجدد الإشارة إلى أنَّ أكثر أطبائهم وأهمهم كانوا من الموالي<sup>١٦</sup>، الذين وثق بهم العباسيون أكثر ممَّا وثقوا بالعرب. وقصة الطبيب أسد بن جاني، الذي لقي الكساد، على علمه ومعرفته، لكونه عربياً مسلماً، مشهورة في كتاب «البخلاء» للجاحظ.

١٣. اجتنس جولدتسير في كتاب بدوي: التراث اليوناني، ص ١٣٨ - ١٣٩.

١٤. المرجع نفسه، ص ١٢٣ و ١٤٥.

١٥. المسعودي: مروج الذهب، ٣٧٨/٤.

١٦. راجع أسماء الأطباء في مجلس الواثق في مروج الذهب للمسعودي، ٣٧٧/٤. وفي كتاب ابن أبي أصيبعة

(١٢٠٣ - ١٢٦٩): «عيون الأنبياء في طبقات الأطباء» الذي يضم تراجم مشاهير الأطباء، وعلومهم، ونواديرهم.



إن أهم مؤلفات العرب الطبية هما كتاب الحاوي لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي RAZÈS ou RHASÈS (٨٦٥ - ٩٢٥) الملقب جالينوس العرب<sup>١٧</sup>، وكتاب القانون لابن سينا AVICENNE (٩٨٠ - ١٠٣٧) الذي لا تزال معظم معلوماته في الطب والصيدلة مستعملة إلى اليوم. وقد تُرجم «القانون» في القرن الثاني عشر، كما تُرجم «الحاوي» عام ١٢٧٩، وهو أكبر من «القانون»، وأوسع منه مادةً وموضوعاً. أكمله تلاميذ الرازي بعد موته<sup>١٨</sup>.

وكان الأطباء يكثر من الارتكاز في تشخيصهم على البول، كما يوجّه ابن سينا تكررًا في كتاب القانون. وقيل إنه بوساطة البول عُرفت علّة الرشيد التي هلك بها<sup>١٩</sup>. قال جرجي زيدان (١٨٦١ - ١٩١٤) في كتابه «تاريخ التمدّن الإسلامي»: «وكان الفحص الطبّي عندهم قاصرًا على فحص البول وجسّ النبض، فيأتي المريض ومعه قارورة الماء، أي زجاجة البول، فيسلّمها إلى الطبيب، فينظر فيها ثم يذوقها ليتحقّق وجود الحوامض أو القوابض<sup>٢٠</sup> أو السكر فيها، ثم يجسّ النبض، وعند ذلك يحكم في حال المريض، لاعتقادهم أن النبض يدلّ على مزاج القلب، والبول على مزاج الكبد وحال الأخلاط. ومهما يكن من اعتقادهم، فإنّ هذه الطريقة لا تزال مما يعول عليه الأطباء إلى اليوم»<sup>٢١</sup>.

ولكنّ ما جاء في كتاب الحاوي للرازي يخالف اقتصار الفحص الطبّي على البول والنبض كما قال زيدان، إذ وجّه الأطباء إلى أن يعتمدوا في تشخيصهم على «جسّ النبض، ومراقبة درجة الحرارة، والرعشة، واحتقان الوجه، والعيّن، والتنفس، والأظافر...»<sup>٢٢</sup>.

وأفاد العرب بالشروح، والنقد، والتبويب الذي أدخلوه على كتب الطبّ اليونانيّة

١٧. نشر الدكتور أسامة عانوتي، عام ١٩٧٤، دراسة بعنوان «الرازي جالينوس العرب»، في إحدى عشرة صفحة. وهي حريّة بالمطالعة. وكتبت عنه زيفريد هونكه فصلاً بعنوان «أحد أعظم أطباء الإنسانية إطلاقاً» (شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٢٤٣ - ٢٥٧).

١٨. عبّاس محمود العقّاد: أثر العرب في الحضارة الأوربيّة. ص ٣٥.

١٩. مروج الذهب، ٢٣٠/٤؛ وزيدان: تاريخ التمدّن الإسلامي، ١٥٣/٢.

٢٠. ما بمسك البطن منها.

٢١. تاريخ التمدّن الإسلامي، ٢٠١/٢.

٢٢. أسعد السكاف ومحمود مطرجي: تاريخ العلوم عند العرب، ص ٨٦.

والفارسية والهندية والكلدانية ، كما فعل ابن أبي الأشعث<sup>٢٣</sup> بكتب جالينوس الذي كان له ولأبقراط السيادة في هذا الميدان<sup>٢٤</sup>. واستعمل العرب العلاج بالأدوية الباردة لبعض الأمراض ، كالفالج ، والقوة ، والاسترخاء ، التي كان يعالجها الطب القديم بالأدوية الحارة . وأول من استعمل هذه الطريقة الطبيب البغدادي أبو منصور صاعد بن بشر . ومن بوادرهم الفعالة ، التي لا يزال الطب يأخذ بها إلى أيامنا ، استعمال المرقد أو «البنج» بوساطة الزؤان والحشيش والأفيون الذي استعملوه أيضاً لمعالجة الجنون . وهم أول من استعمل الكاويات والماء البارد لقطع النزف ، وعالجوا خلع الأعضاء بطريقة ردّ المقاومة الفجائي<sup>٢٥</sup> ، والماء الأزرق بقدر العين بإبرة مخصوصة . وأجروا عملية تفتيت الحصاة واستئصالها . ومن كبار جراحهم أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي (ت ٤٠٤ هـ/١٠١٤ م) الذي وصف أكثر من مئتي آلة جراحية في كتابه «التصريف لمن عجز عن التأليف» ، وبين طريقة استعمالها في العمليات ، فأفاد منه علم الجراحة في الغرب إفادة كبيرة<sup>٢٦</sup>.

وأول من كتب في الجذام في الطب العربي يوحنا بن ماسويه . ووصف أبو بكر الرازي عوارض الحصبة والجذري ، وبين طريقة معالجتها . وعالج الأمراض بالإنجاء النفسي ، وأوصى به تلاميذه في كتابه الحاوي . وعرف أن أسباب المرض قد تكون نفسية أكثر منها جسمية . ولم يقصر عنه ابن سينا في هذا المجال ، فوصف العشق النفسي ، وغيره<sup>٢٧</sup> . وألف الفارابي رسالة بعنوان «فصل في شفاء العلل بالنغم»<sup>٢٨</sup> . وأثبت العقاد أن العرب حاموا حول مذهب فرويد FREUD (١٨٥٦ - ١٩٣٩) في الطب النفسي ،

٢٣. أبو جعفر بن أبي الأشعث (ت ٩٧٠) : طبيب . صاحب كتابي «تفسير جالينوس في اسطغقيات» و «المزاج المختلف» في شرح جالينوس أيضاً ، عدا كتابه «الحيوان» .  
 ٢٤. كارل هينرش بكر في كتاب بدوي : التراث اليوناني ، ص ١٦ .  
 ٢٥. لا يزال الطب يعمل بمداواة الشيء بمثله Homéopathie ، ومداواة الشيء بضده Allopathie . قال أبو نواس في الأول : «وداوتي بالتي كانت هي الداء» .  
 ٢٦. أسعد السكاف ومحمود مطرجي : تاريخ العلوم عند العرب ، ص ٨٧ - ٨٨ ؛ وجرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ، ٢/ ٢٠٠ - ٢٠٣ . وزيفريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٢٧٢ .  
 ٢٧. أسعد السكاف ومحمود مطرجي : تاريخ العلوم عند العرب ، ص ٨٩ .  
 ٢٨. صلاح الدين المنجد : لمحات عن تجاري الفكرية . محاضرات الندوة اللبنانية ، السنة السادسة عشرة ، النشرة ١٢ ، ١٩٦٢ ، ص ٣٣ .

وعلاقته بالمسائل الجنسية<sup>٢٩</sup>.

والطب العربي، الذي اندمج بالطب اليهودي، ارتكز أساساً على الطب اليوناني المترجم بالسريانية والآرامية والعربية، بحيث يمكننا القول إنه انتقل الى بيئة سامية. فعلى المعطيات اليونانية عمل الأطباء اليهود والنصارى والمسلمون. وضموا ما قدمه الشرق القديم، ومدرسة جنديسابور الفارسية، والهند. واختلطت حلقة الطب اليوناني، والفلسفة اليونانية، عموماً، بحلقة مؤلفات أرسطو. فالمصنفات الطبية، التي انتقلت من اليونان الى سورية، تُرجمت الى السريانية والآرامية والعربية، ثم نُقلت الى المراكز البعيدة في بغداد والقاهرة وقرطبة، حيث ترجمها يهود إسبانية الى اللاتينية، وهي الصيغة التي احتلت بها مراكز الغرب المسيحي: سالرنو Salerne (في جنوب إيطاليا)، منذ القرن التاسع، ثم مونبيلييه Montpellier (في فرنسا)، ولوفان Louvain (في بلجيكا)، الى أوائل القرن السابع عشر. وبين القرنين الثامن والحادي عشر، كانت بيزنطية متخلّفة ومتأخرة في الطب. وكانت الصلات أكثر وثوقاً وقدماً بين الشرق والغرب اللاتيني عن طريق البحر المتوسط الإسلامي، منها بالمبادلات المباشرة مع بيزنطية<sup>٣٠</sup>.

وزاد أثر العلوم الهندية، ومنها الطب، في الخلافة العباسية، ابتداءً من عام ٧٥٠ م، وكانت قبل هذا التاريخ معروفة في البلاط الساساني، وانتشرت الكتب الطبية، وكثرت مراكز المعالجة من مستشفيات<sup>٣١</sup> وصيدليات. وكثر الأطباء؛ فعلى عهد المقتدر (٩٠٨ - ٩٣٢)، دُعي الى الامتحان في بغداد حوالي تسعمئة طبيب، غير الأساتذة الذين تجاوزوا مستوى الامتحان<sup>٣٢</sup>. وكان بعض الأطباء يعطون دروساً خصوصية في مادة الطب، إلا أنه كانت تغلب على تعليمهم هذا الناحية العملية

٢٩. ع.م. العقاد: أثر العرب في الحضارة الأوربية، ص ٣٧.

٣٠. جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، ٢/٢٠٢؛ وفليب حّي: تاريخ العرب، ص ٦٦٣ - ٦٧٥.

٣١. استعملوا طريقة فذة لاختيار موقع المستشفيات، فكانوا يعلّقون اللحوم في مواضع مختلفة من المدينة في وقت واحد، فأبها أسرع اليه العفن اجتنبوا مكانه، واختاروا المكان الذي تتأخّر فيه عوارض الفساد (ع.م. العقاد: أثر العرب في الحضارة الأوربية. ص ٣٦).

٣٢. المرجع الأخير، ص ٣٣.

والإسعاف<sup>٣٣</sup>. وأنشأ أول مستشفى أو بيمارستان<sup>٣٤</sup> في الخلافة العباسية هرون الرشيد ببغداد في نهاية القرن الثامن. وأنشأ البيمارستان الثاني بدر مولى المعتضد، وقائد جيشه. ثم أخذت البيمارستانات تنتشر منذ مطلع القرن العاشر<sup>٣٥</sup>. وحظي الطب العربي، أو على الأصح الإسلامي، في القرون الوسيطة، بشهرة واسعة، وتشعب الكلام فيه تشعباً يحتاج الى دراسات طويلة مستقلة، إذ فرض الأطباء المسلمون على العالم المتمدن أبحاثهم الفذة، وأقر بفضلهم المؤرخون والعلماء، وقال عالم الماني يدعى أغريافون نيسهايم: «استقبلت كتب ابن سينا والرازي وابن رشد بالثقة نفسها التي استقبلت بها كتب أبقراط وجالينس، ونالت حظوة قصوى عند الناس، الى درجة أنه إذا ما حاول امرؤ ما ممارسة الطب دون الاستناد إليها، اتهم، على أهون سبيل، بالعمل على الإضرار بالمصلحة العامة»<sup>٣٦</sup>.

## ٢ - الصيدلة والكيمياء

كان العرب من أول الشعوب التي اهتمت بتحضير العقاقير والأدوية، وقد طافوا لأجلها البلاد البعيدة، فأحضروها من الهند والصين، ونقلوا الكتب الكثيرة لأجلها، واكتشفوا الكثير منها، وكانوا رواداً في علم النبات واستخلاص ما ينفع منه. وطوّروا علم تركيب الأدوية، وألّفوا فيه تأليف سُمّوها «الأقرباذين» من الفارسية، وفتحوا الصيدليات، فاقبَس طرقهم الصيادلة اللاحقون<sup>٣٧</sup>.

والكيمياء الحديثة مدينة للعرب بكثير من التجارب، والمستحضرات، والمركبات الكيميائية. فالعرب أول من حضّروا ماء الفضة (الحامض النتريك أو الماء الملكي)، وزيت الزاج (الحامض الكبريتي)، وماء الذهب (النيتروهيكلوريك)، واكتشفوا البوتاس، والكحول، وحجر جهنم (نترات الفضة)، والسلياني (كلوريد الزئبق)، والزرنيخ، والبورق Borax، والنطرون Natron، وملح النشادر أو النوشادر (كلوريد

٣٣. مايرهوف في كتاب بدوي: التراث اليوناني، ص ٩٣.

٣٤. بيمارستان لفظة فارسية تعني حرفياً: مكان أو موضع المريض.

٣٥. المرجع السابق، ص ٩١.

٣٦. زيفريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٢١٣.

٣٧. جرجي زيدان: تاريخ التمدن الاسلامي، ٢٠٣/٢.

الألمونيوم)، وغيرها من الاكتشافات. ولا يزال الكثير من أسرارها، حتى اليوم، يشهد على أصلها العربي<sup>٣٨</sup>.

وذكر ابن الأثير أن العرب استخدموا طلاء للخشب في معركة الزنج (٨٨٢ م) بمنع احتراقه. وإن لم يكن العرب أول من اكتشفوا البارود، فهم من أول من ركبوه. ومن كبار مؤلفيهم في الكيمياء جابر بن حيان<sup>٣٩</sup>، ويعقوب الكندي (حوالي ٨٠١-٨٦٧) في القرن التاسع الميلادي. ومن علمائهم في النبات ابن البيطار<sup>٤٠</sup> الذي نبغ في القرن الثالث عشر، فأدخله الملك الكامل الأيوبي (١٢١٨-١٢٣٨) في خدمته، واعتمد عليه في الأدوية، وجمع الأعشاب، ووصف النبات النافع. ثم تبنت أوروبا أبحاثه في نهضتها<sup>٤١</sup>. وترجمت كتب جابر بن حيان إلى اللاتينية في أوائل القرن الثاني عشر. وظلت عمدة بين الأوروبيين إلى أواخر القرن السابع عشر، إذ ترجم كتابه «الاستنم» إلى اللغة الفرنسية عام ١٦٧٢. وعن العرب أخذ الأوروبيون تقسم المواد الكيميائية إلى نباتية، وحيوانية، ومعدنية. وبقيت القلوبات معروفة في مصطلحات الكيمياء الحديثة باسمها العربي (Alcalin)<sup>٤٢</sup>.

وتوصلت الدراسات الكيميائية - المختبرية، إلى صناعة المستحضرات الكمالية، مثل زيت الورد، والنفيسج، والمنتور، ومثل الدهون والمراهم، ومستحضرات الزينة، والعلطور، والأشربة المنعملة على اختلافها. واتخذت تجارة العقاقير، ومستحضرات الزينة للنساء أهمية عظيمة. وكثر استعمال القنب<sup>٤٣</sup> والأفيون في العالم الإسلامي حرقاً وتدخيناً، وهما من النباتات المتومة المستعملة في ضروب السحر. وحلل سكر نبات خوزستان في جنديسابور، وأصبحت أهميته جذرية في الصيدلية الشرقية لتحضير العقاقير، وجعلها مستساغة. وكان النبيذ نفسه محسوباً في عداد الأدوية، وكانوا يشربونه معطراً بالأفاويه.

٣٨. المرجع نفسه، ٢/٢٠٤؛ وزيفريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٣٢٦.

٣٩. جابر بن حيان: الحجة في الكيمياء (٧٣٧-٨١٥).

٤٠. عبدالله بن أحمد بن البيطار (ت ١٢٤٨). وُلد في مالقة وتوفي في دمشق، بعد أن جاب شالي إفريقية لدراسة النبات. من مؤلفاته: «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» و«المغي في الأدوية المفردة».

٤١. زيدان: تاريخ التدن الإسلامي، ٢/٢٠٥.

٤٢. ع.م. العقاد: أثر العرب في الحضارة الأوربية، ص ٣٩.

٤٣. يُستخرج من القنب المخدر المعروف بالحشيش.

وحلّ السكر محلّ العسل في تركيب المعجون الطبّي المسمّى المعجون العسلي الذي تدخل فيه أخلاط من المساحيق والمستحضرات العلاجية.

ومن العقاقير البعيدة المنشأ ما دارت حوله الخرافات شأن «التباشير» الذي يفرزه الخيزران النابت في الصين، وعلى شاطئ المالابار<sup>٤٤</sup>، بشكل صمغ مائل يحولونه الى رماد. وظلّ يُستعمل تريباقاً حتى القرن السابع عشر، وشكّل صناعة رائجة بالقرون الوسطى، في الاسكندرية، وبيزا، والبندقية، وغيرها. واحتلت تجارة العقاقير أهمية هائلة، وأسهمت في نموّ التبادل البعيد المدى، وفي تغيير العادات. ووصل أفيون ايران، في ذلك العهد، الى آسية الوسطى، والشرق الأقصى<sup>٤٥</sup>.

وعرف العرب الكيمياء بمعناها التحويلية: الخيمياء Alchimie<sup>٤٦</sup>. وفكّر بعضهم باكتشاف الحجر الفلسفيّ الذي يحول المعادن الى ذهب، متوسّلاً الى ذلك بعلم الصنعة القديم الذي أخذه العرب عن الشرقيين القدماء والاسكندرانيين خصوصاً<sup>٤٧</sup>. وسار فيهم المثل: «من طلب المال بالكيمياء افتقر». ومعنى ذلك أنّ من يريد أن يغتنى باكتشاف الحجر الفلسفيّ، أضاع ماله ووقته وراء سراب خداع. وورد ذكره في الشعر. قال ابن الرومي في وصف الزلاية:

كأنما زيتُهُ المقلّيُّ حين بدا كالكيمياء التي قالوا ولم تُصَبْ  
يُلقى العجينَ لُجِيناً من أنامله فيستحيلُ شبايكا من الذهب<sup>٤٨</sup>  
ومن الطبيعيّ أن تتساءل، وقد أصبح النفط بعد الحرب العالمية الثانية أعظم ثروة للعرب: هل عرف العباسيون الذهب الأسود؟ لقد ورد أنّ بعض الأمراء العباسيين شاهد في ولايته نفطاً يتدفّق من بئر طبيعيّة، فشبهه ساخراً بالمسك<sup>٤٩</sup>. واستعمال العباسيين للنفط، في حروبهم، شائع معروف. قال الخريمي في أثناء الفتنة بين الأمين والمأمون، واصفاً بغداد:

٤٤. جزء من الساحل الجنوبي الغربي في الهند.

٤٥. زيفريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٣٢٦ وما بعدها.

٤٦. أخذ الغرب الاسم عن العرب.

٤٧. عمر قروخ: تاريخ العلوم عند العرب، ص ٧٩ - ٨٢.

٤٨. لقد أصبح تغيير المعادن الى ذهب ممكناً اليوم، نظرياً، بتفجير نواة الأجسام، وتعديل عدد البروتونات، ولكن هذه العملية باهظة الثمن ومعقّدة. والأورانيوم المشعّ يتحوّل من معدن الى معدن تلقائياً.

٤٩. Jacques BERQUE, *Les Arabes d'hier à demain*, Ed. du Seuil, Paris, p. 104.

والنَّفْطَ والنَّارَ في طرائقهما وهائياً للدخان عامرهما<sup>٥٠</sup>. وسار علم الكيمياء مع الطب، جنباً الى جنب، يرفده بمستحضراته وعقاقيره، ويتفاعل وإياه في طريق التقدّم والانتشار.

### ٣ - الفيزياء

لم يبقَ من مؤلفات العرب في الفيزياء شيء كثير. وعرفنا من اكتشافاتهم ما توصّل إليه الحسن بن الهيثم (حوالي ٩٦٥-١٠٣٩) في الرؤية المستقيمة، والمنعكسة، والمنعطفة، وفي المرايا المحرقة<sup>٥١</sup>. وأخذ عن ابن الهيثم في البصريّات علماء القرون الوسطى، الغربيّون كروجر باكون<sup>٥٢</sup>، وكوبرنيكوس<sup>٥٣</sup>، وغاليليو<sup>٥٤</sup>، وغيرهم. وفي دائرة المعارف البريطانية أن كتابات ابن الهيثم في الضوء، أوحّت اختراع النظارات. وقد نُقل مؤلّف أبي جعفر الخراساني الخازن (ت بين ٩٦١ و٩٧١) «كتاب الآلات العجيبة الرصدية» الى اللغتين اللاتينية والابطالية، وأفاد منه كيبلر<sup>٥٥</sup> في تأليفه حول البصريّات، وكان أساساً في تطوّر علم البصريّات الحديث.

ويُنسب الى العرب اختراع رقاص الساعة، وقيل إنّ عليّاً بن يونس المصريّ (ت ١٠٠٩) اخترعه في القرن التاسع للميلاد، ثم توالى بعده من ضبط حركاته وانتظام ذبذباته<sup>٥٦</sup>. ويُقال إنّ هرون الرشيد أرسل الى شارلمان ساعة مائة تُقرع كل ساعة بسقوط كراتها النحاسية على قرصها المعدنيّ. ولا شكّ في أنّ العرب عرفوا الساعات الرملية

تحت إلهام من الله تعالى

٥٠. الطبري، ٤٥٢/٨. وإنّ ما شاهده ابن جبير قرب الموصّل من نار تشتعل في بعض العيون على شاطئ دجلة، وما وُصف له من ذلك بين الكوفة والبصرة، يوحي بأنّه لم يكن سوى نفط (رحلة ابن جبير، ص ١٦٧).

٥١. راجع ابن الهيثم منشئ علم الضوء الحديث في سمر شيخاني: أعلام الحضارة، ٢٠٠/٣.

٥٢. Roger BACON (١٢١٤ - ١٢٩٤). راهب فرنسيسكاني إنكليزي مشهور بصفته عالماً في الفيزياء وفلسوفاً.

٥٣. Nicolas COPERNIC (١٤٧٣ - ١٥٤٥): عالم بولندي مشهور باكتشاف النظام الكوكبيّ الموقول حالياً.

٥٤. GALILÉE (١٥٦٤ - ١٦٤٢): رياضي وفيزيائي وفلكي إيطالي. من اكتشافاته قوانين الجاذبية.

٥٥. Jean KÉPLER (١٥٧١ - ١٦٣٠): فلكي ألمانيّ مشهور، صاحب القوانين الفلكية الموسومة باسمه.

٥٦. العقّاد: أثر العرب في الحضارة الأوربية، ص ٤٥؛ وسير شيخاني: أعلام الحضارة، ١٧٠/٣.

والشمسية وغيرها<sup>٥٧</sup>. وعرفوا أنه إذا بولغ بمعالجة عوارض الأجسام، فربما انقلبت هذه العوارض الى نقيضها، وهذا يقرب من النسبية للنظر في سرعة دوران العجلات التي قد تبدو، اذا زادت سرعتها، متوقفة. وقالوا بأن البرودة في أقصى درجاتها تتلاقى مع الحرارة، وورد ذلك في قول أبي نواس:

قُلْ لزهيرٍ إذا اتكأ وشدا      أَقْلِلْ وَأَكْثِرْ فَأَنْتَ مِهْذَارُ  
سَخُنْتَ مِنْ شِدَّةِ البرودةِ حتى      صِرْتَ عِنْدِي كَأَنَّكَ النَّارُ  
لا يَعْجِبُ السامعون من صِفَتِي      كذلك الثلجُ باردٌ حارُ

وكان للبروني في القرن الحادي عشر، ولأبي منصور عبد الرحمن الخازن أو الخازني في القرن الثاني عشر، فضل كبير في اكتشاف الثقل النوعي<sup>٥٨</sup> للمعادن. وألف أبناء موسى بن شاكر كتاب الحيل الذي كان أصلاً من أصول «الميكانيكا» قبل تطورها الأخير في عصر الآلات<sup>٥٩</sup>.

وعرف العرب علم الأصوات، وميّزوا بين جهازة الصوت وخفّته، وبين شدّته ورخاوته، وغير ذلك من خصائصه. ولم يفهم أنّ الصوت ينتقل بواسطة الهواء على شكل موجات متلاحقة، وفسّروا الصدى على حقيقته<sup>٦٠</sup>.

ويجدر التساؤل، أخيراً، عن السبب الذي جعل العرب يتجنّبون، الى حد كبير، الخوض في علم الفيزياء، ولا يعطونه الأهمية التي قابلوا بها سائر العلوم؟ ترتكز الفيزياء<sup>٦١</sup> على الطبيعة الموضوعية، وقد حملت طويلاً عند القدماء اسم فلسفة الطبيعة<sup>٦٢</sup>. وموضوعية الفيزياء المادية نفّرت المسلمين الذين لم يجدوا فيها مكاناً للإله،

٥٧. زيفريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص ١٤١-١٤٢.

٥٨. (Masse volumique) الذي يساوي وزن الجسم في الهواء على مقدار حجمه من الماء.

٥٩. العقاد: أثر العرب في الحضارة الأوربية، ص ٤٠.

٦٠. أسعد السكاف ومحمود مطرجي: تاريخ العلوم عند العرب، ص ١٥٤-١٥٥.

٦١. لفظة فيزياء مقتبسة عن اليونانية physikos أو phusikê أو physis التي تعني الطبيعة، أو دراسة الطبيعة.

٦٢. كان معناها أكثر شمولاً بحيث تشمل خصائص الأجسام، وعلاقاتها المتبادلة، ومنها تفرّعت الرياضيات والعلوم الطبيعية والفيزيائية. وليست الكيمياء غريبة عنها، وإنّا اختصّت بالأجسام الفيزيائية القابلة للتحوّل (راجع Gr. lar. encycl., 1963, 8/454; et Encycl. Brit., 1965, 17/869).



وقدرته ، وروحه المتحركة في الوجود ، بل لمسوا في المادة غير المتحوّلة آراء فلاسفة اليونان الذين قالوا بخلود المادة . وهو ما لا يمكن أن يقبله المؤمن المثبّت بتقاليده وأعرافه .

#### ٤ - الجغرافية ④

درس العرب الجغرافية وألّفوا فيها عن طريق السياحة ، والتجارة ، والاطّلاع على ما تُرجم لبطليموس<sup>٦٣</sup> في شأنها<sup>٦٤</sup> . وكان من غاياتها الأولى إنحاف الملوك والسلاطين بالمشاهد الشائقة المدهشة . ومنذ القرن التاسع ، اشتهرت رحلة التاجر سليمان الى الصين التي أبحر إليها من سيراف على الخليج الفارسي ، واجتاز المحيط الهندي الى شواطئ الصين ، وألّف كتاباً عن رحلته عام ٨٥١ م . وصف فيه الصين وطبيعتها . ونُقل كتابه هذا الى اللغة الفرنسية في أوائل القرن الحالي .

ومن أوّل الجغرافيين عند العرب ابن خرداذبة (ت حوالي ٩١٢ م) ، الذي كان صاحب البريد على عهد الخليفة المعتمد ، واستقى معلوماته من وثائق الدولة ليؤلّف كتابه المشهور المسالك والممالك<sup>٦٥</sup> الذي أقرّ له فيه المسعودي بالتفوّق<sup>٦٦</sup> . أمّا المسعودي نفسه ، فقد طوّف في مختلف أنحاء الخلافة العبّاسية ، وما جاورها من الممالك في القرن العاشر الميلادي (ت ٩٥٦) ، وأثبت مشاهداته ، ووصف البلدان والجبال والبحار في كتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» الذي أصبح مرجعاً لمن جاء بعده .

وبعد المسعودي ألّف ابن حوقل (ت ٩٧٧ م) كتابه «المسالك والممالك» الذي كان حصيلة تجواله في الشرق والغرب ، وما أخذه من مؤلّفات السابقين . واشتمل على أشكال الأرض ، والأقاليم ، والمدن ، والأصقاع وارتفاعها ، والأنهار ، والبحار ، والمسافات ،

٦٣. كلوديوس بطليموس (توفي بعد ١٦١ ميلادية) : فلكيّ يونانيّ مصريّ . قال إن الأرض ثابتة ، تشكّل مركز الكون ووسطه ، وتدور حولها باقي الأجرام السماوية بشكل منتظم .

٦٤. كارل هينرش بكر في كتاب بدويّ : التراث اليوناني ، ص ١٦ ، حيث جاء : « فكانت صورة الكون هي نفس الصورة التي رسمها بطليموس له » .

٦٥. فيليب حتيّ : تاريخ العرب ، ص ٣٩١ .

٦٦. مروج الذهب ، ٧٠/٢ - ٧١ . وتجدر الإشارة الى الرسالة التي كتبها للمقتدر عام ٩٢١ أحمد بن عباس بن رشيد بن فضالان الذي أوفده الخليفة في سفارة الى أمراء بلغار الفولغا . وهي تُعتبر أوّل أثر جغرافيّ عربيّ عن الروس وبلادهم (م.ع.م. ، ص ٢٤) .

وغير ذلك من المعلومات الجغرافية الجديدة. وتجدر الإشارة الى مؤلف شمس الدين المقدسي (ت حوالى ٩٩٠ م) «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» الذي ألفه بعد أن بلغ الأربعين، وبعد أن كثرت تجاربه واتسع تجواله. قال آدم متر إن كتبه وكتب ابن حوقل تشكّل الذروة التي بلغها العرب في وصف البلدان<sup>٦٧</sup>. ورحل البيروني (٩٧٣ - ١٠٤٨) الى السند والهند حوالى عام ١٠٠٠ م. ونشر ما شاهده، محاولاً تصحيح الخريطة المعروفة عن تلك البلاد<sup>٦٨</sup>.

وصحّح العرب في مؤلفاتهم الجغرافية ما وصلهم من اليونان، وعلى الأخص من بطليموس، فعدّلوا ما عيّنه من أسماء المدن والأمكنة والمسافات. ومن أهم تأليفهم كتاب «صور الأقاليم» للاصطخري (ت ٩٥٧) الذي بيّن فيه، في القرن العاشر للميلاد، حدود الممالك، وصور أقاليم الأرض، ومدنها، وبحارها، ومسافاتها. وأكد إخوان الصفاء كروية الأرض، وشبهوها بجيوان حي عابد لله تعالى، وفسّروا فلسفة خلقها باستيعابها الانسان، وتلييتها حاجة حواسه<sup>٦٩</sup>. ولم ينفرد إخوان الصفاء بهذا الاكتشاف، وأنما شاركهم فيه أغلب الجغرافيين المسلمين. وقبل اكتشاف القارة الأميركية وغيرها، قال حمزة الأصفهاني (ت بعد ٩٦١ م): «الأرض مستديرة الشكل، المسكون منها دون الربع، وهذا الربع ينقسم الى قسمين برّاً وبحراً»<sup>٧٠</sup>.

ومن أشهر الجغرافيين العرب أبو عبدالله الشريف الإدريسي (١١٠٠ - ١١٦٥) الذي نقل كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» الى اللغة اللاتينية، وكان الكتاب المعتمد في أوروبا خلال القرون الوسطى. وقد رسم هذا العالم ما شاهده في رحلاته الواسعة على كرة من الفضة، بناءً على طلب ملك النورمانين روجه الثاني (١٠٩٣ - ١١٥٤) الذي دعاه الى صقلية<sup>٧١</sup>. ورسم الإدريسي خرائط كثيرة، منها

٦٧. آدم متر: الحضارة الإسلامية، ١٠/٢ - ١١.

٦٨. أسامة عانوتي: كنوز من الفكر العربي، «البيروني أعظم عقلية عرفها التاريخ»، ص ١٨٤ - ١٩٢، وميمر شيخاني: أعلام الحضارة، ٢١٢/٣.

٦٩. رسائل إخوان الصفاء: ٢٣/١.

٧٠. ياقوت: معجم البلدان، دار صادر - بيروت، ١٩٥٥، ٢٥/١ - ٢٦.

٧١. للاطلاع على آثار العرب في صقلية راجع كتاب الدكتور مارتينو ماريو مورينو «المسلمون في صقلية»، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٥٧. وفي آخر الكتاب عشرون رسماً تعطي فكرة واضحة عن آثارهم العمرانية.

خريطته التي تحتوي على منابع النيل<sup>٧٢</sup>، والبحيرات الاستوائية، والتي بقيت معتمدة حتى تطوّر العلوم الجغرافية والآلات الحديثة في عصرنا الحاضر<sup>٧٣</sup>.

ويمكننا تكوين فكرة أوضح عن نظرة الجغرافيين القدامى الى الأرض وما يحيط بها من خلال نصّ معبرٍ من كتاب المسالك والممالك لابن خردادبة<sup>٧٤</sup>. قال: «صفة الأرض أنها مدوّرة كتدوير الكرة، موضوعة في جوف الفلك كالمُحّة في جوف البيضة. والنسيم حول الأرض، وهو جاذب لها من جميع جوانبها الى الفلك. وبنية الخلق على الأرض أنّ النسيم جاذب لما في أبدانهم من الخفة، والأرض جاذبة لما في أبدانهم من الثقل، لأن الأرض بمنزلة الحجر الذي يجذب الحديد. والأرض مقسومة بنصفين، بينهما خطّ الاستواء، وهو من المشرق الى المغرب، وهذا طول الأرض، وهو أكبر خطّ في كرة الأرض، كما أنّ منطقة البروج أكبر خطّ في الفلك. وعرض الأرض من القطب الجنوبي الذي يدور حوله سهيل الى القطب الشمالي الذي يدور حوله بنات نعش. فاستدارة الأرض في موضع خطّ الاستواء ثلاثمئة وستون درجة، والدرجة خمسة وعشرون فرسخاً، والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع، والذراع أربع وعشرون إصبغاً، والإصبع ست حبات شعير مصفوفة بطون بعضها الى بعض؛ يكون ذلك تسعة آلاف فرسخ. وبين خطّ الاستواء، وبين كل واحد من القطبين، تسعون درجة أصطرلابية، واستدارتها عرضاً مثل ذلك، إلا أنّ العارة في الأرض، بعد خطّ الاستواء، أربع وعشرون درجة، ثم الباقي قد غمره البحر الكبير. فنحن على الربع الشمالي من الأرض، والربع الجنوبي خراب لشدة الحرّ فيه، والنصف الذي تحتنا لا ساكن فيه. وكلّ ربع من

---

وتجدد مراجعة رحلة ابن جبير (ص ٢٢٤ - ٢٣٧)، حيث نجد وصفاً مسهباً لطبيعة صقلية، ومدنها، وآثارها، وأحوال المسلمين فيها.

٧٢. لم يسبق الادريسي أحد الى بيان حقيقة منابع النيل العليا في بحيرات جنوبي خط الاستواء (خريطة محفوظة في متحف سان مارتان الفرنسي) (العقاد: أثر العرب في الحضارة الأوربية، ص ٤٦)؛ وقد جاء في «مسالك الممالك» للاصطخري، ص ٥٠: «وأما النيل فإنّ ابتداء مائه لا يُعلم، وذلك أنّه يخرج من مفازة من وراء أرض الزنج».

٧٣. يمكن مشاهدة هذه الخريطة في كتاب لوبون «حضارة العرب»، ص ٤٩٨.

٧٤. من أبناء القرن الثالث الهجري. باشر تأليف كتابه المسالك والممالك عام ٨٤٦ وأنهاء عام ٨٨٥ (راجع عنه دائرة معارف ف.أ.ب.، ٤٨٩/٢).

الشمالي والجنوبي سبعة أقاليم. وذكر بطليموس في كتابه أن مدن الأرض ، على عهده ، كانت أربعة آلاف ومائتي مدينة»<sup>٧٥</sup>.

فإذا أجلنا نظرةً ثاقبةً في هذا النص ، وجدنا فيه الكثير ممّا يوافق معلوماتنا الحاضرة ، وإنْ تضمّن أوهاماً وأخطاءً ناتجةً عن بطليموس نفسه ، وعن الحقائق الجديدة اللاحقة . فليس النسيم هو الذي يجذب الأرض ، مثلاً ، ولكن الذي يجذبها القمر والشمس وبعض الكواكب . والقياسات غير دقيقة . ووسط الأرض يجذب الأجسام الصلبة بسبب سرعة دورانها<sup>٧٦</sup> . والاستواء يؤخذ من الشرق الى الغرب وبالعكس ، ومحيط الدائرة الاستوائية محدّد اليوم بـ ٤٠,٠٧٦ كلم . والأقاليم السبعة غير علميّة . وما كانوا يعرفون أميركة ، وأستراليا ، وقسمًا كبيرًا من الشرق الأقصى .

وتحدّث ، بعد ابن خرداذبة ، بمثل ما تحدّث به ، حول استدارة الفلك ، واستدارة الكرة الأرضيّة في جوفه ، ابن رسته (ت ٩٠٣) ، والمسعودي (ت ٩٥٦) ، وغيرهما<sup>٧٧</sup> . وحدّد ياقوت في معجمه غربي الصين بأجوج ومأجوج<sup>٧٨</sup> . وقد زعم الأقدمون أنْ يأجوج ومأجوج سدّ حديديّ عظيم بناه الاسكندر لحماية شعب بهذا الاسم ، وقيل إنّ هذا السد هو حائط الصين الأكبر . ووردا في أسفار التوراة رمزًا لشخصين يمثّلان قوى الشر التي تحارب أبناء الله<sup>٧٩</sup> . وجاء ذكر قوم يأجوج ومأجوج الفاسدين مرتين في القرآن الكريم<sup>٨٠</sup> . كما أنّ ليأجوج ومأجوج ذكرًا في التلمود : «إنّ المسيح سيظهر بعد ظهور اليأجوج والمأجوج وحرب التّنين»<sup>٨١</sup> .

وبالنتيجة ، فإنّ الجغرافيين المسلمين أخذوا عن بطليموس صاحب «المجسطي» ،

٧٥ . ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٤ - ٥ .

٧٦ . أورد العقاد لابن سينا قوله : «ينبغي حينئذ ضرورة أن تكون جميع الأجسام الثقال ، حيوانًا كانت أو غير حيوان ، تميل بطبيعتها ، وتتجذب من جميع الجوانب كلّها الى وسط العالم» . (أثر العرب في الحضارة الأوربية ، ص ٤٩) .

٧٧ . العقاد : المرجع الأخير ، ص ٤٨ - ٤٩ .

٧٨ . ياقوت : معجم البلدان ، ١٩٥٥ ، ٢٧/١ .

٧٩ . المنجد في الأعلام ، ١٩٧٥ ، ص ٧٤٦ .

٨٠ . سورة الكهف ، الآية ٩٤ : «إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض» ؛ وسورة الأنبياء ، الآية ٩٦ : «حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون» .

٨١ . ظفر الإسلام خان : التلمود ، ص ٥٩ .

والذي يعتبر معلّم الجغرافية الأول في العصور القديمة. نشأ بطليموس في الاسكندرية ، واقتبس كثيراً عن المصريين والكنعانيين. ولم تطلّع أوروبة على جغرافية بطليموس قبل انتقالها إليها من طريق الثقافة العربية ، مزيدة ، منقّحة ، بما أضافه إليها المسلمون ، ولا سيّما البيروني في القرن الحادي عشر<sup>٨٢</sup>.

## ٥ - علم الفلك

سمّى العرب هذا العلم أيضاً «علم الهيئة» ، وقسموه الى قسمين : علم النجوم وعلم التنجيم. وعلم النجوم هو العلم الحقيقي الذي يدرس الكواكب من حيث مواضعها ، وحركاتها وأحكامها. وعلم التنجيم يدرس تأثير النجوم في حياة الناس بحسب شكلها وظهورها ، فيتعلّق بها الحرب والسلم ، والسعد والنحس ، والولادة والوفاة ، والمطر والجفاف ، وغير ذلك .

ولم يكن علم الفلك جديداً على العرب ، وإنما كان بدائياً في الجاهلية ، يستعملونه لضبط تنقلاتهم ، وتنظيم حياتهم المعيشية . وتطوّر في الاسلام لما ارتكز عليه من شؤون دينية في السنة القمرية ، ولاهتمام بعض الخلفاء به كخالد بن يزيد (ت ٧٠٤ م) . وازدهر علم الفلك وتوسّع في العصر العباسي ، ابتداءً من أبي جعفر المنصور الذي خصّه باهتمام شديد ، وترجمت له فيه الكتب المختلفة<sup>٨٣</sup>.

ولم يتوقّف علماء العرب طويلاً عند علم التنجيم ، وإنما بقي عندهم لإرضاء الخلفاء وعامة الشعب ، وإرواء أوهامهم . وربّما كانوا من أوّل من عمل على إبطال هذه الصناعة او الحدّ من التوغّل فيها . وساروا بعيداً في علم الفلك الموضوعي ، فجمعوا فيه ما ترجموه عن سائر الشعوب ، وما وصلهم من الجاهلية . ومن أشهر علمائهم في عهد المنصور محمد بن ابراهيم الفزارى ، وفي أيام المأمون محمد بن موسى الخوارزمي (ت ٨٥٠)

٨٢. العقاد : أثر العرب في الحضارة الأوربية ، ص ٤٤ - ٤٥ ؛ وزيفريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .

٨٣. المرجع الأخير ، ص ١٣٠ ؛ وتاريخ التمدّن الاسلامي ، ص ١٥١ - ١٥٢ ؛ وفيليب حتّي : تاريخ العرب ، ص ٤٤٥ .

الذي عمل في بيت الحكمة<sup>٨٤</sup>، واختط لنفسه زيجاً<sup>٨٥</sup> خاصاً يجمع بين أزياج الهند والفرس والروم<sup>٨٦</sup>. واشتهر في عهد المأمون بنو شاكر، أو بنو موسى بن شاكر، وهم محمد وأحمد والحسن. ولكثرة اشتغالهم بالنجوم عُرف أولادهم، من بعدهم، ببني المنجم. وقد قاسوا للمأمون درجة خط نصف النهار، مستعينين بما عرفوه من محيط الأرض. وألفوا كتباً كثيرة في هذا العلم<sup>٨٧</sup>. ونبغ آنذاك محمد بن جابر الحراني المعروف بالبتاني (٨٤٧ - ٩٢٩) الذي اكتشف زيجاً أثر عنه، وهو الزيج الصابي نسبة إلى الصابئة الحرانية، ورصد الكواكب وألف فيها<sup>٨٨</sup>. ولقد أحكم العرب الأزياج، وضبطوا التقويم، وحققوا الاعتدال الشمسي، واكتشفوا الكواكب الجديدة التي حافظت على أسماؤها العربية، مثل سعد السعود Sadalsud، والذنب Deneb، وزبانتي العقرب Zuben Hakrabi، وغيرها<sup>٨٩</sup>.

وأنشأ علماء الفلك مراصد لمشاهدة النجوم، وضبط أبعادها، ومراقبة سيرها، خصوصاً في عهدي الرشيد والمأمون. فكان واحد منها بالشَّامسيَّة في بغداد، والثاني على جبل قاسيون المشرف على غوطة دمشق. ثم اتسعت المراصد من بعدها في مختلف أنحاء الخلافة، فأنشأ الحاكم بأمر الله الفاطمي (٩٨٥ - ١٠٢١) مرصداً على جبل المقطم في مصر، عمل فيه بجدارة أبو الحسن علي بن يونس (ت ١٠٠٩)، كما نبغ نصير الدين الطوسي (١٢٠١ - ١٢٧٤) في مراغة من بلاد تركستان على عهد هولاكو التتري (حوالي ١٢١٧ - ١٢٦٥)<sup>٩٠</sup>.

٨٤. قال أندريه ميكال إن بيت الحكمة اشتهر خصوصاً بأعمال المنجمين (André MIQUEL, *L'Islam et sa civilisation*, p. 158).

٨٥. الزيج كلمة فارسية تعني الجدول والتقويم الذي يُستدل به على حركة النجوم السيّارة.

٨٦. ك. بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٢٠٣ - ٢٠٤؛ وزيفريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٤٥٠.

٨٧. راجع عن موسى بن شاكر وبنيه الثلاثة المتقدمين في العلوم المرجع الأخير، ص ١١٣ وما بعدها، وص ١٧٧ - ١٧٨؛ وسيمر شيخاني: أعلام الحضارة، ٤٠/٣.

٨٨. أسامه عانوتي: كنوز من الفكر العربي، ص ٨٢ (البتاني بطليموس العرب). وسيمر شيخاني: أعلام الحضارة، ١٠١/٣ حيث قال إنه «أحد العشرين فلكياً المشهورين في العالم كله».

٨٩. العقّاد: أثر العرب في الحضارة الاوربيّة، ص ٥٦ - ٥٧.

٩٠. زيفريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص ١٣١ - ١٣٢ و١٩٧؛ وأسامه عانوتي: كنوز من

واخترع المسلمون كثيراً من آلات الرصد كالأسطرلاب<sup>٩١</sup>، والربع الفلكي<sup>٩٢</sup>. وطور البدع الأسطرلابي مواصفات الكرة الأرضية، واخترع المساطر والبراكيز وغيرها. واستنبط البيروني تسطّيح الكرة، وفصّل نظريته فيها بكتابه «الآثار الباقية»، وكتب مقالة بعنوان: «تصحيح الطول والعرض لمساكن المعمور من الأرض». وانتقل إلى الهند يعلم أهلها علوم بغداد. قال عنه كارل ساخاو<sup>٩٣</sup> أستاذ اللغات السامية في جامعة فيينا، إنه أعظم العقول التي ظهرت في العالم<sup>٩٤</sup>.

وكتب إخوان الصفاء رسالة في النجوم، وفي معرفة تركيب الأفلاك، وصفة البروج، وسير الكواكب، ومعرفة تأثيرها في هذا العالم، وكيفية انفعال الأمّهات والمواليد منها بالنشوء والبلى والكون والفساد. والغرض منها هو تشويق النفوس الصافية للصعود إلى عالم الأفلاك، وأطباق السموات، منازل الروحانيين، والملائكة المقربين، والملا الأعلى، والجواهر العلى، والوصول إلى القدس والروح الأمين (العقل الفعّال)<sup>٩٥</sup>.

وإن وجدنا اليوم، في مثل هذه الأقوال، وهماً، وبعداً عن الروح العلمية الصافية، يبقى للمسلمين فلكيون، في القرون الوسطى، ذاعت شهرتهم في بقاع الأرض، حتى أرسل الفرنجة يستعينون بهم في حلّ بعض المسائل الفلكية، ويرسلون الوفود الخاصة لأجل هذه الغاية<sup>٩٦</sup>.

الفكر العربي، ص ١٣٤؛ والموسوعة العربية الميسرة، ص ٣٠؛ وسمر شيخاني: أعلام الحضارة، ١٧٠/٣، ٣٢٦.

٩١. آلة يقيس بها الفلكيون ارتفاع الكواكب، واللفظة معربة عن اليونانية *astrolavos*، أي (مرآة النجوم) ويُقال إن إبراهيم بن حبيب بن سليمان أبو اسحق الفزاري هو أول مسلم صنع الأسطرلابات المسطحة، كما كتب عدة مصنفات تتعلق بآلات القياس والحساب، وباستعمال الأسطرلاب والكرة وقياس وسط النهار (الزوال) (Roger ARNALDEZ, in *Arabica*, 1962, p. 357).

٩٢. تجد رسم الربع الفلكي في كتاب زيفريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٥٦٦.

٩٣. كارل إدورد ساخاو Karl Edward SACHAU (١٨٤٥ - ١٩٣٠): مستشرق ألماني (ترجمته في

الأعلام للزركلي، ط ٢، ١٩٥٤، ٦/٦٤).

٩٤. العقاد: أثر العرب في الحضارة الأوربية، ص ٥٧.

٩٥. رسائل إخوان الصفاء، ١/٢٢.

٩٦. زيفريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص ١٣٦ وما بعدها.

## ٦ - الحساب والرياضيات

إنَّ أهمَّ ما توصَّل إليه العرب في علم الحساب هو نقلهم الحساب الهندي والأرقام الهندية إلى العالم كله. وأوَّل من فعل ذلك أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي<sup>٩٧</sup> الذي اشتقَّ الافرنج من اسمه لفظ اللوغاريتم logarithme الذي يسهِّل الحسابات الصعبة. وقسم العرب الحساب العملي إلى قسمين: «الغباري» الذي يحتاج استعماله إلى أدوات كالقلم والورق؛ و«الهوائي»، أي الذهني، الذي لا يحتاج إلى أدوات.

وكان للعرب فضل كبير على علم الجبر الذي نقلوا فيه معلومات بدائية من اليونان والهنود وغيرهم، وطوّروها، وزادوا عليها بحيث أصبح هذا العلم مقروناً بهم، وهم أوَّل من أطلق عليه لفظة جبر. ومن أشهر كتبهم فيه كتاب «الجبر والمقابلة» للخوارزمي. ولا شكَّ في أنَّ الفرنجة أخذوا الجبر عن العرب. ونجح العرب في تطبيق الجبر على الهندسة<sup>٩٨</sup>، والهندسة على المنطق، أي استخلاص نتيجة من معطيات حسية معينة عن طريق المنطق. وقد عمل في ذلك ابن الهيثم الذي أدخل في الجبر والحساب أساليب وأفكاراً جديدة. وابتكر الحسن بن شاطر مسائل هندسية لم يُسبق إليها كقسمة الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية، واستعمل الأعداد ذات الحجم الكبير. وأدخل العرب الحساب الفلكي والمماس tangente على المنحنيات. وأقاموا الجيوب مقام الأوتار، وتعمّقوا في دراسة المخروطات. واشتغلوا بالمربعات السحرية<sup>٩٩</sup>. وكان من كبار رياضيتهم نصير

٩٧. توفي عام ٨٥٠، وقيل فيه إنه صاحب أعظم عقل علمي في عصره (سمير شيخاني: أعلام الحضارة، ٤٩/٣).

٩٨. لفظة هندسة من الفارسية «أندازه» التي تعني القياس.

٩٩. من المربعات السحرية مثلاً:

|   |   |   |
|---|---|---|
| ٢ | ٧ | ٦ |
| ٩ | ٥ | ١ |
| ٤ | ٣ | ٨ |

فكيفاً عدّ كان المجموع ١٥



الدين الطوسي (١٢٠١ - ١٢٧٣) <sup>١٠٠</sup>. وعدّ لالاند <sup>١٠١</sup> البتاني واحدًا من عشرين رياضياً ظهرُوا في العالمين القديم والحديث <sup>١٠٢</sup>.

واحتوت رسائل إخوان الصفاء كثيراً من سحر الحروف، وقد جعلوا أول أقسام رسائلهم القسم الرياضي. وغرض العدد عندهم هو «رياضة أنفس المتعلمين للفلسفة، المؤثرين للحكمة، الناظرين في حقائق الأشياء، الباحثين عن علل الموجودات بأسرها. وصورة العدد في النفوس مطابقة لصور الموجودات في الهيولى» <sup>١٠٣</sup>. وعلم العدد جذر العلوم، وعنصر الحكمة، ومبدأ المعارف <sup>١٠٤</sup>.

وفي كلامهم هذا، بل في تقديرهم العظيم للعدد، إدراك مبكر للنظرية الحديثة التي ترى العدد والشكل الهندسي في كل الكائنات التي يمكن للإنسان رؤيتها، أو تصوورها، واحتواؤها، واستخدامها في تأمين حاجاته، وبناء حضارته <sup>١٠٥</sup>.

## ٧ - الفنون الجميلة

إذا كانت الفنون العربية قد تأثرت تأثراً كبيراً بأساليب الحضارتين البيزنطية والفارسية، فلا يحق لنا أن نبالغ مع جاك بيرين وغيره، فنقول إنها حصيلة النمطين البيزنطي والفارسي <sup>١٠٦</sup>، إذ استطاع الطابع العربي الإسلامي أن يصهر مختلف الأنماط، وأن يخرج منها نمطاً عربياً إسلامياً متميزاً، ذا وجه حضاري فاعل. لم يقصّر العبّاسيون في الفنون التشكيلية Arts plastiques إلا فيما نهاهم عنه الدين

١٠٠. غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص ٥٤٩، وفيليب حنّي: تاريخ العرب، ص ٤٥٠، وزيفريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص ١٥٦ - ١٦٣، وسهير شيخاني: أعلام الحضارة، ٣/٣٢٦. ١٠١. LEFRANÇOIS DE LALANDE (1732-1807): فلكي فرنسي مشهور.

١٠٢. العقاد: أثر العرب في الحضارة الأوربية، ص ٥٨. وبعد كل ذلك لن أذهب مذهب من قال إن الروح الإسلامية نفرت من الأشكال الهندسية، أتى كان التعليل النظري الذي سوّغ به رأيه ورأي المستشرقين الذين أخذ عنهم (راجع عبد الرحمن بدوي: التراث اليوناني والحضارة الإسلامية، التصدير العام، ص ط).

١٠٣. الهيولى عندهم هي المادة القابلة للصور.

١٠٤. رسائل إخوان الصفاء، ٢١/١ - ٢٢.

١٠٥. من خير ما قرأت في هذه النظرية ما جاء موسّعاً في كتاب أسوالد اشبنغلر «تدهور الحضارة الغربية»، ترجمه عن الالمانية أحمد الشيباني، وصدر في منشورات دار مكتبة الحياة، عام ١٩٦٤، في ثلاثة أجزاء.

١٠٦. J. PIRENNE, *Les Grands courants*, II/20.

كالصور وصناعة التماثيل. هذا هو المفهوم الشائع، غير أن الحقيقة مغايرة بعض الشيء لهذا المفهوم، ذلك أن الذهنية العربية السائدة، يوم بزغ الإسلام، كانت توحد بين الإنسان وصورته. والحقيقة كما رآها بعض الباحثين الأجانب<sup>١٠٧</sup> هي أن الأحاديث منعت الرسم الديني الذي يشابه الأصنام المعبودة، أما الرسم المبتدل على الأبسطة والوسائد المعدة للوطء والجلوس وغيرها، فلم يكن محرماً<sup>١٠٨</sup>.

وشكلت قضية تعليق الصور في المعابد، وتكريمها، موضوع جدل وخلاف كبيرين لدى المسيحيين في القرن الثامن للميلاد. وعُقدت لأجل النظر فيها وتحليلها سبعة مجامع مسكونية في القسطنطينية عام ٧٨٧ م. وكان الوثنيون، واليهود، والمانيون، وبعض أولي البدع القديمة، ممن أثاروا موضوع تحريم الصور ومحاربتها<sup>١٠٩</sup>. وتؤيد دائرة المعارف البريطانية وموسوعة لاروس ذلك، مؤكدين أن حركة تحريم الأيقونات (iconoclasme ou iconoclastie) قامت في الإمبراطورية البيزنطية في القرنين الثامن والتاسع<sup>١١٠</sup>. أما في أواخر القرن السادس، وفي القرن السابع، فإن الأيقونات حظيت بتكريم رسمي مشجع<sup>١١١</sup>، مما يعني أن النبي محمداً، عندما حرم الصور في أحاديثه الكثيرة<sup>١١٢</sup>، لم يكن متأثراً بهذه الحركة، إلا إذا وجدنا هذا الأثر في ردة فعله على كثرة انتشار الصور الدينية التي سبقت حركة الرفض والتحريم. أما التوراة فإنها تحرم الصور: «لا تصنع أية صورة منحوتة»<sup>١١٣</sup>، وتأثيرها في موقف الرسول من الصور، وفي

١٠٧. ريتشارد إيتنكهاوزن صاحب كتاب فن التصوير عند العرب، وزارة الإعلام العراقية، ١٩٧٤.

١٠٨. عادل قديح: العناصر الاستقلالية للحرف العربي بالقياس إلى الفنون التشكيلية العربية، المجلة التربوية،

العدد الأول ١٩٨٢، ص ٤٣ - ٤٧، و Albert SKIRA, *La peinture arabe*, p. 13.

١٠٩. يوسف الدبس: تاريخ سورية، ٢٧٨/٥ - ٢٩٠.

١١٠. أعلنها الإمبراطور لاون الثالث عام ٧٣٠، وأدانها البابا غريغوار الثالث في مجمع خاص عام ٧٣١.

ويمكن أيضاً مراجعة أحمد أمين: ضحى الإسلام، ٣٦٤/١.

١١١. *Encycl. Brit.*, 1965, 11/1056; et *Gr. lar. encycl.*, 1962, 6/36.

١١٢. أ.ي. ونسينك: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، مطبعة بريل في مدينة ليدن، ١٩٥٥،

٤٣٨/٣ - ٤٤٠. ومن هذه الأحاديث: «ومن صور صورة عذب وكلف أن ينفخ فيها الحياة»، «لا تدخل الملائكة

بيتاً فيه صورة»، «إن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يصورون هذه الصور». ولفظة رسم ومشتقاتها غير واردة

في الأحاديث، كما أن فعل رسم أو صور ومشتقاته بهذا المعنى غير وارد في القرآن الكريم.

١١٣. (تنبيه الاشتراع. *Deutéronome*, V, 8 (Deutéronome, 1962, 6/36; *Gr. lar. encycl.*, 1962, 6/36).

الأحاديث النبوية غير مستبعد. وظلّ الخطّ العربيّ، بما هو مادة زخرفة وتزيين، يسود العهود العربية، قديمها وحديثها.

وتجدر الإشارة الى الدور الذي قام به الموالي في تطوير الفن العربيّ منذ العهد الأموي<sup>١١٤</sup>. ويبدو أنّ الصور تفسّدت في العهد العبّاسي في المجالس حتى اضطرّ الخليفة المهتدي بالله (٨٦٩ - ٨٧٠) الى محوها عند تولّيه الخلافة، لأنّه كان ينحو الى الزهد والتقصّف<sup>١١٥</sup>. أمّا المتوكّل فأمر بأن يُجعل على أبواب دور النصارى صور شياطين مسمورة من خشب<sup>١١٦</sup>. «وأحصى البخّانة أحمد تيمور<sup>١١٧</sup> في كتابه عن التصوير عند العرب مئات الأبيات التي تدلّ على انتشار الرسم والنحت ومصنوعات هذين الفنّين في المباني والمصوغات والمنسوجات التي يصنعها المسلمون، وأتى على أسماء كثيرين من مصوِّري العرب الذين فرغوا لنقش الرسوم أو نحت التماثيل من المعادن والأحجار»<sup>١١٨</sup>. ولكنّ عباس محمود العقّاد، الذي أورد هذا النص، عاد فاستدرك بأنّ «فنّين جميلين لم يكن لهما نصيب كبير في الحضارة العربية، وهما التمثيل والتصوير بنوعيه، ونوعاه هما الرسم والنحت، أي صنع التماثيل»<sup>١١٩</sup> وهذا يجعلنا لا نسترسل في التوقّف عند أهميّة التصوير وانتشاره في الحضارة العبّاسيّة. وما كان منه، في الإجمال، قليل وبأيدٍ غير عربيّة، وإنّ بثّت فيه هذه الأيدي روحاً عربيّة منبعثةً من الإسلام، إلّا أنّه يمكننا أن نتكلّم على بناء جميل، وقباب فاخرة، ونقوش عربيّة متميّزة Arabesques، وقصور فخمة مزينة بالزخارف والفسيفساء. وقد استعار العرب القناطر ممّا بين النهرين وبيزنطية

١١٤. شحاده علي الناطور: دور الموالي في المجتمع الأموي، ص ٢٠٤.

١١٥. المسعودي: مروج الذهب، ٩٨/٥.

١١٦. الطبري، ١٧٢/٩.

١١٧. أحمد بن إسماعيل تيمور (١٨٧١ - ١٩٣٠): أديب ومؤرّخ مصريّ، صاحب الخزّانة التيموريّة

الشهيرة.

١١٨. العقّاد: أثر العرب في الحضارة الأوربيّة، ص ٧٦. وقد برع في النصف الأول من القرن الثالث عشر الرّسام العربيّ عبدالله بن الفضل الذي رسم، على الأخصّ، صوراً ملوّنة ومنمنات لكتاب الطبيب اليوناني ديسقوريدس بعنوان خواص العقاقير او خواص الأشجار، وهي تتخلّ بعض الأطباء يقومون بإعداد الأدوية او بعمليات جراحية (م.ع.م)، ص ١١٧٩، و Gaston Migeon, *Manuel d'art musulman*, t. I, p. 123

١١٩. المرجع السابق، ص ٧٠.

وفارس. والأقواس المتكاملة العقد من رومية. غير أنهم عرفوا كيف يرفعون أعمدهم بمهارة نادرة ورشاقة متناهية. فحظيت بعض جوامعهم بشهرة مبكرة، مثل جامع عمر في القدس وجامع ابن طولون في القاهرة. كما تمتعت قصورهم بجمال شاعري<sup>١٢٠</sup>. وظهر في بلاد فارس والهند وفي قصور الخلفاء ببغداد، تحت حكم الإسلام، نوع من التصوير الدقيق المشهور بالمصغرات أو المنمنمات Miniatures<sup>١٢١</sup>.

وبرع العرب في الشعر، والموسيقى، والرقص، والغناء، وغيرها من الفنون التخيلية غير الملموسة. ففي الموسيقى وضعوا الألحان، واخترعوا الآلات، متأثرين بالفنون الأجنبية التي دخلت مجتمعاتهم، فأخذوا عن الفرس العيذان والصنوج، وعن الأنباط<sup>١٢٢</sup> والجراجمة<sup>١٢٣</sup> الطنابر، وعن الروم الرباب والأرغن. وكان للعرب القدامى الدف والمزهر. فزج العباسيون بين هذه الآلات، واخترعوا آلات جديدة كالقانون الذي يعزى إلى الفارابي الفيلسوف (٨٧٠ - ٩٥٠) صاحب «كتاب الموسيقى الكبير» الذي يُعتبر أكبر مؤلف للعرب في الموسيقى. وزادوا على العود وترًا خامسًا أخذوه عن زرياب المغني<sup>١٢٤</sup> الذي أم الأندلس من الشرق.

وجمع العباسيون ألحانهم من اليونان والهنود والفرس والصرب، وخلقوا منها أصواتًا خاصة، نرى نماذج منها في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني<sup>١٢٥</sup>. وجاء لإخوان الصفاء رسالة في الموسيقى يبينون فيها ما للنغم والألحان من تأثير في نفوس المستمعين، ويشبهون هذا التأثير بالأدوية والأشربة والترياقات في الأجسام. وعزّوا للأفلاك في

١٢٠. Dict. encycl. Quillet, 1968, 1/314.

١٢١. كارل هينرش بكر في كتاب بدوي «التراث اليوناني»، ص ٢٨، و Gaston MIGEON.

Manuel d'art musulman, t. I, pp. 123-127.

١٢٢. الأنباط أو النبط، في الأصل، من العرب الشماليين الذين اختلطوا بالآراميين، وكتبوا بأبجديتهم، كما خالطوا الروم والمصريين والعبريين. والنقوش النبطية القديمة كُتبت بالخط الآرامي المشتق من الخط الفينيقي (شوقي ضيف: العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ط ٨، ١٩٧٧، ص ١١٥). وقد أطلق العرب هذه اللفظة على الآراميين السوريين في الإجمال (H. LAMMENS, La Syrie, 1/14).

١٢٣. الجراجمة هم قوم أشداء محاربون من منطقة الجرجمة أو الجرجومة الواقعة في جبل اللكام (الأمانيوس) وجبال طوروس. عملوا مرتزقة في جيوش الروم.

١٢٤. توفي زرياب حوالي ٨٤٥. أخذ الغناء عن إسحق الموصلي. أصبح أكبر موسيقي في الأندلس.

١٢٥. علي بن الحسين (ت ٩٦٧). نشأ وتوفي في بغداد. من أعلام الأدب والتاريخ.

حركاتها ودورانها، واحتكاك بعضها ببعض، نغمات مطربة ملهية، وألحاناً طيبة لذيدة معجبة، كنفحات أوتار العيوان والطنابير وألحان المزمار. والغرض منها تشويق النفوس الناطقة للصعود الى هناك بعد مفارقتها الأجساد<sup>١٢٦</sup>. وتعاليم الإخوان في الموسيقى شبيهة بسائر تعاليمهم حيث تتمتج الحقيقة بالخيال، والأحلام، والأغراض الروحية.

ولا شك في أن الفن العباسي لم يكن متاثلاً في كل ولايات الخلافة العباسية الشاسعة، ويمكننا أن نطلق هذا الحكم على الحضارة العباسية عموماً، ناظرين الى اختلاف مراكز الحضارة، وأصولها، ومنابعها، من بلاد الشام، الى العراق، الى فارس، ومصر، وما وراء النهر، وآسية الصغرى، وغيرها<sup>١٢٧</sup>. غير أن، ضمن هذا الاختلاف، بقي هنالك فن عربي إسلامي واحد، يتميز بتوجهه الى العقل أكثر منه الى الحواس كالهندسة والخط وما إليهما<sup>١٢٨</sup>. وهي ميزة فرضها الدين بمثاليته، والعلوم الفكرية المنتشرة في المجتمع العباسي الراقي.

واهتمّ الخلفاء والأمراء والأغنياء اهتماماً كبيراً بالمغنين والمغنيات، وبذلوا لهم الأموال الطائلة، فقبل إن راتب إبراهيم بن إسحق الموصلي (٧٤٢ - ٨٠٤)، عند الخليفة الهادي، كان عشرة آلاف درهم في الشهر، ما عدا الصلوات المختلفة<sup>١٢٩</sup>. وجاء في «ضحى الإسلام» أنه «اجتمع في المهدي حب للفنون الجميلة، وميل شديد الى الكرم، فجرى الناس على أثره، وأنفقوا الأموال على الفنانين، فرقي الفن، وبدأ ينتشر بين طبقات الشعب... وحسبك بالمهدي أنه تخرج في قصره ولداه زينة الدنيا وبهجة عصرهما في الظرف والغناء: إبراهيم وعليّ»<sup>١٣٠</sup>.

وكتبت المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه: «وعن طريق المغنين الدائمي الترحال، والسبايا من نساء الأندلس، بدأت النظريات العربية الاسبانية تظهر في الموسيقى اللاتينية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، كما وردت الغرب عن العرب زخرفة الألحان،

١٢٦. رسائل إخوان الصفاء، ٢٣/١. وجاء مثل هذا في كتابهم عن الفلك وغيره (راجع ص ١٣١).

١٢٧. راجع D. SOURDEL, *L'Islam médiéval*, pp. 207-208

١٢٨. *Ibid.*, p. 207

١٢٩. فيليب حتي: تاريخ العرب، ص ٤٨٩ وما بعدها.

١٣٠. أحمد أمين: ضحى الإسلام، ١٠٨/١.

وكثير من الآلات الموسيقية الوترية كالربابة ، والنفخية كالناي والنفير Trompette والبوق . والإيقاعية كالطبل والصنوج»<sup>١٣١</sup> .

وكان يتغلب على الموسيقى العربية ، مثل غيرها ، قبل القرن الثامن عشر ، هدف الطرب على هدف التعبير . وفي أوروبة نفسها ، سبقت ألحان الترنيم والتنغيم الموسيقى الهرمونية التي تتناسق فيها الألحان المختلفة . وما طرأ على الموسيقى الأوروبية الحديثة من التنوع والتركيب ، باعد بينها وبين موسيقى العرب والشرق على العموم ، خصوصاً بعدما توسعت أوروبة في علم الأصوات ، وتركيب الآلات ، وتلقيح الموسيقى الحسية بموسيقى العبادات<sup>١٣٢</sup> ... وما زالت الموسيقى الشرقية محافظة على ربع الصوت<sup>١٣٣</sup> في تأدية أنغامها ، وهو فارق من الفوارق البارزة بينها وبين الموسيقى الغربية .

وكان لكثير من المظاهر الفنية ، التي نشهدها في عصرنا الحاضر ، وجود بارز في الحضارة العربية القديمة ، كموسيقى الستارة Musique de chambre ، التي تمتع بسماحها الخلفاء والأشراف ، وانتشرت ، من بعد ، انتشاراً واسعاً في قصور الأباطرة والملوك<sup>١٣٤</sup> . ومثل خيال الظل ، نواة السينما الحديثة ، وقد ظهر منذ القرن الثامن الميلادي ، واتسع واشتهر بعد القرن الحادي عشر في العراق ومصر خصوصاً ، وأصبح من ملاحى الفاطميين والأيوبيين ، وبلغ الأندلس . وهو من الفنون الشعبية ، قوامه عرض ظلال على شاشة من القماش الأبيض لدمى يحركها إنسان يُدعى المُمخايل<sup>١٣٥</sup> .

١٣١ . زيفريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٤٩٢ .

١٣٢ . العقاد : أثر العرب في الحضارة الأوربية ، ص ٨٠ .

١٣٣ . يُقسم الصوت في الموسيقى الشرقية الى أربعة أجزاء ؛ أما في الموسيقى الغربية فيقسم الى جزأين فقط . وهذا الفارق يظهر في العزف على الآلات الوترية ، إذ إن الأبعاد تظهر بتنقل الأصابع على الوتر . فلو أخذنا صوتاً كاملاً من الدو Do الى الري Ré ، أي من صوت الراست (الذي يعني الدو في الموسيقى الغربية) الى صوت الدوكاه (الذي يوازي الري في الموسيقى الغربية) ، تُقسم هذه المسافة الصوتية الى أربعة أقسام في الموسيقى الشرقية . أما في الموسيقى الغربية فتُقسم الى قسمين . وتجدر الإشارة الى أن في المدرج الموسيقي نصف مسافة صوتية طبيعية ، دون اللجوء الى استعمال الأصابع ، بين صوتي المي والفا (Mi-Fa) والسلي والدو (Si-Do) . (مقابلة مع جوزف عطا الله ، أستاذ الغناء الشرقي في المعهد الموسيقي الوطني ، بتاريخ الثالث من أيار ١٩٨٣) .

١٣٤ . راجع مشهداً لموسيقى الستارة في مجلس هرون الرشيد في «مروج الذهب» للمسعودي ،

٢٢٤/٤ - ٢٢٤ .

١٣٥ . كتب المحامي فاروق سعد أطروحة دكتوراه مهمة في «خيال الظل العربي» (جامعة القديس يوسف ،

١٩٨٣) .

وأخيرًا يشرف الموسيقى العربية أن يكون لها معجبون بين كبار الموسيقيين والمغنيين العالميين، شأن ريمسكي كورساكوف RIMSKY KORSAKOV (١٨٤٤ - ١٩٠٨) الروسي، الذي استوحى من أنغامها سمفونيته الرائعة «شهرزاد»، والمغنيين الفرنسيين الشابين إيدي پاسكال<sup>١٣٦</sup>، وپاسكال دانييل<sup>١٣٧</sup>. والموسيقى العربية، الى أيامنا، خير ممثل للموسيقى الشرقية.



١٣٦. أعرب الموسيقى الفرنسي إيدي پاسكال Eddy PASCAL عن إعجابه بالموسيقى العربية في مقابلة بإذاعة مونتري كارلو في ١٩٨٠/١١/١٥.

١٣٧. تحدّث پاسكال دانييل Pascal DANIEL عن أهمية الموسيقى العربية وروعها في لقاء بإذاعة صوت لبنان في ١٩٨٣/١/٣.





# البحث الخامس

## الثقافة الدينية

- ١ - النصارى واليهود
- ٢ - الإسلام
- ألف - المذهب الحنفي
- باء - المذهب المالكي
- جيم - المذهب الشافعي
- دال - المذهب الحنبلي
- هاء - تصنيف المذاهب
- واو - انتشار المذاهب.
- ٣ - الأعياد
- ألف - مواكبها واحتفالاتها
- باء - الأعياد الدينية
- جيم - الأعياد الزمنية : النيروز - المهرجان .



مكتبة

المفتدين

## الثقافة الدينية

كانت الثقافة الدينية في العصر العباسي مشرّعاً تدخل منه سائر الثقافات ، وبأباً لكثير من العلوم والأبحاث النظرية والروحية التي غاص عليها أهل المعرفة ، ولحوا جدليتها . ومع محاربة الإسلام للمعارف اليونانية القديمة ، سرى القانون الروماني الى الشريعة الإسلامية التي أخذت عنه كثيراً من الوسائل والمنطلقات<sup>١</sup> . وإذ لم أضْمَنَّ هذا الكتاب تفصيل العلوم الفكرية والمنهجية التي سار عليها المسلمون ، آنذاك ، لأسباب عرضتها في المقدمة العامة ، رأيت فائدة في أن أورد ههنا نصّاً معبراً ليحيى بن خالد البرمكي من مروج الذهب للمسعودي ، يعطي صورة عن عمق الأبحاث الفكرية المتداولة ، واستناد الدين إليها ، بعد أن تعدّت ثقافة العلماء نصوص القرآن والحديث . قال المسعودي : « وقد كان يحيى بن خالد بن برمك ذا علم ومعرفة وبحث ونظر . وكان له مجلس يجتمع فيه كثير من أهل البحث والنظر من متكلمي الاسلام وغيرهم من أهل الآراء والنحل . فقال لهم يحيى ، يوماً ، وقد اجتمعوا عنده : قد أكثرتم الكلام في الكُْمُون والظهور ، والقَدَم والحدوث ، والنفي والإثبات ، والحركة والسكون ، والماسّة والمباينة ، والموجود والمعدوم ، والجزء والطفرة ، والأجسام والأعراض ، والتعديل والتجريح ، ونبي الصفات وإثباتها ، والاستطاعة والأفعال ، والجوهر ، والكمية والكيفية ، والمضاف والكون والفساد ، والإمامة أنصُ هي أم اختيار ، وسائر ما توردونه من الكلام في الأصول والفروع ، فاشرعوا الآن في الكلام في العِشْق على غير منازعة منكم ... »<sup>٢</sup> .

١. كارل هينرش بكر في كتاب بدوي : التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ، ص ١٥ .

٢. مروج الذهب ، ٢٣٦/٤ .

رَكَزَ العَبَّاسِيُّونَ خلافتهم على الدين ، وتحدّثوا بأن الرسول أعلم عمّه وجدّهم العباس بن عبد المطلب (ت ٣٢ هـ/٦٥٣ م) أنّ الخلافة سوف تؤوّل الى أولاده ، فكانوا يتوقّعون انتقالها إليهم<sup>٣</sup>. وكان الخلفاء العباسيون يصلّون بالناس ، ويخطبون فيهم . وظلّوا يمارسون مهمّتهم الإمامية في الصلاة حتى القرن الحادي عشر ، إذ انحجبوا في بلاطهم ، وأصبح لكل منهم جامعته الخاص ، داخل البلاط المحصّن ، أو قريباً منه<sup>٤</sup>. وترأس الخلفاء وفود الحج أحياناً كثيرة . ولم يرضوا قط بتعرّض مفشي الأسرار الى حياتهم الخاصة ، والى مجالس لهوهم ، حين يكونون ، في لباس غير لباس الخلافة ، مع خاصّتهم ، وفي دور حريمهم<sup>٥</sup>.

وكان الخليفة يحافظ على ألقابه وصفته الدينية في تعامله واتصاله بالغير ، فكانت توجّه الكتب باسم المتوكّل ، مثلاً ، على الشكل الآتي : «من عبد الله جعفر الإمام المتوكّل على الله أمير المؤمنين»<sup>٦</sup>. وساعة المبايعه ، كان الحاجب يقول للرجل : «تبايع الإمام القائم بأمر الله على الرضا بالإلتزام بطاعة إمامته ، فيقول : نعم ، ويأخذ يده ويقبلها»<sup>٧</sup>. فالخليفة ، إذا ، إمام المسلمين ، وأمير المؤمنين ، وخليفة الرسول ، وذكر اسمه فرض في كل خطبة عامة ، حتى أنّ هرون الرشيد ، مع ما نُسب إليه من اللهو ومخالفة الشريعة ، قال لمضحكه ابن أبي مريم : «إيّاك والقرآن والدين ، ولك ما شئت بعدهما»<sup>٨</sup>. ونهى المتوكّل عن الجدال في القرآن وغيره من شؤون الدين ، ونفذت كتبه بذلك الى الآفاق<sup>٩</sup>. ولم يعف المهيدي عن بشّار (٧١٤ - ٧٨٤) بعدما سمع منه أقوالاً مثل :

خليفةٌ يزني بعمّاته يلعب بالدبّوق<sup>١٠</sup> والصولحان<sup>١١</sup>

٣. الطبري ، ٤٢١/٧ .

٤. D. SOURDEL, *L'Islam médiéval*, p. 203 .

٥. الطبري ، ٢٦/٨ و ٢٧ و ٢٨ و ٧٠ و ٢٣٩ و ٢٤١ و ٢٥٥ ، وتاريخ الفارقي ، ص ١٣٤ .

٦. الطبري ، ١٥٥/٩ .

٧. تاريخ الفارقي ، ص ١٣٥ .

٨. الطبري ، ٣٤٩/٨ .

٩. المصدر نفسه ، ١٩٠/٩ .

١٠. لعبة من لعب الصبيان .

١١. الطبري ، ٨١/٨ .

أو :

ضاعت خلافتكم يا قوم فاطلبوا خليفة الله بين الدُفِّ والعود<sup>١٢</sup> فقتل بشار بالزندقة، وقتل قبله ابن المقفّع (عام ٧٥٩). ورأى الخليفة المهدي من واجبه أن يتبع الزنادقة ويقتلهم ليكني المسلمين شرهم، فولّى لذلك رجلاً سمّاه صاحب الزنادقة، وفعل مثله، فيما بعد، ابنه موسى الهادي<sup>١٣</sup>. وقتل المأمون يحيى بن عامر بن إسماعيل عندما تجرّأ وخاطبه بقوله : « يا أمير الكافرين »<sup>١٤</sup>.

ولم يبقَ للخليفة سوى الصفة الدينية، بعد أن خسر السلطة المدنية، يوم سلّبا منه السلاطين البويهيون (ابتداءً من ٩٤٥)، والسلاجقة (عام ١٠٣٧)، وغيرهم، ممّن حرصوا، في الوقت عينه، على إبقاء الخليفة رمزاً لوحدة الأمة الإسلامية وطواعيتها. وما دام كلامنا على الحضارة، يحسن أن نشير إلى أنّ بعض المظاهر أو التقاليد البدائية التي لا تدخل في صلب الدين، وربما شوّعت نظرة الناس إليه، والتي قام، في أيامنا، علماء من مختلف المذاهب يحاربونها، ويمنعون المؤمنين من ممارستها، تصدّى لها من يحرمها في الخلافة العباسية. فعلى عهد بهاء الدولة بن بويه (١٠٠٢)، منع عميد الجيوش أهل الكرخ وباب الطاق، في عاشوراء، من النوح في المشاهد، وتعليق المسوح في الأسواق، فامتنعوا. ومنع أهل باب البصرة وباب الشعير من مثل ذلك فيما نسبوه إلى مقتل مصعب بن الزبير<sup>١٥</sup>. ولا يدخل هذا، طبعاً، في نطاق اضطهاد الشيعة، لأنّ آل بويه كانوا على مذهبهم، وقد أخذهم السلطان بما أخذ به أتباع ابن الزبير.

## ١ - النصارى واليهود

لم يكن المجتمع العباسي مجتمعاً إسلامياً صرفاً، وإنما عاش فيه، خصوصاً، أتباع المذاهب السماويين الكبيرين النصرانية واليهودية، وتمتعوا بشيء كثير من الحرية والاستقلال، بفضل العهود والاتفاقات التي فرضتها كفاياتهم وجاعاتهم على الخلفاء

١٢. المصدر نفسه، ١٥٦/٨.

١٣. المصدر نفسه، ١٦٥/٨ و ١٦٧ و ١٩٠.

١٤. المصدر نفسه، ٥٤٥/٨.

١٥. ابن مسكويه : تجارب الأمم، ٤٥٨/٣.

العباسيين. وكانت حرية المسيحي واليهودي مكفولة طالما هي بعيدة عن المس بالإسلام وبالخلافة.

وأكثر ما تأثر به العباسيون من الثقافتين المسيحية واليهودية، أخذوه عن الكتب السماوية، وأهمها الإنجيل والتوراة اللذان يعتبرهما الإسلام من الكتب المنزلة. وقد نشر هاتين الثقافتين خصوصاً من أسلم من اليهود والنصارى، ككعب الأخبار<sup>١٦</sup> ووهب بن منبه<sup>١٧</sup> في اليمن. ومن أهم علماء العربية أبو عبيدة معمر بن المنثري (٧٢٨ - ٨٢٥) وهو من أصل يهودي. وفي القرآن كثير من الأخبار والقصص الموافقة لما ورد في التوراة والإنجيل، وإن جاءت فيه مختصرة أو معدلة بأسمائها على الأخص. وكثيراً ما لجأ مفسرو القرآن الى التوراة والإنجيل للتوسع في شروحه على هدي ما ورد فيها<sup>١٨</sup>.

وقام في العصر العباسي جدل بين المذاهب، وراح كل مذهب يؤيد رأيه بالحجج المنطقية والفلسفية. ولما كان النصارى واليهود أعرق في الجدل الفلسفي لازدهار مذهبيهم في بيئات عريقة في الحضارة، كاليونان والرومان، اضطُرَّ فقهاء الاسلام للرجوع الى الفلسفة اليونانية لمجاراتهم، ونشأ عندهم علم الكلام الذي يهتم بالدفاع عن الدين بالحجج المنطقية.

ولم يقتصر أثر النصرانية واليهودية على إفادة الاسلام، بل أضراّه، أحياناً، بما أدخل فيه من إسرائيليات وتأويلات تتوافق مع غاياتهم وأهوائهم<sup>١٩</sup>؛ إلا أنهم خلقوا مجالاً واسعاً للجدل، والتأويل، والتعمق في الدراسات الدينية، ما نتج عنه فرق أو طُرق جديدة في فلسفة الدين، كالمعتزلة، والأشعرية، والمتصوفة، وغيرها. وألف المسلمون

١٦. أبو اسحق كعب بن ماتي (ت ٦٥٢ م). من أقدم رواة الحديث. كان يهودياً يمجّياً، فاعتنق الاسلام، وقدم المدينة في أيام عمر. ثم خرج الى الشام فجعله معاوية من مستشاريه. توفي في حمص (النجد في الاعلام، ١٩٧٥، ص ٥٩٠).

١٧. ابو عبدالله وهب بن منبه (٦٥٤ - ٧٣٢): مؤرخ، عالم بأساطير الأولين ولاسيما الاسرائيليات. من التابعين. فارسي الأصل. وُلد ومات بصنعاء. من كتبه «التيحان في ملوك حمير» و«قصص الأنبياء» و«قصص الأخبار» (الموسوعة العربية الميسرة، ص ١٩٦٩).

١٨. أحمد أمين: ضحى الإسلام، ٣٢٢/١ وما بعدها.

١٩. جاء في كتاب صبحي الصالح «النظم الإسلامية»، ص ٧١: «فقد دخل في الإسلام من أبناء الملل الأخرى يهود ونصارى ومجوس، وأثاروا بين المسلمين شبهات حول القدر، ومسائل الجبر والاختيار، والآيات المتشابهات في صفات الله وذات الله».

كتباً في «الرّد على النصارى» ككتاب الجاحظ بهذا الاسم ، حيث أخذ على نفسه أن يرّد الشبهات التي كان يثيرها النصارى واليهود بوجه الإسلام<sup>٢٠</sup>. ومن طرائف ما وصلنا من عهد المأمون رسالة كتبها عبد الله بن اسماعيل الهاشمي يدعو فيها عبد المسيح إسحق الكندي الى الإسلام ، فردّ عليه عبد المسيح بدعوه الى النصرانية . ومثل هذا رسالة كاتب المتوكل علي بن يحيى بن المنجّم الى حنين بن إسحق يدعو فيه الى اعتناق المذهب الحنيف ، فأجابه حنين بما يناسب دعوته ، وكتب رسالة بعنوان «كتاب إدراك حقيقة الديانة» وضع فيها لائحة من ستة أسباب منطقية تدعوه الى التمسك بمذهبه . وقد حمده قسطنطين لوقا لهذه المبادرة<sup>٢١</sup>.

واشتدّ أثر النصرانية بنوع خاص ، لأنّ الفلسفة اليونانية ، في عصرها الأخير ، كانت مشبعة بالروح النصرانية وأفكارها . وقد غرف منها العرب في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين على الأخص . وكان شمالي بغداد ، عند باب الشّمسية ، حيّ للنصارى يدعو «قطيعة النصارى» ، بين باب البصرة ذي الأكتريّة السّنية ، والكرخ مركز الشيعة الثّائرين . فكثيراً ما كانت الاصطدامات بين السنة والشيعة تجري على أرضهم . ويمكن القول إنّ وضع المسيحيين تحت الحكم العبّاسي ، بوجه عام ، لم يكن أسوأ من وضع الشيعة ، واستمر الحوار بينهم وبين الخلفاء<sup>٢٢</sup>. وكان يتولّى شؤونهم بطريرك النساطرة الذي شملت رعايته سائر الطوائف النصرانية ، لأن الكنيسة النسطورية ربطت مصيرها بعاصمة العبّاسيين الجديدة ، وكان أوّل بطريرك على بغداد طيموتاوس الأوّل الذي انتخب فيها<sup>٢٣</sup>. وذَكَرَ هذا البطريرك أنّه كان لزبيدة ، بنت المنصور وزوج الرشيد ، ميل

٢٠. أنّهم ابن قتيبة الجاحظ بالكذب ، وبأنّه يخدم النصارى في كتابه ، بإيراد حججهم والرّد عليهم بشكل يلفت أنظارهم الى ما يجهلون من الاسلام ، ويشكك المسلمين الفاترين (ابن قتيبة : كتاب تأويل مختلف الحديث ، القاهرة ١٣٢٦ هـ. ، ص ٧١-٧٢).

٢١. Michel ALLARD, in *Arabica*, 1962, p. 384. ومما جاء في جواب حنين بن إسحق لأبن المنجّم : «وأنا ، فلم أقرّ لك قط أنّ الكتاب الذي جاء به صاحبك حقّ» (جواب حنين بن إسحق في نقد رسالة «البرهان» لابن المنجّم . في *Patrologia Orientalis*, Belgique, 1981, t. 40, p. 688).

٢٢. مثلاً حوار البطريرك طيموتاوس الأوّل والمهدي في كتاب الأب هـ. يوثمان اليسوعي ، دار المشرق ، بيروت ، ١٩٧٥.

٢٣. انتخب في السابع من أيار عام ٧٨٠ ، وبقي بطريركاً ٤٣ سنة متواصلة.

الى النصارى ومذهبهم<sup>٢٤</sup>.

وأصبح الفلاسفة العرب يتطلعون الى معرفة الله أو الذات الإلهية، وهو أمر لم يسمح به الإسلام من قبل. وتوسع في هذا الهدف الأسمى المتصوفون<sup>٢٥</sup>. واشتهر في مطلع العهد المسيحي لدى الغنوسطين<sup>٢٦</sup>. وكانت الغنوسية أصل المذهب الانبثاقي الذي يفلسف خلق المادة من قبل إله غير مادي، بمجموعة انبثاقات تتدرج من الروح المحض الى المادة الخالصة<sup>٢٧</sup>. وتأثر الصوقيين بالنصرانية واضح في كثير من مصنفاتهم التي وصلت إلينا، كمصنفات الحرث بن أسد المحاسبي المتوفى عام ٨٥٨ م. والترمذي المتوفى عام ٨٩٨ م. ومن المعروف والمتعارف عليه أنه لا صوفية ولا رهبنة، أصلاً، في الإسلام. وكان للنصرانية واليهودية تأثير كبير في خلق فكرة المهدي الغائب الذي يعود وشيكاً ليملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً، تلك الفكرة التي اعتنقتها الخلافة الفاطمية، وهي تقرب من فكرة المسيح الذي يأتي عند انتهاء العالم ليحقق الحق ويقم الدينونة العادلة، وهو آتٍ على عجل كما تقول رؤيا يوحنا<sup>٢٨</sup>. والى مثل ذلك يرجع نشوء الفرق الباطنية كالقرمطية والنصيرية والإسماعيلية والدرزية.

## ٢ - الإسلام

تطورت العلوم الإسلامية في هذا العصر، وظهرت العلوم الشرعية، وتعددت الفرق والمذاهب، متأثرة بالحالة السياسية، وبانقسام المسلمين. قال المقدسي<sup>٢٩</sup>: «إعلم أن

٢٤. M. ALLARD. in *Arabica*, 1962, pp. 375-388; J.M. FIEY, *Chrétien Syriacques*, p. 58.

٢٥. راجع آدم متر: الحضارة الإسلامية، ٢٠/٢.

٢٦. الغنوسطيون Gnostiques، والمذهب الغنوسطي أو الغنوسية Gnosticisme مزيج من العقائد الوثنية، والفلسفة اليونانية، والتوحيد اليهودي، والنصرانية. وقد كان، قديماً، تياراً موازياً للنصرانية وشديد اللصوق بها. ولكنه أصبح، فيما بعد، خروجاً عن الدين وهرطقة، لأنه ركز العقيدة على العقل، وقُتل من شأن الإيمان، واختص برذل المادة، والتقليل من شأنها، على طريقة أفلاطون.

٢٧. قال كارل هيتزش بكر BECKER في كتاب بدوي «التراث اليوناني والحضارة الإسلامية»، ص ١٠: «ولقد سادت روح الغنوص فرق صدر الاسلام كلها».

٢٨. سفر الرؤيا، ١٣؛ والمسيح الدجال Anti ou Anté-Christ في إنجيل متى، ٢٤/٢٤.

٢٩. شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر: جغرافيًا عربي، وُلد في القدس، وتوفي

حوالي ٩٩٠.



المذاهب المستعملة اليوم (أواخر القرن العاشر) في الاسلام، التي لها خاص وعام ودعاء وجمع، ثمانية وعشرون مذهباً<sup>٣٠</sup>. ولم يُدخل السنة في هذه المذاهب، وإنما جعلها متشعبة من أربعة: الشيعة، والخوارج، والمرجئة، والمعتزلة، وجعل أصل افتراقهم قتل الخليفة عثمان بن عفان (٦٤٤ - ٦٥٦)، الذي وحّد آراء المسلمين في قرآن واحد، وسنة واحدة.

وحصرُ المقدّسي مذاهب الاسلام، حتى أواخر القرن العاشر، بالشيعة، والخوارج، والمرجئة، والمعتزلة، وعدم ذكره مذاهب السنة الأربعة، يدلّ على أن طغيان المذاهب السنية جاء متأخراً. يؤيد ذلك ما كتبه محمد أركون<sup>٣١</sup> من أن ما نسميه الاسلام السني يعود الى حقيقة اجتماعية وثقافية ودينية فرضت نفسها متأخرة، خصوصاً منذ القرن الرابع الهجري<sup>٣٢</sup>. وكان مذهب المعتزلة سائداً أيام وزارة الصاحب اسماعيل بن عباد (ت ٨٣٥) وزير آل بويه<sup>٣٣</sup>. وما ذكره الدارسون، كدومنيك سورديل، من انتشار المذاهب السنية الأربعة المشهورة<sup>٣٤</sup>، يدعوننا الى التفكير بأن مذاهب أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وابن حنبل، التي كان ولا يزال لها تأثير كبير في العوالم الاسلامية، توزعت المسلمين بعد زمن طويل من نشوئها.

ووقع الخلاف بين الفرق خصوصاً على مسألة الخلافة والإمامة، وعلى مسائل أخرى كالجبر والاختيار، ومصير صاحب الكبائر، وغيرها. وتوزّع المسلمون، بعد القرن العاشر، بين سنة، وشيعة، وخوارج، ومرجئة، وقدرية، وجبرية، ومعتزلة<sup>٣٥</sup>. وكانت كل فرقة تجتهد لتبين حقها، وأصالتها، وصحة معتقاداتها. غير أن هذه الفرق لم تثبت جميعاً لشذوذها عن السنة، أو ضعف رجالها، أو قلة المنتسبين إليها. وتوسّع بعض التوسّع، فيما يأتي، في مذاهب السنة الأربعة، دون غيرها، لأن الإسلام السني تركّز عليها منذ القرن العاشر.

٣٠. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٣٧.

٣١. مفكر مغربي متخصص بالاسلاميات.

٣٢. قول أركون مذكور في J. M. FIEY, *Chrétiens Syriques*, p. 6، ودراسة محمد أركون حول ابن

مسكويه، باريس، فران، ١٩٧٠، ص ١٦١.

٣٣. جوليستير في بدوي «التراث اليوناني والحضارة الاسلامية»، ص ١٤٩.

٣٤. D. SOURDEL, *L'Islam médiéval*, p. 81.

٣٥. راجع مبادئ هذه الفرق في كتاب «النظم الإسلامية» لصبحي الصالح، ص ٩٥ وما بعدها.

## ألف - المذهب الحنفيّ أو الحنيفة

إمام هذا المذهب أبو حنيفة نعمان بن ثابت مولى تيم اللات من بكر بن وائل . وهو أكبر الأئمة الأربعة . وُلِدَ حوالي عام ٨٠ هـ / ٦٩٩ م . بالكوفة ، وتوفي عام ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م . في بغداد<sup>٣٦</sup> . نشأ أبو حنيفة في الكوفة ، وتلقّى علومه فيها . وكانت الكوفة مركزاً علمياً يضمّ الكثيرين من كبار الفقهاء وأهل العلم . وكان شيخه حماد بن أبي سليمان المتوفى عام ١٢٠ هـ / ٧٣٧ م . وأخذ عن التابعين وعن الإمام جعفر الصادق (٦٩٩ - ٧٦٥) . ويُقال إنّ أبا حنيفة انتدب لوظيفة قاضٍ مرتين ، إحداهما على عهد بني أمية ، والأخرى في بني العباس . ولكنّه رفض هذا المركز الدقيق ، ولم يرصّ بتحمّل مسؤولية القضاء الجسيمة . فاضطهد من أجل ذلك ، وسُجن بأمر المنصور ، وكان يُسَاط كلّ يوم حتى توفي في السجن . ويُقال إنّ اضطهاده لم يكن بسبب رفضه القضاء ، وإنما ليله الى العباسيين في الدولة الأموية ، وميله الى العلويين في الدولة العباسية . قال فيه الجاحظ إنّهُ «أدري الناس بما لا يكون ، وأجهل الناس بما يكون»<sup>٣٧</sup> .

ويُعتبر أبو حنيفة رئيس مدرسة أهل الرأي التي كانت مراكزها المهمة في العراق . فكان يأخذ بالرأي والقياس عند نقص النص ، كما أنّه كان يتشدّد في الحديث ، فلا يقبل منه إلّا الصحيح الثابت . ولا يقبل إلّا الرأي البعيد عن الهوى ، المستخلص من القرآن والسنة . وكان يستخدم ما يسمّونه الاستحسان ، أي تفضيل أصل على أصل عند القياس . فلو كان هناك حكم أو مسألة ينطبق عليها نصّان ، تستحسن أنت ما يوافقك منها . وتوسّع أبو حنيفة في استعمال القياس ، وهو استخلاص حكم من الأحكام بالاستنتاج من أصل معيّن في حدود القرآن والسنة . وكان القياس من أهم أسس التشريع لديه .

ولم يضع هذا الفقيه كتباً معينة ، على أنّه نُسبت إليه كتب من وضع تلاميذه ، وأشهرها كتاب «الفقه الأكبر» ، «والعالم والمتعلّم» ، و«مسند أبي حنيفة» . وقد تتلمذ عليه عدد كبير من الطلاب ، واشتهروا من بعده ، كالقاضي أبي يوسف المتوفى عام

٣٦. المسعودي : مروج الذهب ، ٤ / ١٥٩ .

٣٧. بطرس ديب : محاضرات مخطوطة في النظم الإسلامية ، أُلقيت على طلاب معهد المعلمين العالي ، (الجامعة

اللبنانية) ، ١٩٥٥ - ١٩٥٦ .

١٨٢ هـ/٧٩٨ م<sup>٣٨</sup>، وهو الذي وضع للرشيـد «كتاب الخراج»؛ ومحمد بن الحسن الشيباني المتوفى عام ١٨٩ هـ/٨٠٤ م<sup>٣٩</sup>. وأهم ما يميّز به المذهب الحنفي هو حلّ المسائل الشرعية بروح التسامح<sup>٤٠</sup>.

### باء - المذهب المالكيّ او المالكيّة

إمام هذا المذهب مالك بن أنس، وهو إمام المدينة، وزعيم المذهب الثاني من مذاهب الفقه، وأصله من أمراء حمير. وُلد في المدينة عام ٩٣ هـ/٧١٢ م. وتوفي فيها عام ١٧٩ هـ/٧٩٥ م. ولم يغادرها طوال حياته إلا حاجاً الى مكة. تلقى علومه عن بعض التابعين، ومنهم ربيعة الرأي المعروف بميله الى الرأي، والزّهري (محمد بن مسلم) الذي كان من أعلم الناس بالسنة، ونافع بن عبد الرحمن القارئ، وغيرهم. واليه انتهى فقه المدينة. وجلس للفقه ورواية الحديث، وأخذ عنه الكثيرون من محدّثين والفقهاء، وكان بينهم مصريّون وأفارقة ومغربيّون وأندلسيون، وهم الذين نشروا مذهبه في شمال أفريقيا والأندلس. كما حضر مجلسه تلاميذ من البصرة وبغداد وخراسان. وأهم مؤلفاته «الموطأ» (الطريق المعبّد)، وهو أول مجموعات الحديث: استغرق تأليفه أربعين عاماً. جاء في «تذكرة الحفاظ» للذهبي<sup>٤١</sup> أن المنصور قال لمالك بن أنس: «وطئ للناس كتاباً، ولئن بقيت لأكتبن قولك كما تكتب المصاحف، ولأبعثن به الى الآفاق، فأحملهم عليه»<sup>٤٢</sup>.

وقد نظر الى مالك كزعيم لأهل الحديث. ولم يتصعّب في وضع الشروط والقيود لقبول الحديث، كتلك التي كان يضعها أبو حنيفة. ولذلك كثرت الأحاديث التي

٣٨. ترجمته في ضحى الإسلام، ١٩٨/٢ - ٢٠٣.

٣٩. ترجمته في المرجع نفسه، ٢٠٣/٢ - ٢٠٥.

٤٠. للتوسّع في هذا المذهب وصاحبه راجع أحمد أمين: ضحى الإسلام، ١٧٦/٢ - ٢٠٦؛ وصبحي الصالح: النظم الإسلامية، ص ٢٠٩ - ٢١٣؛ ويمكن مراجعة المذاهب السنيّة الأربعة في بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، الجزء الثالث.

٤١. محمد بن أحمد، شمس الدين (ت ١٣٤٨ م). تركاني الأصل. وُلد وتوفي في دمشق، رحل الى القاهرة والى كثير من البلدان. مؤرّخ، ومحدّث، وإمام.

٤٢. الذهبي: تذكرة الحفاظ، ٢٠٩/١.

أوردها على أنها صحيحة. قال فيه الشافعي: «مالك حجة الله على خلقه بعد التابعين»<sup>٤٣</sup>.

### جيم - المذهب الشافعيّ أو الشافعية

إمامه أبو عبد الله محمد بن إدريس «أمين الله». يعود نسبه الى قريش. وُلد في غزّة عام ١٥٠ هـ/٧٦٧ م، وتوفي بمصر عام ٢٠٤ هـ/٨١٩ م<sup>٤٤</sup>. ونشأ الشافعيّ في مكّة موطن أجداده، ثم رحل الى المدينة حيث تتلمذ على مالك بن أنس. وأمّ بغداد مرّات عديدة، وأخذ فقه العراقيين عن محمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة، وأضاف ذلك الى طريقة أهل الحديث. ورحل أخيراً الى مصر عام ١٩٩ هـ/٨١٤ م. وتوفي فيها. وفي مصر عدلّ بعض آرائه، ونشر مذهبه الجديد، جامعاً بين أهل الحديث وأهل الرأي، ومقرباً بينهما. وعدّه بعضهم<sup>٤٥</sup> واضع علم الأصول الذي حدّد له الضوابط والموازن.

أشهر مؤلفات الشافعيّ «رسالة في أصول الفقه»، و«كتاب الأم» في فروع الفقه. وكان له تلاميذ عديدون، منهم أحمد بن حنبل. وجاء في المقدمة التي كتبها عبد الله المشنوق<sup>٤٦</sup> لكتاب الشيخ إبراهيم المنذر «حديث نائب»: «الدنيا كلّها تعرف أنّ الإمام الشافعي هو صاحب أحد المذاهب الإسلامية، وقليلون هم الذين يعرفون أنّه من أعظم شعراء العرب»<sup>٤٧</sup>.

### دال - المذهب الحنبليّ

ينتمي إمامه أحمد بن محمد بن حنبل الى بني شيان. فهو عربيّ الأصل، وُلد في

٤٣. للتوسّع في المذهب المالكي راجع أحمد أمين: ضحى الإسلام، ٢٠٦/٢ - ٢١٨؛ وصبحي الصالح: النظم الإسلامية، ص ٢١٣ - ٢١٥.

٤٤. السعودي: مروج الذهب، ٣١٩/٤ - ٣٢٠.

٤٥. صبحي الصالح: النظم الإسلامية، ص ٢٨١.

٤٦. صحافيّ ونائب لبنانيّ سابق. صاحب جريدة «بيروت المساء».

٤٧. إبراهيم المنذر: حديث نائب، ص ١٠؛ وللتوسّع في الشافعي ومذهبه راجع أحمد أمين: ضحى الإسلام، ٢١٨/٢ - ٢٣٤؛ وصبحي الصالح: النظم الإسلامية، ص ٢١٦ - ٢١٨.

بغداد عام ١٦٤ هـ / ٧٨٠ م. ، وتوفي فيها عام ٢٤١ هـ / ٨٥٥ م. ، وشهد جنازته جمع غفير وكان منادٍ ينادي :

وأظلمت الدنيا لفقد محمد وأظلمت الدنيا لفقد ابن حنبل<sup>٤٨</sup> كان ابن حنبل إمام أهل الحديث في عصره ، وقد رحل كثيراً في طلب العلم ، وأخذ عن أكابر المحدثين ، وسمع أشهر العلماء . وكان ينتقل بين الكوفة والبصرة والشام واليمن ومكة والمدينة . ولازم الشافعي ، وتأثر به كثيراً ، وأخذ عنه ، على أنه استقل في بعض المسائل ، وقاوم المعتزلة ، فسجنه المعتصم ، ثم أفرج عنه المتوكل . واتصف بشدة تمسكه بالسنة ومخالفته للرأي ، بحيث أصبح مذهبه أكثر المذاهب الأربعة تقيداً بالسنة ، ودفاعاً عن معتقدها ، ودعماً للخلافة العباسية<sup>٤٩</sup> . وأعظم مؤلفاته كتاب « المسند » الذي يشتمل على ثلاثين ألف حديث ، والذي يعتبر كتاب حديث أكثر منه كتاباً فقهياً<sup>٥٠</sup> .

#### هاء - تصنيف المذاهب

نأخذ هذا التصنيف عن الدكتور صبحي محمصاني ، أحد رجال القانون البارزين في أيامنا ، وقد قال : « صنف الأصوليون والمؤرخون المذاهب السنية في فئتين كبيرتين : مدرسة أهل الحديث ، ومدرسة أهل الرأي . وكان على رأس الأولى الإمام مالك ، وعلى رأس الثانية الإمام أبو حنيفة . ثم كان المذهب الشافعي وسطاً بين المدرستين ، وكان المذهب الحنبلي من فئة أهل الحديث » . ثم تحفظ الدكتور محمصاني « بأن هذا التصنيف ليس إلا تقريباً إجمالياً » ، وقد ترجح آراء كل من هاتين المدرستين بين التقيد بالنص ، والاجتهاد فيه<sup>٥١</sup> .

#### واو - انتشار المذاهب

انتشرت المذاهب الفقهية الكبرى في الأعصر العباسية في البلاد التي نجدها فيها

٤٨. السعودي : مروج الذهب ، ٢٠/٥ .

٤٩. A. MIQUEL, *L'Islam et sa civilisation*, pp. 100 et 107 .

٥٠. للتوسع راجع أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ٢/٢٣٤ - ٢٣٦ ؛ وصبحي الصالح : النظم الإسلامية ،

ص ٢١٨ - ٢٢٠ .

٥١. صبحي محمصاني : الأوزاعي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ٤٣ و ٤٢١ .

اليوم ، تقريباً ، باستثناء البلاد التي غلب عليها التشيع . ساد المذهب الحنبلي في بغداد ، ولم ينتشر خارج العراق إلا في القرن الرابع الهجري ، وسيطر مذهب الشافعي خصوصاً في مكة والمدينة ، وكانت المالكية في مصر والأندلس والمغرب الذي قاسمتها إياه الحنفية<sup>٥٢</sup> .

أما في العصر الحديث ، فانتشر المذهب الحنفي في البلاد التي كانت تشكل السلطنة العثمانية ، وكان مذهب الدولة الرسمي . وهو لا يزال في آسية الوسطى وشمالى الهند . وانتشر المذهب الشافعي خصوصاً في مصر ، وجنوبى الهند ، وفي جزر الهند الشرقية . والمالكي منتشر في السودان والمغرب وأفريقية . والحنبلي في المملكة العربية السعودية . ويبدو أن الاختلافات السنية تتلاشى شيئاً فشيئاً ، ليحل مكانها مذهب سني واحد ، مبني على التوافق والتكامل بين مختلف المذاهب القديمة .

### ٣ - الأعياد

الأعياد هي أيام مخصصة للراحة ، او لممارسة بعض الفروض الدينية ، أو للاحتفال بذكرى مهمة او عزيزة . وهي ، بذلك ، تنقسم الى أعياد دينية ، او زمنية ، او مختلطة . والأعياد عادة متبعة لدى كل الشعوب ، وفي مختلف الأزمنة . وهي تختلف باختلاف السبب الذي من أجله نشأت ، وباختلاف الطابع ، والعقائد والتقاليد لدى الذين يحتفلون بها . وإذا كانت الأعياد منطلقة من الدين والتقاليد والحياة الخاصة ، كانت من المظاهر الحضارية البارزة . ونحن نطلع ، تحت هذا العنوان ، على احتفالات العباسيين بأعيادهم الدينية والزمنية .

### ألف - مواكبها واحتفالاتها

اقتبس العباسيون احتفالاتهم العامة بالأعياد عن النصارى بنوع خاص ، مأخوذين بطابعها الاجتماعي . وكانت لهذه الاحتفالات صبغة وثنية ظاهرة ، اختلطت بما تطعم به المجتمع العباسي من تقاليد الفرس والروم الممعة في إظهار الأبهة والمجد . فكانت مواكب

٥٢ . آدم متر : الحضارة الإسلامية ، ١/ ٣٩١ - ٣٩٤ .

الخلفاء والأمراء آية في البذخ والتظاهر. وامتدّ موكب المتوكّل (٨٤٧ - ٨٦١) أربعة أميال ترجل فيها الناس بين يديه. وكان الخليفة يُحمل على المحامل أو القباب أو المحفّات، والرجال تسير حوله بالسيوف والأعمدة والقسي. وإذا ركب جواداً اتّخذ الحلية الفضية، والسروج المكسوة بالديباج. ثم اصطنع المعتزّ (٨٦٦ - ٨٦٩) لنفسه، في حال ركوبه، حلية الذهب، وجرى عليها الناس من بعده. وزاد الفاطميون في مصر على مواكبيهم المظلة<sup>٥٣</sup> والشمسية، أسوةً بالمغربيين الذين كانوا يظللون حكامهم بريش الطواويس، فاستعملها الفاطميون من الديباج والخز المحلى بالذهب، والمرصع بالجواهر، وحولها الأعلام الملونة. واتّخذ السلاجقة، في ركوبهم، الطبل والبوق والعلم، وعلى رؤوسهم الجتر<sup>٥٤</sup>، وهو قبة صغيرة من الديباج أو الحرير المذهب تُرفع على رمح ويُظلل بها الملك.

ومن الأعياد التي كانت تتميز بطابع ديني، المولد النبوي وعيد الفطر والشعائين. ومما كان له طابع وطني، النيروز والمهرجان. وفي كل هذه الأعياد، كانت تُبذل الأموال، وتفرّق الصدقات والهدايا، من نقود، وثياب، وحلي، وغيرها<sup>٥٥</sup>.

## باء - الأعياد الدينية

لما كان لكل دير من ديارات النصارى شقيقه من القديسين، كان المسلمون يؤمنون هذه الديارات في موسم الأعياد، ويقضون أمتع الأوقات في بساطتها ومنتزهاتها، لاهين، وناظمين الشعر، وشاربين الخمر المعتقة، ومبهورين بألحان نواقيسها، وغريب عادات رهبانها وراهباتها. ولم يكن التبرك والورع بعيدين عن غاياتهم في زيارة الأديرة التي كانت منتشرة داخل بغداد وخارجها. وفي كتاب «الديارات» للشابشتي (ت

٥٣. عيد المظلة أو عيد المظال هو عيد لليهود ينصبون فيه مظلاً من ورق الشجر، أو سعف النخل، فيقيمون بها سبعة أيام، تذكراً لتحرّره من عبودية ملوك مصر، إذ ساروا من مصر إلى أرض الميعاد، خلال أربعين سنة، منذ ثلاثة آلاف سنة. وما زالوا يحتفلون بهذا العيد حتى اليوم، فيقيمون المظلات في الساحات والطرق وعلى سطوح المنازل وشرفاتها.

٥٤. من التركيبة چتاري Tchatare، وهو قماش خفيف، نسيجه مصنوع بخيط من حرير وثلاثة من قطن.

٥٥. للتوسّع في مواكب العباسيين واحتفالاتهم راجع جرجي زيدان: تاريخ التمدّن الاسلامي،

٩٩٨) كثير من أبواب اللّهُو ، والشراب ، والشعر ، والأخبار الطريفة التي كانت متداولة في الديارات وحوّلها<sup>٥٦</sup>.

وكان المجتمع الإسلاميّ ، في كل أنحاء الخلافة ، يحتفل احتفالاً واسعاً بعيد الشعانين ، أو يوم السعانين كما كانوا يسمّونه ، ويشارك الخليفة فيه ، فتسير المواكب مزدانة بالشموع ، وسعف النخل ، وأغصان الزيتون. وتظهر الوصائف ، في أحد الشعانين ، بقصر الخلافة ببغداد ، مترنّات في ثياب جميلة غالية ، وفي أعناقهنّ صلبان من الذهب ، وبأيديهنّ قلوب<sup>٥٧</sup> النخل ، وأغصان الزيتون<sup>٥٨</sup>.

وشارك المسلمون النصارى في خميس الأسرار ، وعيد الفصح ، وعيد العنصرة ، وعيد القديسة أشمونة<sup>٥٩</sup>. وكان يجري ، في هذه الأعياد ، الكثير من الزينة ، واللّهو ، والطرب ، والرقص ، والمباريات المختلفة. واحتفل المسلمون بعيد البربارة في الرابع من كانون الأوّل<sup>٦٠</sup> ، وبعيد الميلاد الذي كانوا يوقدون فيه النيران. واحتفل المصريّون ، بنوع خاص ، بعيد الغطاس ، فكانوا يسرون مع ملوكهم وأمرائهم في الشوارع ، حاملين الشموع والمشاعل ، حتى إذا وصلوا إلى النيل ، أقاموا حوله ، وفي زوارق عليه ، المأكّل والمشارب والملاهي ، والتزموا العزف والقصف ، وغطس كثيرون منهم في النيل ، معتقدين أنّ مياهه تشفي المرضى ، وتقوّي الأصحاء ، وتمدّهم بالمناعة والعافية. ولم تكن هذه الأعياد تخلو من التهنّك والمجون ، بل إن الكثيرين من الناس ، رجالاً ونساءً ، كانوا يحلّلون فيها ما يعقّون عنه في سائر الأيام. واحتفلوا برأس السنة في ثلاثة تواريخ : رأس السنة الفارسيّة والشاميّة في أوّل الربيع ، ورأس السنة القبطيّة بمصر في آخر آب ، ورأس

٥٦. الشابشتي : الديارات ، دير درمالس ص ٣ ، ودير سبالو ، ص ١٤ ؛ ودير الثعالب ، ص ٢٤ ؛ ودير مديان ، ص ٣٣ ؛ ودير أشموني ، ص ٤٦ ؛ الخ...

٥٧. قلب النخلة هو رأسها اللّين الذي لم يشتد فيصير جذعاً ، ويُقال لقلب النخلة جُمارة والجمع جُمّار.

٥٨. الأغاني : ١٣٨/١٩.

٥٩. أشمونة ، في سفر المكابيين ، شهيدة يهودية رفضت مع أولادها السبعة لمس لحم الخنزير ، المحرّم بالشرع ، وأكله ؛ فقتلهم ، واحداً واحداً ، الامبراطور انطيوخس الثالث الكبير (٢٤٢ - ١٨٧ ق.م.) شرّ قتلة بالقطع والسلخ والزيت والنار.

٦٠. لما كان عيد البربارة في وقت الأمطار ، ورد في أقوالهم المأثورة : «إذا جاء عيد برّبارّه فليتخذ البناء زَمّارة» ، يعني فليقنّ في بيته (المقدّسي : أحسن التقاسيم ، ص ١٨٢).



السنة الهجرية في أوقات مختلفة. ومن أكبر أعياد المسلمين الدينية : الأضحى والفطر. وكانت تروج فيها الأضاحي والمأكّل الفاخرة<sup>٦١</sup>.

## جيم - الأعياد الزمنية \* النيروز

النيروز أو النوروز<sup>٦٢</sup> هو عيد مطلع السنة الشمسية الفارسية في أول الربيع. غير أنّنا وجدنا الخلفاء العباسيين يحتفلون به في حزيران شهر الحصاد وجمع الخراج، شأن المعتضد (٨٩٢ - ٩٠٢) الذي أمر بترك افتتاح الخراج في نيروز العجم، وتأخير ذلك الى اليوم الحادي عشر من حزيران، وسُمّي ذلك «النيروز المعتضدي»<sup>٦٣</sup>. ثم أُعيد الى شهر آذار في القرن الحادي عشر.

إعتاد الفرس أن يقيموا، في هذا العيد، احتفالات شعبية، وأن يوزّعوا الصدقات والهدايا، والشعب متجمع في الطرق والساحات، يرشّ بعضه بعضاً بالماء، ويوقد نيران الفرح، كما كان الامبراطور الفارسي يظهر على الشعب بكل مظاهر أبهته ومجده. فأخذ العباسيون هذه العادات عن الفرس، وأصبح الخليفة العباسي يقطع شوارع بغداد بجلّته الملكية الفاخرة، والجنود من حوله، والنافخون بالأبواق، وحملة المشاعل. ويجلس الناس، فيفرّق لهم المأكّل والكُسُوات، ويخلع على قوّاده وكبار قومه الخلع السنيّة، وينثر الدراهم في كل اتجاه، والناس في خفة وجور يتراشون بالماء بأنابيب خاصة من فضة ونحاس. كما قد يبادل بعض كبار القوم ووجهائهم الخليفة هداياه<sup>٦٤</sup>. وربّما جرت في هذا العيد، وخصوصاً بمصر، مظاهر من التخفيّ والتزيين والترويع شبيهة بما نعهده اليوم في عيد الكرنفال<sup>٦٥</sup>.

٦١. المقدّسي: أحسن التقاسيم، ص ١٨٢؛ وآدم متر: الحضارة الإسلامية، ٢/٢٨٥ - ٢٨٩ و ٢٩٧.

٦٢. من الفارسية: اليوم الجديد.

٦٣. الطبري، ٣٩/١٠.

٦٤. المسعودي: مروج الذهب، ٤/١٧٤؛ والمبرد: الكامل، ٢/٦٨٩. وفيها هدية الشاعر أبي العتاهية الى

المهدي في عيد النوروز (أو المهرجان)، وهي كناية عن برية فيها ثوب ممسك مكتوب عليه بالعنبر:  
نفسى بشيء من الدنيا معلقةً الله والقائم المهدي يكفينا  
إنّي لأبأس منها ثم يطمعي فيها احتقارك للدنيا وما فيها

٦٥. أحمد أمين: ضحى الإسلام، ١/١٠٢؛ وآدم متر: الحضارة الإسلامية، ٢/٢٩٣.

## \* المهرجان

المهرجان<sup>٦٦</sup> ، عند الفرس ، يماثل في أهميته عيد النيروز . وهو يقع في أول الشتاء ، بعد مئة وأربعة وتسعين يوماً من النيروز . وقد أبقى له المسلمون القيمة نفسها . وكان يخرج فيه الخليفة بمثل ما يخرج في العيد السابق ، ويخلع على رجاله ملابس الشتاء . والناس يتبادلون الهدايا ، ويخصّون الخليفة أو السلطان بأثمنها وأروعها ، وهو يقبلها بحكم العادة المتبعة . وكانت عامة الناس تنتظر هذا العيد لتبدّل ما يوافق الشتاء من الملابس ، والأثاث ، والأدوات المنزلية<sup>٦٧</sup> .

وهكذا بدت الثقافة الدينية زمن الدولة العباسية مرتكزة على الإسلام السنّي بكل ما توزّع فيه من فرق ومذاهب ، ومتفاعلة مع سائر الديانات المنتشرة في الخلافة بعقائدها وأعرافها ، وخصوصاً المسيحية واليهودية ، وآخذة عن الفرس أعيادهم الزمنية الشديدة التأثير بمظاهرها واحتفالاتها ، ممّا غدّى الروح الإسلامية بروافد حضارية جديدة ، ظهر أثرها على المستوى الاجتماعي والشعبي ، ووقفت السلطة بقوة دون اختراقها عقائد الإسلام أو المساس به .



٦٦. أصل اللفظة أن عيد المهرجان يقع عند الفرس في شهر مهر ، وهو الشهر السابع من سنتهم الشمسية ،

مهرگان Mehrgân.

٦٧. آدم متر : الحضارة الإسلامية ، ٢/ ٢٩٦ .

# البحث السّاقط أهل الزمّة

- ١ - تحديدهم
- ٢ - الجزية
- ٣ - معاملتهم في القرآن والحديث
- ٤ - معاملتهم في المجتمع
- ٥ - وظائفهم
- ٦ - اضطهادهم



## أهل الذمة

يتخذ الحديث عن أهل الذمة طابعاً خاصاً ، وهو يصدر عن باحث لبناني ، في بلد يتعامل أهله ذوو المذاهب المختلفة ، منذ القديم ، بعيداً عن التعصب الطائفي ، بل في سعاية دائبة نحو التلاقي والوحدة الوطنية . وقد مهتُ بجُحي فيهم بطابع علمي ، وقسمته الى أقسام تساعد على بلورة مفهوم أهل الذمة في المجتمع العباسي ، ومعاملة الذميين في المبدأ والواقع . ولا شك في أن مفهوم أهل الذمة قديم ، انقرضت ذبوله بانقراض السلطنة العثمانية . وإنما نبحت فيه مظهرًا من مظاهر الحضارة العباسية ، وصورة من صور التعامل الانساني القديم ، أيام كانت النظرة الى الانسان تطال المظهر والصورة مثلما تتناول المخبر والجوهر . ومن يتبع مزيداً من التفاصيل في هذا الموضوع يمكنه الرجوع الى مؤلف واسع لابن قيم الجوزية<sup>١</sup> بعنوان «أحكام أهل الذمة»<sup>٢</sup>.

### ١ - تحديدهم

أهل الذمة ، أصلاً ، هم النصارى واليهود الذين كانوا يعيشون في المجتمع الإسلامي ، وقد أعطاهم الرسول ذمته وأمانه . ولم ينحصر لفظ أهل الذمة باتباع الملتين السماويتين الكبيرتين ، وإنما شمل طوائف أخرى مثل الصابئة والمجوس والزرذشتيين والسامريين<sup>٣</sup>.

١. الشيخ شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر الزُرعي . توفي عام ١٣٥٠ . كان فقيهاً حنبلياً أخذ عن ابن تيمية .

٢. حقّق الكتاب الدكتور الشيخ صبحي الصالح ، ونشره في آخر طبعة له دار العلم للملايين في بيروت عام ١٩٨١ .

٣. D. SOURDEL, *L'Islam médiéval*, p. 163 . والسامريون يخالفون اليهود في نقاط ، منها أنهم لا يقرّون

وشكّل أهل الذمة طبقة غير داخلية في صلب المجتمع الإسلامي ، فهم معاهدون ، سمح لهم المسلمون بالإقامة في الدولة الإسلامية . فإنّهم يعيشون على هامش المجتمع ، تقريباً ، بصفة ضيوف دائمين ، يترتب عليهم واجبات لقاء ما تتعهد لهم الدولة من حماية : عليهم الجزية ، وعلى المسلمين أن يدافعوا عنهم ، مؤمنين لهم حياتهم ، وكرامتهم ، وملكهم ، وتاركن لهم عقائدهم ، وما نسميه اليوم بالأحوال الشخصية ، ينظّمونها وفقاً لأوامر شرعهم ، وأمام محاكمهم الخاصة<sup>٥</sup> . وكان يُقابل الذميّ المّلي من المسلمين<sup>٦</sup> .

## ٢ - الجزية<sup>٧</sup>

إتبع الرسول والخلفاء الراشدون مبدأ التسامح الديني ، واحترموا العقائد السماوية ، ولا سيما النصرانية واليهودية ، وحافظوا على أحكام القرآن القائل : « لا إكراه في الدين »<sup>٨</sup> . إلاّ أنّه كان على أهل الذمة أن يدفعوا الجزية للاحتفاظ بحرية عقائدهم وشرائعهم . والجزية ضريبة على الأعناق تغني غير المسلم عن فريضة الجهاد . وقيل إنّها فرضت على الذميين مقابل الزكاة على المسلمين<sup>٩</sup> . ولم تكن الزكاة تقلّ عنها في كثير من الأحيان<sup>١٠</sup> . وتشدّد الاسلام في جبايتها ، فقال : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون »<sup>١١</sup> . ولم ترد كلمة جزية في غير هذه الآية . ووقع بعض الاختلاف في تفسيرها ، ذلك أنّها تشمل الكفار الذين لا يؤمنون بالله وباليوم الآخر . ولكنّ تطبيقها على أهل الكتاب متفق عليه . أما لفظة « صاغرون » ، فنّ الفقهاء من

من كتب الوحي إلاّ بأسفار موسى الخمسة المعروفة بالتوراة ، أي بسفر التكوين ، وسفر الخروج ، وسفر الأخبار ، وسفر العدد ، وسفر تثنية الاشتراع . ( يبقى لليهود ٢٣ سفرًا ، ما عدا النبوءات في العهد القديم ، ثم التلمود ، وغيره ) .  
٤ . بطرس ديب : محاضرات مخطوطة أقيمت على طلاب . معهد المعلمين العالي ( الجامعة اللبنانية ) .

١٩٥٥ - ١٩٥٦ .

٥ . الطبري ، ٢٠٦/٨ ؛ قال موسى الهادي لأئمّه الخيزران : إياك ثم إياك ، ما فتحت بآبك لمّلي او لذميّ .

٦ . كلمة مأخوذة عن الضريبة الفارسية المدعوة جزيّت .

٧ . سورة البقرة ، الآية ٢٥٦ .

٨ . صبحي الصالح : النظم الإسلامية ، ص ٣٦٣ .

٩ . J.M. FIEY, *Chrétiens Syriques*, p. 45 .

١٠ . سورة التوبة ، الآية ٢٩ .

يقول إنها تعني الخضوع مع شيء من الذلّ، ومنهم من لا يرى فيها سوى الخضوع، كقولك صغر لأمر فلان، أي خضع له فقط بغير ذل. وعليهم تسليمها بأيديهم من غير وكيل أو وسيط<sup>١١</sup>.

### ٣ - معاملتهم في القرآن والحديث

خصّ القرآن الكتّابيّين بمركز ممتاز في الدولة الإسلامية على الصعيدين الروحي والاجتماعي والديني<sup>١٢</sup>. وجاء في سورة النساء، الآية ١٦٢: «لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك». وهذا يعني أنّ المتعلمين من النصارى واليهود والمؤمنين الحقيقيّين يعترفون بالإسلام. وذكر القرآن من أهل الذمة النصارى واليهود والصابئة والمجوس<sup>١٣</sup> والسامريّين<sup>١٤</sup>. أمّا الزردشتيون، فلم يأت على ذكرهم.

وهاجم القرآن النصارى الذين يؤلّهون المسيح: «إنما المسيح بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه»<sup>١٥</sup>. وفي هذه الآية شجب لعقيدة التثليث. وفي سورة المائدة، الآية ٧٣: «لقد كفر الذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة». وفي السورة نفسها (الآيتان ١٧ و ٧٢) إشارة واضحة إلى المسيحيّين: «لقد كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيح بن مريم». ويخالف القرآن قول المسيحيّين بصلب المسيح، فعيسى لم يُصلب، وإنما شبه صلبه لمريدبه<sup>١٦</sup>. وفي سورة البقرة، الآية ١٢٠، قول صريح بأن الاعتقاد باليهوديّة والنصرانيّة لا يجوز بعد أن جاء الإسلام: «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى إلّا أن تتبع ملّتهم. قل إنّ هدى الله هو الهدى»<sup>١٧</sup>.

١١. تفسير الجلالين، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٢، ص ٢٥٢.

١٢. سورة الشورى، الآية ١٥؛ والبقرة، الآيتان ١٣٦ و ١٣٩؛ والمائدة، الآيات ٤٦ - ٤٧ - ٦٥ -

٦٦ - ٦٩.

١٣. في آية واحدة، هي الآية ١٧ من سورة الحج.

١٤. السامريّ في سورة طه، الآيات ٨٥ و ٨٧ و ٩٥.

١٥. سورة النساء، الآية ١٧١.

١٦. النساء، الآية ١٥٧: «وما قتلوه وما صلبوه، ولكن شبه لهم».

١٧. «وما عداه ضلال»، كما يزيد تفسير الجلالين، ص ٢٥.

إلا أن القرآن فرق بين اليهود والنصارى ، وجعل النصارى أقرب مودةً للمؤمنين ، بينما اليهود أشدَّ عداوةً لهم ، لأنَّ يهود مكَّةَ وغيرها من منازلهم كادوا النبيَّ والمؤمنين وَحَارِبُوهُمْ<sup>١٨</sup> . وكان لاختلاف الاسلام عن النصرانية واليهودية في الحقل الديني تأثير في الحياة الاجتماعية . ومن الآيات التي عاجلت الناحية الاجتماعية الآيتان ٥١ و ٥٧ من سورة المائدة ، حيث ينهى القرآن المسلمين عن اتِّخاذ أهل الكتاب من اليهود والنصارى أولياء أي حلفاء<sup>١٩</sup> . وفي الآية ٥٧ المذكورة ، مبدأ عام أصبح أساساً لدستور أهل الذمة في المجتمع الإسلامي ، وهو أنَّ أهل الكتاب يدخلون في ولاء المسلمين شرطاً أن لا يطعنوا في الاسلام . والولي هو الذي يشرف على شخص ضعيف كإشراف الوصي على القاصر والرجل الولي على المرأة ، وغير ذلك . وإذا كانت الولاية بمعنى التحالف لا تجوز ، فأحرى أن لا يجوز تسليط الكتائب على المسلم ، وهو مبدأ يسلم به الفقهاء<sup>٢٠</sup> . وأوصت الأحاديث بالذميين خيراً : « ألا من ظلم معاهداً أو حملَه فوق طاقته فأنا حجبجه يوم القيامة » . ولكنَّها ، في الوقت عينه ، لم تنزل المعاهدين منزلة المسلمين أنفسهم ، وجعلت دية المعاهد نصف دية الحر<sup>٢١</sup> . وجاء في حديث أن زكاة رمضان مفروضة على المسلمين دون المعاهدين<sup>٢٢</sup> . وكثرت الأحاديث التي تفرد لأهل الذمة مكاناً خاصاً ، وتطلب أخذهم بالحسنى<sup>٢٣</sup> .

١٨ . سورة المائدة ، الآية ٨٢ : « لتجدنَّ أشدَّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدنَّ أقربهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأنَّ منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون » ، وتفسير الجلالين . ص ١٥٩ .

١٩ . سورة المائدة ، الآية ٥١ : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولَّهم منهم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين » . وتفسير الجلالين ، ص ١٥٣ ، يعطي السبب لدعوة القرآن هذه بقوله : « لاتحادهم في الكفر » . ويفسر « القوم الظالمين » بأنهم المسلمون الذين يوالون الكفار . والآية ٥٧ تدلُّ على الذين أمر القرآن المؤمنون بترك مواليتهم : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتَّخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء... » .

٢٠ . بطرس ديب : محاضرات مخطوطة ، ١٩٥٥ - ١٩٥٦ .

٢١ . المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ، ٤٠١/٤ .

٢٢ . المرجع نفسه ، ١٨٥/٢ .



#### ٤ - معاملتهم في المجتمع

ظهرت أحكام بحجة بحق أهل الذمة ، بالنسبة لكلام القرآن ولمعاملة الخلفاء الأولين لهم . جاء في كتاب «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدي<sup>٢٣</sup> ، على لسان الوزير أبي عبد الله العارض<sup>٢٤</sup> : « وسأل وقال : هل يُسلم على أهل الذمة ؟ وهل يُبدؤون ؟ فكان أبو البخترى الداودي حاضراً ، فحكى أن عمر بن عبد العزيز سئل عن هذا بعينه ، فقال : يُردُّ عليهم السلام ، ولا بأس بأن يُبدؤوا ، لقول الله عز وجل : فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ »<sup>٢٥</sup> . وقد فرض عليهم ارتداء أزياء خاصة ، ومنعوا ركوب الخيل . وفسر الفقهاء ذلك بأنه اعتبار لما في ركوب الخيل من عز . وجرت عليهم قيود تتعلق بإقامة الشعائر الدينية كقرع الأجراس ، وفي جوارح إنشاء الكنائس وترميم المتداعي منها ، الى غير ذلك من قيود . وكانت نظرة الأديان تتفاعل مع وضع المجتمع ، ودرجة رقيه وتقدمه الانساني العام . فاليهود حفظوا لأنفسهم امتيازاً قاطعاً بأنهم شعب الله المختار ، والمسيحيون حصروا الإيمان والخلاص بمذهبهم ، وألزموا غيرهم علامات خاصة . ورد في كتاب «تعدد الأديان وأنظمة الحكم» لجورج قرم تحت عنوان «إلزام اللامؤمنين حمل شارات مميزة» : «استهل هذه العادة بجمع لاتران سنة ١٢١٥ ، وثبتها وأعاد تثبيتها بين ١٢١٥ و١٣٧٠ اثنا عشر مجمعا كنسياً وتسعة مراسيم ملكية . وقد شمل الإلزام اليهود ، والمجذومين ، والبغايا ، والهرطقة ، والمسلمين ، وغيرهم من اللامؤمنين . وكان يشكل في حال تطبيقه بصرامة - وهذا نادر - وسيلة أساسية لإنجاز عملية عزل غير المسيحيين كافة عن المجتمع »<sup>٢٦</sup> . أما أسباب هذه القيود في الدولة العباسية ، فمختلف فيها . ومن المعقول أن تثار قضية اتهام أهل الذمة بالتعاون مع بيزنطية ، وقد حكمت الظروف التاريخية والأوضاع الجغرافية بأن تكون هذه الامبراطورية على صراع مستمر مع الخلفاء .

٢٣. علي بن محمد ، توفي حوالى ٤٠٠ هـ / ١٠١٠ م .

٢٤. لعله وزير صمصام الدولة البويهى .

٢٥. الإمتاع والمؤانسة ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، بلات . ٢٠٣/٢ .

٢٦. جورج قرم : تعدد الأديان وأنظمة الحكم ، ص ١٦٩ . وبقيت مثل هذه القيود في مجتمعات العصر الوسيط حتى مطلع النهضة . ففي القرن الخامس عشر ، أصدر لويس الحادي عشر قانوناً ألزم فيه اليهود بوضع علامة على أكتافهم تميزهم من غيرهم ... (ظفر الإسلام خان : التلمود ، ص ٤٢ . وفي الكتاب خطأ مطبعي : سنة ١٣٦٩ يجب أن تقرأ ١٤٦٩ ، لأن لويس الحادي عشر حكم بين ١٤٢٣ و ١٤٨٣ ، وكان ملكاً غريب الأطوار) .

ومن جهة ثانية ، ساد في العصر العباسي الأتراك والفرس وغيرهم ممن اتهمهم العرب بالاستئثار بوظائف الدولة على حساب العنصر العربي ، فراحوا يسعون لإسقاط خصومهم بالظهور بمظهر المدافعين عن الاسلام المعزّين له . وقد يكون ذلك مما حدا بهم على التنكيل بغير المسلمين . وهنالك المراحل التعصّبية التي كثيراً ما تمرّ بها الدول ، خصوصاً القائمة منها على أساس ديني . وأفتى أبو حنيفة وحده من بين أئمة الإسلام الأربعة بإعدام المسلم الذي يقتل ذمياً<sup>٢٧</sup> . واعتبر دّيته تساوي دية المسلم ، ووافقه على هذا أحمد بن حنبل<sup>٢٨</sup> .

## ٥ - وظائفهم

بحث الفقهاء مكانة الذمي في الدولة الإسلامية وحقّ تسلمه الوظائف ، فقالوا إنه يجوز تعيين الذمي في الوظائف التي يكون فيها منفذاً لأوامر عليا صادرة عن سلطات إسلامية ، مهما علت هذه الوظائف حتى الوزارة . وسمّوا هذا النوع من الوزارة وزارة التنفيذ . أما وزارة التفويض ، وغيرها من الوظائف التي يكون فيها الموظف مفوضاً بالأمر ، فلا تجوز للذمي . وقد طبّق هذا المبدأ بوجه عام ، إلا أن أهل الذمة تبوأوا مراكز سامية ، وتمتّعوا بثقة الخليفة ، فكان منهم أطباء<sup>٢٩</sup> ، وتراجمته ، وكتابه ، والقائمون على دواوينه ، وكأعمو أسرارهم . وكثيراً ما طاب للخلفاء العباسيين أن يجالسوا أساقفة المسيحيين ، ويجاوروهم ، وينظروهم في الدين . وقبل إن المنصور كلّف المسيحيين ، في مطلع خلافته ، مراقبة الأمويين الباقين على قيد الحياة ، وأعوانهم<sup>٣٠</sup> .

٢٧. جورج قزم : تعدّد الأديان وأنظمة الحكم ، ص ٢٥٧ .

٢٨. صبحي الصالح : النظم الإسلامية ، ص ٣٦٥ . ولم يفرّق الإمام الأوزاعي (٧٠٧ - ٧٧٤) في مواقفه الدفاعية بين مسلم وذمي ، وكان رائده العدل والرفق والتسامح ، ووصف أهل الذمة بأنهم أحرار (صبحي محمّصاني : الأوزاعي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ص ٧٠ - ٧٣) .

٢٩. بعد ثلاث سنوات من بناء بغداد (٧٦٥) ، شكّا المنصور من معدته ، فطلب جورجيس بن جبرائيل بن بختيشوع رئيس أطباء مدرسة جنديسابور ، فأصبح له نفوذ كبير لدى الخليفة (J.M. FIEY, *Chrétiens Syriaques*, pp. 20-23) . وكان طبيب الرشيد جبريل بن بختيشوع (الطبري ، ٣٤٢/٨) .

٣٠. J.M. FIEY, *Chrétiens Syriaques*, p. 14 .

## ٦ - اضطهادهم

يمكننا أن نحمل المسيحيين أنفسهم مسؤولية بعض الاضطهاد او التضييق الذي لقيه أبناء ملتهم ، إذ كان بعض متنفذهم يلجأون الى الخليفة وعماله ، ويطلبون منهم ملاحقة إخوانهم في الدين لأسباب شخصية أو انتحائية ، أو سعيًا وراء النفوذ داخل الطائفة وخارجها<sup>٣١</sup>. ويمثل هذا التصرف السيئ الشماس الطبيب عيسى بن شهلا أو شهلوقا الذي خلف جورجيس بن جبرائيل بن بختيشوع عند المنصور. فإن عيسى هذا سعى لدى الخليفة ليعاقب المطارنة والأساقفة ، وينال من مكانتهم ، ويحبسهم ، لغايات شخصية ، وليضع يده على أموالهم ويتصرف بها<sup>٣٢</sup>.

وكان من أكثر الخلفاء تضييقًا على أهل الذمة المتوكل ، والحاكم بأمر الله الفاطمي اللذان شذا عن عهد عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس<sup>٣٣</sup> ، وعهد خالد بن الوليد لأهل الشام. فإن المتوكل ، مثلاً ، اضطهد النصارى ، فأمر بهدم كنائسهم المنشأة بعد الإسلام ، ونهاهم عن الوظيفة والأعمال العامة ، وعن إظهار شعارهم الدينية كالصلبان وغيرها ، وجعل على أبوابهم صور شياطين من خشب ، وفرض عليهم أن يرتدوا الطيالة العسليّة ، وأن يشدوا الزنار على صدورهم ، وأن يرقعوا لباس رجالهم برقعتين تحالفان لون الثوب ، ولون الواحدة غير لون الأخرى. ونهاهم عن التعلّم في كتابات المسلمين ، وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض لئلا تشبه قبور المسلمين<sup>٣٤</sup>. وربما كانت كثرة المظاهر الدينية التي اعتمدها النصارى ، آنذاك ، من أسباب منع الخلفاء لها ، وهي تبدو متعاطمة في وجه الإسلام المتقشّف<sup>٣٥</sup>.

٣١. J.M. FIEY, *Chrétiens Syriques*, pp. 14-18 et 24-25 راجع

٣٢. راجع خبره في *Ibid.*, pp. 23-25 ، وابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، منشورات دار مكتبة الحياة . بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ١٨٥ .

٣٣. شك المؤرخ اللبناني يوسف ابراهيم يزبك بالعهد المنسوب الى عمر بن الخطاب ونعته «بالعهد الزائف» (فريد اسطفان : حبيب اسطفان ، منشورات دار لحد خاطر ، بيروت ، ١٩٨٣ ، المقدمة ، ص ١٢). ومن المؤرخين من يجزم بأن تزويره ثابت تاريخيًا (الأب لويس شيخو ، مجلة المشرق م ١٢ ، ١٩٠٩ ، ص ٦٨٠ - ٦٨١).

٣٤. للتوسع راجع الطبري ، ١٧١/٩ - ١٧٢ و ١٩٦ .

٣٥. راجع مظهر جرجس ابن ملك التوبة عندما جاء بغداد زائرًا على عهد المعتصم (٨٣٦ م) ، وهو من اليعاقبة : صليب مذقّب على تاجه ، و صليب آخر على شمسته ، وفي يده صولحان ، وفي الأخرى صليب ثالث . وعن يمينه وشماله يسير فتيان نوبيون وفي أيديهم الصلبان ، وأمامه أسقف على جواد (كان الجواد محرّمًا على المسيحيين) ،

واشتدّ التضييق على المسيحيين، أحياناً، من قبل الوزراء والعمّال، كتضييق البرمكيين على النصارى بعد موت يحيى المتسامح، فإن الفضل وأخاه جعفرًا لم يكونا متسامحين مثل والدهما، وقد خرب الفضل الكنائس والديارات في خراسان، ومنع النصارى من طلاء كنائسهم باللون الأبيض لثلاً تشابه جوامع المسلمين<sup>٣٦</sup>. وشرّع القاضي أبو يوسف<sup>٣٧</sup>، في كتاب «الخراج» التفريق بين المسلم والذمي باللباس والمظاهر الخارجية بين ٧٨٦ و٧٩٨، في ظل حكم الرشيد والبرامكة<sup>٣٨</sup>. وليس لهذا التشريع أصل لا في القرآن، ولا في المبادئ الإسلامية. واستأنف السلاجقة، عام ١٠٥٦، العمل بمبادئ المتوكل، وأجبروا النصارى على وضع شارات خاصّة على لباسهم<sup>٣٩</sup>. ولم يكن وضع المسيحيين في بلاد فارس قبل الخلافة العباسية خيراً منه فيها، إذ كانت هناك شائعة قويّة تقول إن مسيحيي فارس هم الحلفاء الطبيعيون للبيزنطيين، وأعداء ملك الملوك أو الشاهنشاه. وكان امبراطور بيزنطية يعتبر نفسه دومًا حامي النصارى خارج الامبراطورية<sup>٤٠</sup>.

وبالنتيجة، إن جاز لنا أن نصدر حكمًا عامًا على أهل الذمة في العصر العباسي، قلنا إن وضعهم كان مترجّحًا بين الشدّة والرخاء بحسب الأوضاع والعهود والخلفاء. فإن نظرنا من خلال منظار قائم، بدا لنا الاضطهاد في أسوأ مظاهره، وإن نظرنا مع الأب الدومنيكي جان موريس فيه، قلنا إن المسيحيين لم يخضعوا لاضطهاد حقيقي على عهد العباسيين إلا نادرًا جدًّا<sup>٤١</sup>.

---

يحمل بيده صلياً. وكل هذه الصلبان من الذهب ( J.M. FIEY, *Chrétiens Syriques*, p. 79 ). والمعروف أنّ الممارسات الدينية العظيمة المأخوذة خصوصاً عن بيزنطية، خفّت كثيراً مع الزمن، ومع التعمق الروحي واكتشاف الذات. كما كان المسيحيون يرفعون أصواتهم في صلواتهم (Ibid., p. 97).

Ibid., p. 44. ٣٦

٣٧. هو يعقوب بن ابراهيم بن حبيب الأنصاري. وُلد في الكوفة وتوفي في بغداد عام ٧٩٨. تولّى القضاء لثلاثة خلفاء: المهدي والهادي والرشيد، ودُعي قاضي القضاة.

Ibid., p. 46. ٣٨

Michel ALLARD, in *Arabica*, 1962, p. 382. ٣٩

Ibid., p. 376. ٤٠

J.M. FIEY, *Chrétiens Syriques*, p. 275: ٤١

«Les chrétiens n'ont été que très rarement soumis, sous les abbassides, à une véritable persécution.»

وقد حسنت أوضاع أهل الذمة تحت حكم المعتضد (٨٩٢-٩٠٢) الذي فضّلهم ، ووثق بهم ، واختارهم لمساعدته . وسار ابنه المكتفي (٩٠٢-٩٠٨) على خطاه<sup>٤٢</sup> . ويستشف من كلام الجاحظ (٧٧٥-٨٦٨) أن المسلمين كانوا يفضلون المسيحيين ، في الواقع ، على المزدكيين واليهود ، وكانوا يشعرون إزاءهم بتضاؤل حضاري ، لأنهم على مذهب الامبراطورية البيزنطية ، دار العلوم والفنون والغنى<sup>٤٣</sup> . ومهما بدت أحكام القرآن مختلفة في نظرتها الى الذميين ، وبخاصة أهل الكتاب منهم ، فإن الآية السادسة والأربعين من سورة العنكبوت كادت تساويهم بالمسلمين : « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي احسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آما بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلينا وإلهمك واحد ونحن له مسلمون » .



٤٢ . Ibid., pp. 118 et 123 .

٤٣ . PELLAT, Gahiz à Bagdad, p. 54, in Ibid., p. 95 .



# المبحث السابع

## الرقيق

- ١ - تحديده
- ٢ - مصدره : أسواق الرقيق - التوالد - الحروب
- ٣ - وضعه : في القرآن والحديث - في المجتمع الإسلامي
- ٤ - العتق : تحديده - أنواعه : المكاتبه ، التدبير
- ٥ - منزلة الرقيق الحضارية .



مكتبة  
المفتدين



## ١ - تحديد الرقيق

الرقّ، لغةً، هو الضعف واللين (رَقَّة القلب مثلاً)<sup>١</sup>؛ واصطلاحاً، العبوديّة. والرقيق هو المملوك، ويُستعمل للواحد والجمع، كما يجمع أيضاً على أرقاء، ويُقال للأنثى رقيقاً ورقيقة.<sup>٢</sup> وإذا كان العبد مملوكاً هو وأبواه سُمِّي قِناً<sup>٣</sup>، فإذا لم يكن كذلك فهو عبد مملوك. قال الأصمعي: «لسنا بعبيد قِنْ ولكنّا عبيد مملكة». والقِنْ مأخوذ من القنية وهي الملك<sup>٣</sup>.

وحَدّد فقهاء الإسلام الرقّ بالعجز الحكمي<sup>٤</sup>. وكان الرقيق في الجاهلية والإسلام يُباع كالسِّلَع، ويُعامل كالسائمة (الماشية والابل) بحيث تختم رقابه، ويُقسم على الأسهم، ويتصرّف به أسياده تصرّفاً غير مشروط. ولما كان الرقيق مالاً، فقد كان يؤخذ خمس الأسرى للصالح العام، ويُقسم الباقي على المقاتلين<sup>٥</sup>.

## ٢ - مصدره

كان يتوفّر الرقيق، عادة، من أحد المصادر التالية:

١. كثيراً ما ورد هذا المعنى في أحاديث الرسول، مثلاً: «فإنّها ترقّ القلب وتُندم العين» أو «رجل رقيق القلب» (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، ٢/٢٨٦ - ٢٨٧).
٢. القِنْ بالكسر للواحد والجمع والمؤنث، وقد يُجمع على أقنان وأقنة.
٣. تاج العروس، ٩/٣١٤.
٤. ورد في الحديث «م عجز فهو رقيق» (المعجم المفهرس، ٢/٢٨٧).
٥. بطرس ديب: محاضرات مخطوطة أُلقيت على طلاب معهد المعلمين العالي، (الجامعة اللبنانية)،

### ألف - أسواق الرقيق

ازدهرت أسواق الرقيق عند العرب ، كما ازدهرت عند غيرهم من الشعوب . وكان التجار أو النخاسون والسماسرة يتفنون في عرض الأرقاء ، ويبرزون مهارتهم وميزاتهم . وإذا كثر الطلب على بعضهم يبيع بالمراد العلني ، وبلغ ثمنه آلاف الدنانير . فقد اشترى الرشيد جارية من ابراهيم الموصلبي بستة وثلاثين ألف دينار . وكان في بغداد شارع يُسمى «شارع دار الرقيق» . وكان يراقب هذه التجارة ويشرف عليها من قبل الحكومة موظف يُسمى «قيم الرقيق»<sup>٧</sup> .

### باء - التوالد

كان ابن الرقيق يعدّ رقيقاً . وإذا تزوّج رجل حرّ من أمة لا يسترق أولادها ، وتُسمى «أم ولد» ، ومترلتها فوق مترلة الجارية ، ولا يحقّ له بيعها ما دام حياً . وأصبحت الأمة تحرّر بعد وفاة زوجها في الإسلام ، ولم يكن الأمر كذلك في الجاهلية . وإذا كان الرجل متزوّجاً من حرّة ، لا يحقّ له أن يتزوّج عليها أمةً ، أما العكس فمقبول . ويمكن للرجل أن يمتلك ما طاب له من الإماء مع زوجاته الحرائر<sup>٨</sup> . وهذا يبيّن أهمية التوالد وحجمه في تكاثر الرقيق ، وتمتعه بحقوق جديدة أسبغها عليه الشرع الإسلامي .

### جيم - الحروب

كانت الحروب المصدر الأوسع للرقيق . وكلّ من وقع أسيراً ، فهو من الرقيق . ولو وقعت مدينة بأسرها عُذّ أهلها ملكاً للفاتحين مثل بيوتهم وأراضيهم ودوابهم . وعلى أثر

١٩٥٥ - ١٩٥٦ ؛ وأحمد أمين : ضحى الإسلام ، ٧٩/١ .

٦ . جاء في بعض الأحاديث : «ونحن نبيع الرقيق نُسمّئهم ساسرة» (المعجم المفهرس ، ٢٨٧/٢) .

٧ . أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ٨٣/١ - ٨٤ .

٨ . سورة النساء ، الآية ٣ ؛ وسورة المؤمنون ، الآيتان ٥ و ٦ ؛ وأحمد أمين : ضحى الإسلام : ٨٠/١ - ٨٢ . والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ، ١٢١/١ حيث جاء : «أبما رجل ولدت أمته منه فهي معتقة» وه لا تُتَّكح الأمة على الحرّة إلا أن تشاء الحرّة» .

معركة عمورية<sup>٩</sup> المشهورة بين المعتصم وملك الروم عام ٨٣٧ ميلادية ، كثر الأسرى بحيث نودي على الرقيق خمسة خمسة وعشرة عشرة للسرعة<sup>١٠</sup> . واختلفت الفقهاء في استرقاق الأسرى العرب ، فقال جمهورهم بجواز ذلك ، واعتزضت جماعة ، ومنهم الشافعي ، محتجّين بقول عمر بن الخطاب : « لا سباً على عربيّ في الاسلام »<sup>١١</sup> . وكان المسيحيّون والمسلمون ، على السواء ، يُغيرون على سواحل البلاد الاسلامية والمسيحية ، ليستولوا على الكفرة ، ويبيعوهم في أسواق الرقيق . فهاجمت أساطيل المسلمين ، ومعظمها من تونس وصقلية ، الثغور الإيطالية في القرن التاسع الميلادي . ثم واصلت الزحف عام ٨٤٦ حتى أشرفت على أسوار رومية ، ونهبت ضواحي المدينة وكنيسي القديسين بطرس وبولس . ثم حاولت ، مجدداً ، عام ٨٤٩ الاستيلاء على عاصمة المسيحية في الغرب ، فقابلها الأسطول الإيطالي المتّحد ، بعد مباركة البابا ، وهزمها . وصوّر رفائيل منظر الواقعة في قصر القاتيكان . وفي عام ٨٨٤ أُخرج المسلمون من إيطاليا كلّها ، غير أن غاراتهم عليها لم تنقطع ، الى أن هدّدوا رومية ، عام ٨٧٦ ، فاضطر البابا الى أن يؤدّي لهم جزية سنوية مقدارها ٢٥,٠٠٠ منقوص (حوالي ٢٥,٠٠٠ دولار أميركي) لكي يكفّوا عن الإغارة على رومية . ودامت الحال هكذا حتى اجتمعت قوّة البابا وامبراطوري بيزنطية والمانية ومدائن إيطالية الوسطى والجنوبية ، وهزمت العرب على نهر كرجليانو (٩١٦) . وانتهى ، بذلك ، عصر الفتوح الإسلامية في إيطاليا ، وقد دام مئة عام ، كادت فيها البلاد تصبح ملكاً للعرب<sup>١٢</sup> .

وعدا هذه المصادر المهمة الثلاثة . كانت هناك أبواب أخرى يتدفّق منها الرقيق على البلاد الإسلامية ، كتأدية خراج بعض عمّال أفريقية وتركستان ومصر رقيقاً بدل المال ، وكإرسال بعض أهل الذمة من البربر أولادهم بدل الجزية المفروضة عليهم<sup>١٣</sup> . ويذكر

٩. مدينة في آسية الصغرى .

١٠. الطبري ، ٦٩/٩ .

١١. صبحي محمّصاني : الأوزاعي ، ص ٣٨٢ .

١٢. ول ديورانت : قصة الحضارة ، ٢٧٧/١٣ - ٢٨٠ ، تحت عنوان « الإسلام في بلاد البحر المتوسط »

(٦٤٩ - ١٠٧١) .

١٣. جرجي زيدان : تاريخ التمدّن الإسلامي ، ٥٤١/٢ .

الدكتور جبور عبد النور ، في كتابه « الجوارى » ، مصدرًا آخر أقل أثرًا « هو الرقيق المسلم الذي كانت تستولي عليه جماعة القرامطة ، وتبيعه بيع الأرقاء »<sup>١٤</sup>.

### ٣ - وضعه

نعني بوضع الرقيق واقعه وطريقة معاملته في عالم يحسبه غريبًا عنه ، ويضعه دون مرتبة الانسان العادي ، فيحدّ من حرّيته ، او يسلبه إياها . وما الحرّية إلا صنو الإنسانية بمعناها الأصيل . وإذ كان الإسلام دينًا ودنيا ، وإذ كانت المجتمعات البشرية لا تطبق عمومًا ، إلا بقدر ، مبادئ الدين وأوامره ونواهيه ، رأينا أن نبحت وضع الرقيق في القرآن والحديث ، وفي المجتمع الإسلامي ، لنطلع على واقعه ، وعلى ما كان يمكن أن يكون عليه لو طبقت مبادئ الدين تطبيقًا سويًا .

### ألف - في القرآن والحديث

جاء في الآية ١٧٨ من سورة البقرة ما يشير الى أن قيمة العبد هي دون قيمة الحرّ : « يا أيها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم القصاص في القتلى الحرّ بالحرّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى الخ ... » . كما تبيّن هذا المعنى في الآية ٢٢١ من السورة نفسها ، إذ تقول : « ولأمة مؤمنة خير من مشركة ... ولعبد مؤمن خير من مشرك . الخ ... » . وفي الآية الخامسة والعشرين من سورة النساء أنه لا بأس على المسلم ، اذا لم يستطع أن يقرن بمسلمة حرّة من الاقتران بأمة مؤمنة . وإن أتت بفاحشة ، فحدّها نصف حدّ الحرّة ، تصغيرًا لشأنها : « ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فعن ما ملكت أئمانكم من فتياتكم المؤمنات ... فإن أتيت بفاحشة فعليّن نصف ما على المحصنات من العذاب » . ولم يكن الزواج بالإماء محدودًا في الإسلام ، كما هو معلوم إلا بتسديد الأجر المتفق عليه : « وآتوهنّ أجورهنّ » (الآية السابقة) . والآية الرابعة من سورة محمد تدعو الى الاسترقاق ، وتخيّر ، بعد ذلك ، المسلم بين التحرير بغير بدل ، او قبول الفدية عن الأسير وتحريره : « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منا بعد وإما فداء » .

ولم يخلُ القرآن من الآيات التي أوصت المسلمين بحسن معاملة الأرقاء، كآلية السادسة والثلاثين من سورة النساء التي جمعتهم مع الوالدين، وذوي القربى، واليتامى، والمساكين، وغيرهم. وربما كان خير ما يناسب الأرقاء من تعاليم القرآن قوله: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ»<sup>١٥</sup> و«الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ»<sup>١٦</sup>، و«إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً»<sup>١٧</sup>، وغيرها من الآيات التي تجمع المسلمين تحت حكم واحد، وتزيل كل فرق بينهم.

وأما الأحاديث النبوية، فإنها تشير الى بعض التحسن الذي طرأ في الإسلام على معاملة الرقيق. فلقد أوصى النبي بهم خيراً بقوله في حجة الوداع: «أَوْقَظْكُمْ، أَرْقَاءَكُمْ، أَرْقَاءَكُمْ»<sup>١٨</sup>، وجعلهم إخوة للمسلمين، كما قال في الخطبة نفسها، وفي حديث آخر «الْعَبِيدُ إِخْوَانُكُمْ»<sup>١٩</sup>. ولكي لا يرى المسلم مذلة واحتقاراً في لفظة عبد، قال الرسول: «كُلُّكُمْ عِبْدُ اللَّهِ»<sup>٢٠</sup>. وقال في حديث مشابه «لَا يِقْلُ أَحَدُكُمْ عِبْدِي وَأَمْتِي وَلِيَقْلَ فِتْنَايَ وَفِتْنَايَ»<sup>٢١</sup>. وكما يحق للعبد أن يدخل المساجد ويشهد الصلاة، يحق للعبدة ذلك من قول الرسول: «لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ»<sup>٢٢</sup>. وروي عن النبي أن شر الناس بنظره «من نزل وحده، ومنع رفقته، وجلد عبده»<sup>٢٣</sup>. ومن الأحاديث: «من رضي رقيقه فليمسكه، ومن لم يرض فليبعه، ولا تعذبوا عباد الله»<sup>٢٤</sup>.

١٥. سورة الحجرات، الآية ١٠. وكما الآية: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ». وتجدر الإشارة الى أن هذا القول مردد في خطبة حجة الوداع حيث قال الرسول: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ، وَلَا يَحِلُّ لِمَرءٍ مَالُ أَخِيهِ، إِلَّا عَنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ» (البيان والتبيين، دار صعب، بيروت، ١٩٦٨، ص ٢٢٩).

١٦. سورة التوبة، الآية ٧١.

١٧. سورة الأنبياء، الآية ٩٢، وسورة المؤمنون، الآية ٥٢.

١٨. المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، ٢/٢٨٧.

١٩. المرجع نفسه، ٤/١١٤.

٢٠. نفس المرجع والصفحة.

٢١. المرجع نفسه، ١/١٢١ و ٤/١١١ و ١١٤.

٢٢. المرجع نفسه، ١/١٢٣.

٢٣. الجاحظ: البيان والتبيين، دار صعب، بيروت، ١٩٦٨، ص ٢٣٠.

٢٤. المصدر نفسه، ص ٢٣١. والمعجم المفهرس، ١/١٢٢: «لَا تَضْرِبَنَّ إِمَاءَ اللَّهِ».

ورود في الأحاديث أقوال تبالغ في الحرص على العبيد ، وتتنافى مع ما للأسياد من درجات عليهم ، ومن حقّ فيهم ، كالحديث القائل « من قتل ، خَصَى ، جَدَعَ عبده ، قَتَلناه ، خَصِيناه ، جَدَعناه »<sup>٢٥</sup> ، خصوصاً أنّ في الأحاديث ما يناقض ذلك مثل : « لا يُقَاد الحرّ بالعبد »<sup>٢٦</sup> . و « أَمَّا حرّ تزوّج أمة ، فقد أرقّ نصفه »<sup>٢٧</sup> . ونرى في أحاديث مكرّرة ، وجوب موافقة السيّد على زواج عبده ، وإلاّ « إذا تزوّج العبد بغير إذن سيّده ، كان عاهراً » ، وكان « نكاحه باطلاً »<sup>٢٨</sup> ولكن ، « من أذن لعبده أن ينكح ، فالطلاق بيد العبد »<sup>٢٩</sup> . وتكفي الحرّ والعبد معاً تطليقتان ، لا ثلاث ، ليطلق زوجته الأمة<sup>٣٠</sup> . وبعد كل ذلك ، فإن الأحاديث النبوية نظرت بعدل الى هذا الانسان الناقص الحقوق والحرية ، فوعده بأجرين في الآخرة ، اذا حافظ على فرائض الدين ، وأخلص الخدمة والنصح لسيّده ، فورد تكراراً هذا القول : « العبد الذي يؤدّي حقّ الله ، وينصح لسيّده ، له أجران »<sup>٣١</sup> . وهو موقف يتوافق ومواقف كلّ الأديان التي تتعهد الفقراء والمحرومين ، وتعدهم بالآخرة السعيدة ، كما تتوعد الأغنياء الظالمين ، وتؤكد لهم حتمية الشقاء بعد زوال أمنيّاتهم الترابية بفناء جسدهم الترابيّ .

## باء - في المجتمع الاسلامي

كانت أسعار الرقيق تختلف باختلاف قيمته . وكثر الرقيق في الاسلام بحيث كانت قصور الأمراء والأغنياء تحتوي منه الآلاف . وتدنى سعره حتى لحقت قيمة العبد درهماً واحداً . وقد بيع كافور الاخشيدي صاحب مصر ، وكان عبداً حبشياً ، عام ٩٢٤ ، بثمانية عشر ديناراً<sup>٣٢</sup> . وبالمقابل ، ارتفع شأن الرقيق حتى بلغ أسمى المراتب . قال

٢٥ . المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ، ١١٤/٤ .

٢٦ . المرجع نفسه ، ١١١/٤ .

٢٧ . المرجع نفسه ، ٢٨٦/٢ .

٢٨ . المرجع نفسه ، ١٠٨/٤ .

٢٩ . المرجع نفسه ، ١١١/٤ .

٣٠ . المرجع نفسه ، ١٢٢/١ و ١٠٨/٤ حيث جاء : « طلاق الأمة تطليقتان » ، و « إذا طلق العبد امرأة تطليقتين فقد حرمت عليه » .

٣١ . المرجع نفسه ، ١٠٨/٤ و ١٠٩ .

٣٢ . آدم متر : الحضارة الإسلامية ، ٢٩٧/١ ؛ وأحمد أمين : ضحى الإسلام ، ٨٥/١ . قال المتنبي يهجو :

الجاحظ : « ليس من خلفاء بني العباس من أبناء الحرائر إلا ثلاثة : السفاح والمنصور والأمين ، والباقون كلهم أبناء الجوّاري ، وقد علقت الجوّاري لأنهنّ عزّ العرب ودهاء العجم »<sup>٣٣</sup>.

وكانت للعابلية الساحقة من الرقيق من غير العرب . وكره العباسيون استرقاق العربي الحرّ ، وفضلوا عليه الأعاجم . قال المنصور لخادم عربيّ : « أما إنك نعم الغلام ، ولكن ، لا يدخل قصري عربيّ يخدم حرّمي ، أخرج عافاك الله ، فاذهب حيث شئت »<sup>٣٤</sup>.

ولم يكن الاسترقاق محصوراً بالمسلمين ، وإنّا كان للنصارى واليهود الحق أيضاً في اقتناء الرقيق . قال أحمد أمين (١٨٨٦ - ١٩٥٤) في ضحى الإسلام : « وقد كانت المملكة البيزنطية تحرم على من ليس نصرانياً أن يملك رقيقاً نصرانياً ، ولكنّ المسلمين أباحوا لليهود والنصارى أن يملكوا الأرقاء ولو كانوا مسلمين »<sup>٣٥</sup> . ولم يكن التسريّ بالإماء مشروعاً لدى النصارى . ولا يعني هذا أنّهم تقيّدوا جميعاً بالشرع ، كما فعل طيب أبي جعفر المنصور جورجيس بن بختيشوع النصراني الذي أهدى إليه الخليفة ثلاث جوارٍ حسان روميّات ، فردّهنّ ، فسأله المنصور عن السبب ، فقال : « إنّنا ، معشر النصارى ، لا نتزوّج إلاّ بامرأة واحدة . وما دامت المرأة حيّة ، لا نأخذ غيرها »<sup>٣٦</sup> . وقليلاً ما كان اليهود والنصارى يسترقّون المسلمين ؛ فإذا أسلم الرقيق بقي رقيقاً ، إلاّ إذا كان سيّده غير مسلم ، أو إذا اعتق مكافأة له ؛ وإن كانت الشريعة الإسلامية ، بحدّ ذاتها ، لم تحرم على اليهود والنصارى اتخاذ رقيق من المسلمين<sup>٣٧</sup>.

ولا يجوز للمسلم أن يعامل عبده معاملة سيّئة ، أو أن يقتله بغير ذنب ، بل يجب ان ينفق عليه بقدر إمكانه ، تطبيقاً لما جاء في سورة النحل ، الآية ٧١ : « والله فضل

---

مَنْ عَلَّمَ الْأَسْوَدَ الْمَخْصِيَّ مَكْرَمَةً  
أَمْ أَذْنُهُ فِي يَدِ النَّخَّاسِ دَامِيَةً  
أَفْوُسُهُ الْبَيْضُ أَمْ آبَاؤُهُ الصَّيْدُ  
أَمْ قَدْرُهُ وَهُوَ بِالسَّافِلِينَ مَرْدُودُ؟  
٣٣. الجاحظ : المحاسن والأضداد ، ص ١٩٠.

٣٤. الطبري ، ٩٩/٨.

٣٥. أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ٨٣/١.

٣٦. جرجي زيدان : تاريخ التّذّن الإسلامي ، ١٥٣/٢ ، وأحمد أمين : ضحى الإسلام ، ٨٢/١.

٣٧. آدم متر : الحضارة الإسلامية ، ٢٩٦/١.

بعضكم على بعض في الرزق ، فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيماهم ، فهم فيه سواء . أفبئمة الله يحدون ؟ » وكان العبد يتزوج ويتعاطى التجارة بإذن سيده ، غير أنه وما يملك تابع ، في الواقع ، للسيّد<sup>٣٨</sup> ، إلا أن يتم اتفاق بينهما على أن يحتفظ العبد ببعض أرباحه ، فيشتري بها حريته . واختلف وضع الرقيق باختلاف العصور والأمكنة والأشخاص الذين يملكونهم . وانتشرت تجارة الإماء بنوع خاص ، وساد المبدأ القائل : « الأمة تُشتري بالعين وتُرَدُّ بالعين »<sup>٣٩</sup> . ومما وسَّع تجارة الإماء انتماءهن الى عناصر وأمم مختلفة . فكان التجار يؤمنون حاجات مختلف الأذواق . واهتم تجار الإماء اهتمامًا خاصًا بما يبيعون ، لأن تهذيب الأمة وتثقيفها يعود عليهم بالربح الوفير .

#### ٤ - العتق

لقي الرقيق لدى الشعوب الشرقية كالعبرانيين والعرب معاملة لطيفة لم يلقها عند اليونان والرومان . ودعا النبي محمد مثل موسى الى الرفق بالعبيد . وربما أسهم في حسن معاملة المسلمين للرقيق ما وجه اليه الإسلام من عدم إعطاء الجنس او العنصر أهمية كبيرة ، وتفضيل المؤمنين بحسب تقواهم . ولم يكن تحرير العبيد غريبًا عن المجتمعات القديمة جميعها ، إلا أن شروط التحرير أخذت تفقد من شدتها مع الزمن ، فإذا كانت قاسية عند اليونان ، أصبحت أسهل مع سير العهود الرومانية ، حتى تعددت منافذ التحرير في العهود الإسلامية ، وسمي العرب عملية التحرير هذه العتق أو العتاق او الاعتاق<sup>٤٠</sup> .

#### ألف - تحديد العتق

العتق هو إطلاق حرية العبد . ويحصل ذلك على أنواع كما سنبين . لكن قبل أن نبحث في أساليب العتق ، نقول كلمة في مبدئه ، ذلك أنه عملية مستحبة في الاسلام ،

٣٨ . حتى أنه كان يجوز للسيّد أن يوصي بقلّة عبده (المعجم المفهرس ، ٤/١١١) . وقلت « في الواقع » لأن في الأحاديث ما يخالف ذلك كقول بعضها « قال العبد له » (المعجم المفهرس ، ٤/١١٠) .

٣٩ . أي يراها المشتري بنفسه ، ويردّها بنفسه .

٤٠ . راجع : Dict. encycl. Quillet, 1969, pp. 2255-2256 .



وليس ذلك من وجهة عامة ، بل تترتب عليه قيمة دينية من حيث الأجر والجزاء . جاء في بعض الأحاديث : «أما رجل كانت له جارية ، فأدبها فأحسن تأديبها ، وأعتقها وتزوجها ، كان له أجران»<sup>٤١</sup> . وفي الآية الستين من سورة التوبة : «إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم»<sup>٤٢</sup> وفي الرقاب الخ ...» . وفي الآية التاسعة والثمانين من سورة المائدة كان العتق كفارة عن اليمين : «لا يؤاخذكم الله باللغو»<sup>٤٣</sup> في أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ، فكفارتُهُ إطعامُ عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ، أو كسوتُهُمْ ، أو تحريرُ رَقَبَةٍ .

## باء - أنواع العتق

أبرز أنواع العتق : المكاتبه والتدبير .

- المكاتبه هي أن يتفق السيد ورفيقه على مبلغ من المال يعتقه لقاء دفعه . وقد يُستعاض عن المال بخدمات يقدمها الرقيق من أجل إعاقته<sup>٤٤</sup> . والمكاتبه منصوص عليها في القرآن ، الآية الثالثة والثلاثين من سورة النور : «والذين يبتغون الكتاب ممّا ملكت أيمانكم فكابتوهم إن علمتم فيهم خيراً» .

- التدبير<sup>٤٥</sup> هو الإعتاق بموجب وصية يعتق العبد بحسب منطوقها بعد موت سيده . وقد يتم التدبير بموجب عقد بين الطرفين في حياة السيد ، على أن يتم التحرير بعد وفاته . ويلحق بالتدبير وضع أم الولد التي تتحرر حكماً بعد موت سيدها<sup>٤٦</sup> .

٤١ . المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ، ١٢٣/١ .

٤٢ . جاء في تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد مرتضى الزبيدي في شرح «المؤلفة قلوبهم» (٤٤/٦) : «قوم من سادة العرب ، أمر النبي في أول الإسلام بتألفهم أي بمقاربتهم وإعطائهم من الصدقات ليرغبوا من وراءهم في الإسلام ، ولئلا تحملهم الحمية ، مع ضعف نيّاتهم ، على أن يكونوا من الكفار على المسلمين . وقد نقلهم النبي يوم حنين بمائتين من الابل تألفا لهم ، وهم أحد وثلاثون رجلاً» . وجاء ص ٤٥ : «تألف فلان فلاناً إذا داراه وأنسه وقاربه وواصله حتى يستميله إليه» .

٤٣ . اللغو هو الإيم في الحلف واليمين ، وهو ما يسبق إليه اللسان من غير قصد الحلف كقول الانسان : لا والله ، وبلى والله (تفسير الجلالين) .

٤٤ . صبحي محمّداني : الأوزاعي ، ص ٧٦ .

٤٥ . أصل اللفظة من ولّى الأدبار أي الظهور .

٤٦ . المرجع نفسه ، ص ٧٦ - ٧٧ .

وخلا الطرق المشروعة للتحرّر ، ما كان يحقّ للعبد أن يهرب من سيّده . وإذا هرب سُمّي أبَقاً ، ولاحقته الدولة ، وعاقبته ، وردّته الى سيّده<sup>٤٧</sup> .  
وعرف المجتمع الإسلامي نوعاً آخر من الرقّ عبّر عنه الفقهاء بـ برقيق الأقرباء ، وقد قالوا بعدم جواز استرقاق الأقرباء ، واختلفوا في درجة القرابة التي يُحرّم معها الاسترقاق<sup>٤٨</sup> .

### ٥ - منزلة الرقيق الحضارية

اختلفت منزلة الرقيق اختلافاً كبيراً باختلاف أصله وجنسه ، وباختلاف ما يحسن من علوم وفنون . فقد كانوا يفضّلون الصقالبة ، مثلاً ، على الأتراك ، والأتراك على الأرمن ، والبيض على السود ، الى غير ذلك من الأجناس والأمم التي كانت تندفّق على الخلافة من مختلف الأصناف التي تصل إليها التجارة . وكانت العناية بتعليم الجوّاري<sup>٤٩</sup> أكثر منها بتعليم الحرائر ، فتدفع الجارية بخلاف الحرّة الى تلقف الفنون والعلوم والآداب لتصبح مقدّرة ومشوّقة حينما وُجدت . وكان من العبيد والجوّاري مهرة حذاق ، نهضوا بالمجتمع العباسي ، وكانوا زينة مجالسه بظرفهم وأنسهم ومعارفهم . واذا كانوا قد مهرّوا الدولة بأساطين ملكها ، فإنهم عزّزوها وطوّروها بثقافتهم وفنونهم<sup>٥٠</sup> .

٤٧ . وقد نصّ الحديث النبويّ على خطأ العبد الهارب وإثم عمله حيث قال : « أيّما عبد أبقَ من مواليه فقد كفر » (المعجم المفهرس ، ١٠٩/٤) .  
٤٨ . آدم متر : الحضارة الإسلامية ، ٣١٢/١ . وللتوسّع في تحرير الرقيق في الإسلام راجع : صبحي الصالح : النظم الإسلامية ، ص ٤٦٣ - ٤٧٢ .  
٤٩ . راجع كتاب الجوّاري للدكتور جبور عبد النور . وقد ذكر فيه من أجناسهن السنديات والهنديات والروميات والأرمنيات والحبيشيات (ص ٦١) .  
٥٠ . لمزيد من التفصيل ، راجع أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ٨٥/١ - ١٠٠ .

## خاتمة

لعلّه من المفيد أن أوجز في خاتمة الكتاب أهمّ الانطباعات التي تملّكني ، وأنا أسير في أبحاثه ، تقييماً ، ومراجعةً ، واستنتاجاً . لقد تبين لي ما يأتي :

الحضارة العباسية حضارة إسلامية بما هي وليدة ثقافات وشعوب أجنبية انصهرت في المجتمع العربي ، وعملت تحت راية الإسلام . ولكنّ هذا الواقع ، لا ينزع عنها الصفة العربية ، لأنها نشأت في بلاد عربية ، وكان الشعب العربيّ ، المتعصب لعروبه ، عمادها ، ونقطة الدائرة فيها . والنبيّ العربيّ ، والقرآن العربيّ ، والتاريخ العربيّ ، بروحه الخاصة ، يدفق دمًا حارًا في شرايينها . واللغة العربية تجسّد مقوماتها الروحية والأدبية والفكرية الناطقة .

سطع وهج الحضارة العباسية من القرن الثامن الى القرن الثالث عشر ، ولم يزمنها ، من الحضارات العالمية ، سوى الحضارة البيزنطية .

والحضارة العربية العباسية ذات كيان خاص ، ووجه خاص ، مثّلت دورًا طليعيًا ، متفاعلاً ، مع سائر حضارات الشرق والغرب ، ولا زالت آثارها ناطقة بدورها الفعال . ولم يستطع العرب حتى اليوم استعادة مجد الحضارة العباسية التي تكثر فيها أبحاث المستشرقين والعلماء في مختلف أقطار العالم ، وهم يبدون تقديرهم وإعجابهم بها ، وبما قدّمته للانسان .

عرف العمران ، وفن البناء خصوصًا ، ازدهارًا مميّزًا في الخلافة العباسية الغنية . وكانت بغداد جوهره الشرق . وبلغت التجارة العباسية أقاصي المعمور ، شرقًا وغربًا ، وكانت صلة وصل حضاريّ وسياسيّ ، وفرض المسلمون سيطرتهم على البحر المتوسط ، ومخروا ، بسفنهم الكبيرة ، عبابه ، وعباب المحيط .

وكان للحضارة العباسية دور ممتاز في مختلف ميادين الصناعات والعلوم والفنون ، إلّا

ما كان للإسلام تحفظ من ممارسته . كما انتظم دين الخليفة الإمام كل النشاطات الحضارية العباسية ، وحافظ على سيادته ، ووقف في وجه أيّ مسّ بعقائده وأعرافه . وقامت الحضارة العباسية ، شأن الحضارات القديمة ، على أكتاف العبيد والمرتقة ، ولم تدان الرومان في قوانينهم ونظمهم الاجتماعية المعقدة ، ولم تعرف الديمقراطية على مستوي الحكم والشعب . وكان المجتمع على كثير من التفاوت . وهزت الثورات والانفاضات الاجتماعية والدينية أركان الخلافة . ثم حلّ السلاطين البويهيون والسلاجقة محل الخليفة في الحكم وتسيير الأمور ، غير أنهم لم يستطيعوا تحويل التيار الحضاري الى خصائصهم الذاتية .

وفيما سوى ذلك ، أهملت عن قصد - كما جاء في المقدمة - التوسع في الثقافتين الأدبية والفكرية ، لما تحتاجان اليه من نظرة خاصة مستقلة ، ومن خوض واسع بعيد الغور ، متشعب الأطراف . وأرجو أن أكون قد وفقت في التزام الموضوعية في البحث ، والاستنتاج ، والتعليل ، وبيان الرأي ، بعيداً عن التعصب والهوى . والحمد لله المعين .



الرَّسُومُ التَّوْضِيحِيَّةُ



مكتبة

المفتدين

- ١ - إبريق من البرونز .
- ٢ - تصميم مدينة المنصور المدوّرة (مدينة السلام).
- ٣ - أُخَيْدِير - الواجهة الشرقيّة للحصن الخارجيّ .
- ٤ - مئذنة جامع أبي دُلف في سَمَرَا .
- ٥ - رباط محصّن في منطقة سوس المغربيّة ، مُهيأً لتزول التجار والمسافرين .
- ٦ - مسجد التاريخ في مدينة بلخ .
- ٧ - جامع ابن طولون في القاهرة .
- ٨ - كتابة كوفيّة من القرآن الكريم .
- ٩ - جرّة آجر من العهد العبّاسيّ .
- ١٠ - نجير كسر في الساعد .
- ١١ - سور مدينة القاهرة الفاطميّة .
- ١٢ - محراب جامع السيّدة نفيسة في القاهرة .
- ١٣ - المدرسة النوريّة الكبرى في دمشق .
- ١٤ - سوق النسيج في حلب .
- ١٥ - غلاف كتاب الدّرياق .
- ١٦ - مجلس ملك الغربان في كليلة ودمنة .
- ١٧ - مجلس أبي زيد السروجي في نجران .
- ١٨ - ديوسقوريدس في مجلس تعليمه .
- ١٩ - الإخوان قبل تفرّقهم .
- ٢٠ - الفرسان قبل الاستعراض في بغداد .

- ٢١ - سولون وتلاميذه .
- ٢٢ - رتاج مدرسة سلجوقية .
- ٢٣ - خزانة كتب .
- ٢٤ - الحياة في ضيعة عباسية .
- ٢٥ - خطبة في مسجد سمرقند الكبير .
- ٢٦ - سفينة عربية .
- ٢٧ - أسطُلاب .

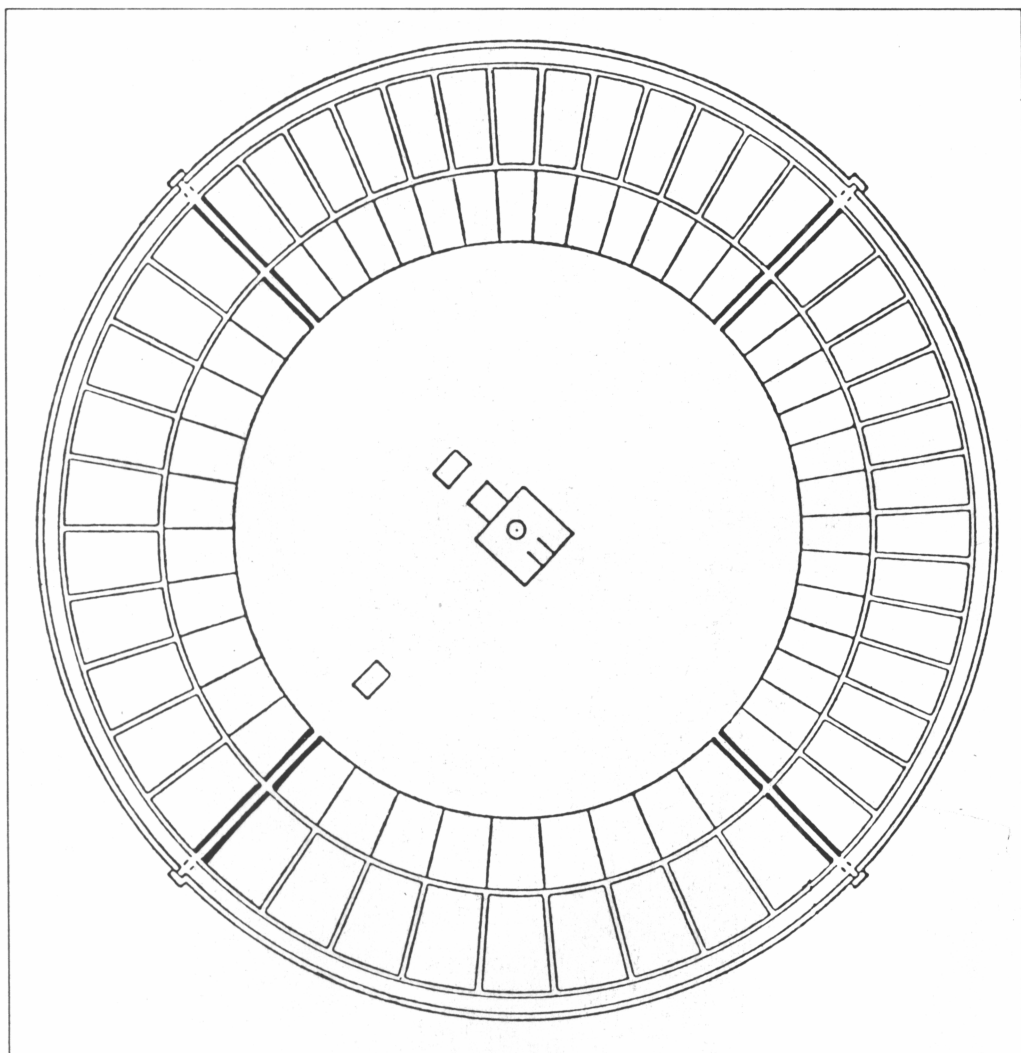






١. إبريق من البرونز، المتحف الاسلامي - القاهرة

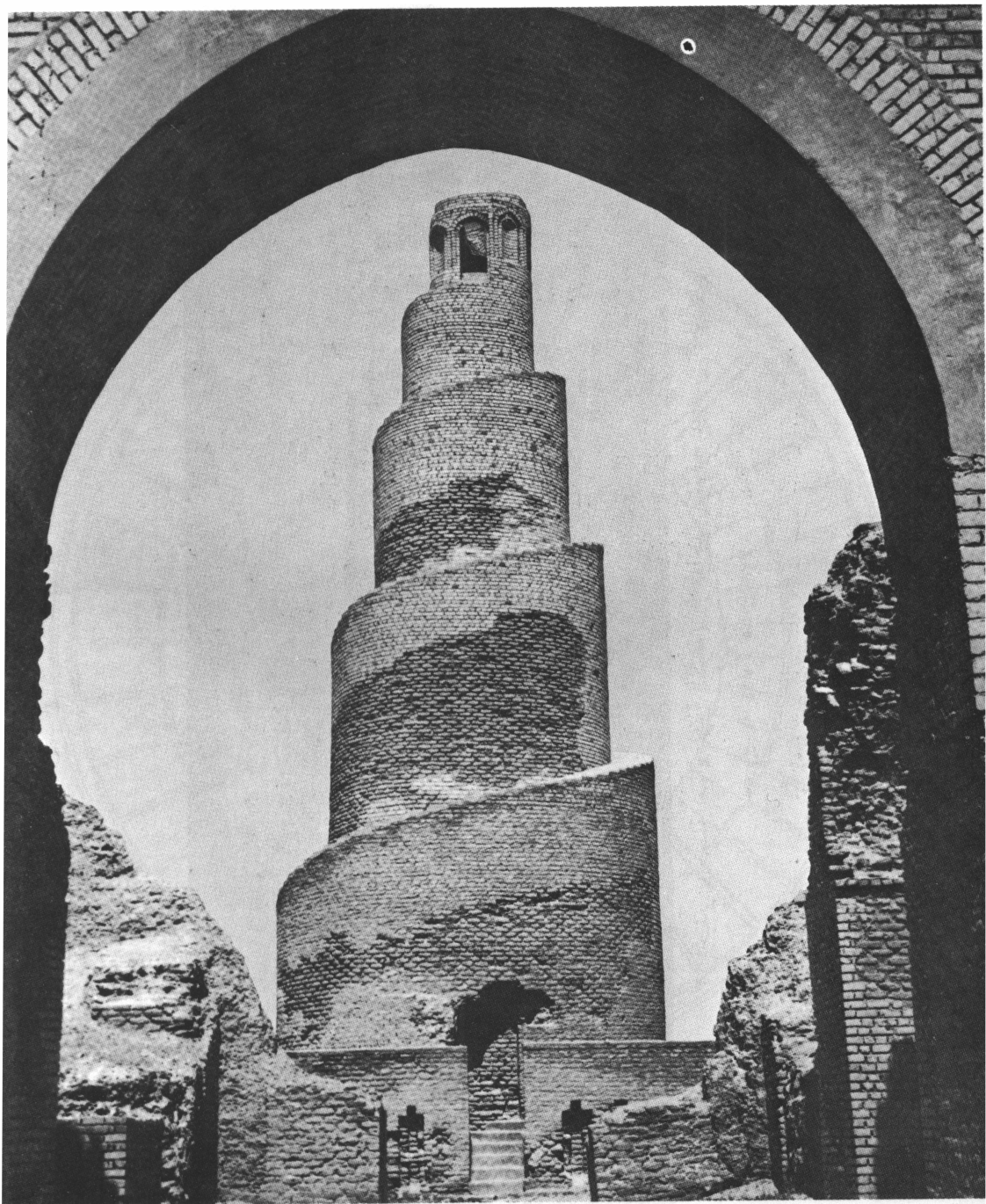
القرن الثامن



٢. تصميم مدينة المنصور المدوّرة (مدينة السلام)

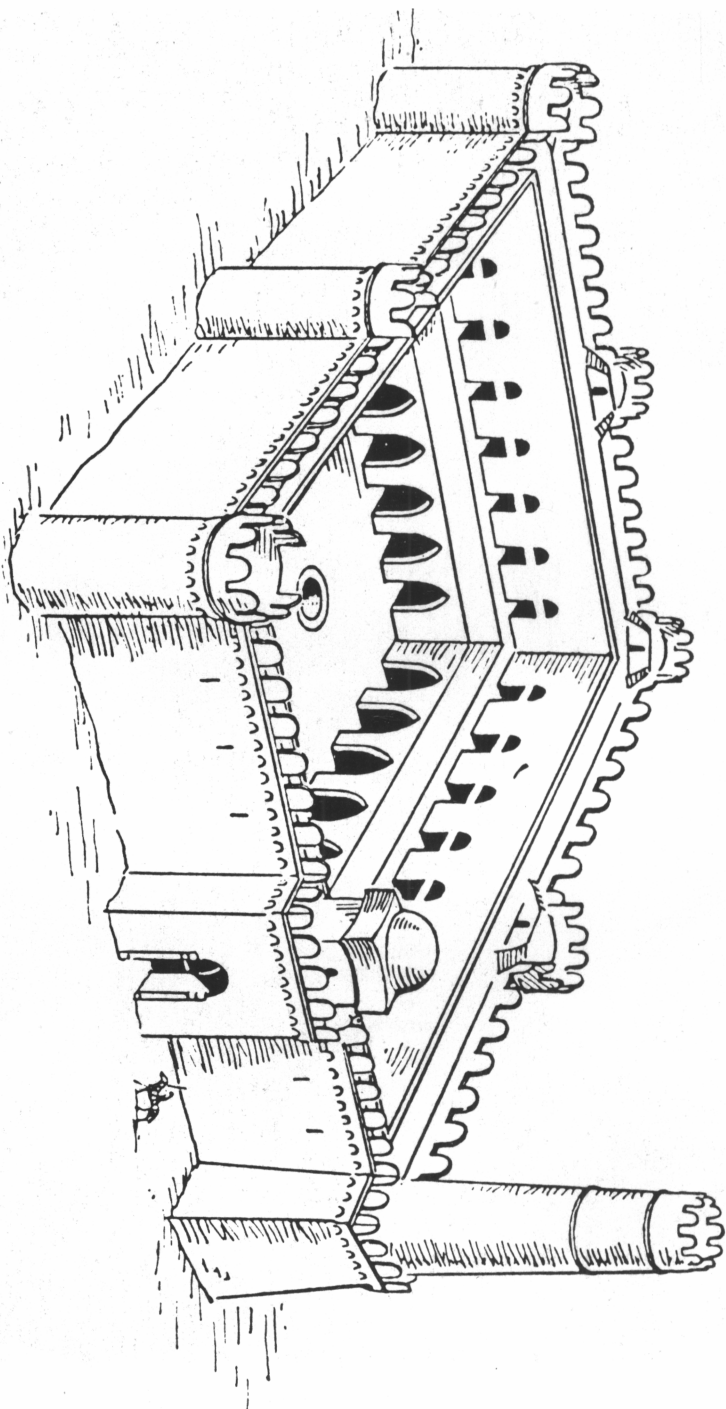
٦٧ / ٧٦٦ - ٧٦٢

مكتبة المخطوطات الإسلامية



٤. مئذنة جامع أبي دلف في سمرا

القرن التاسع



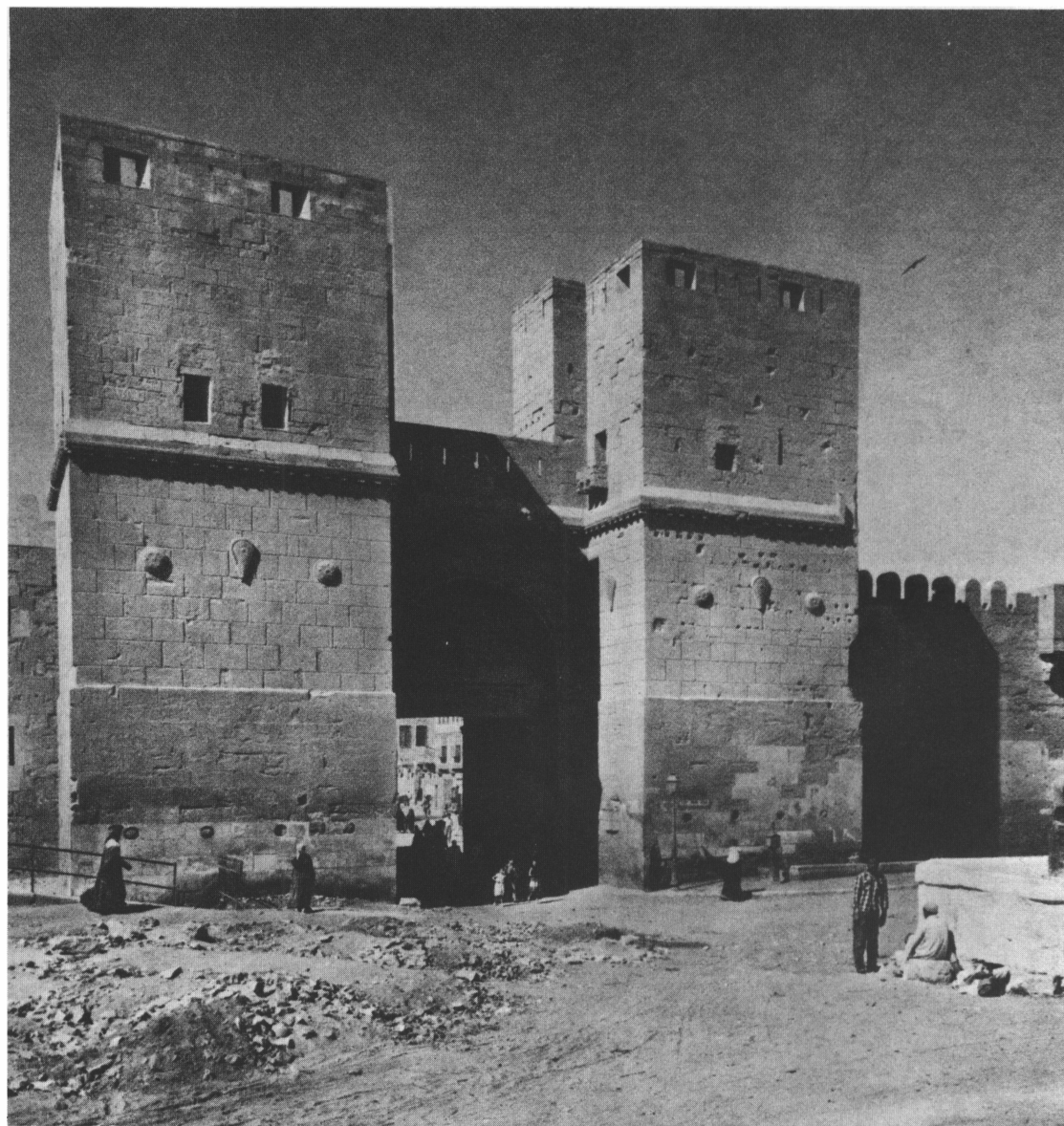
٥. رباط محصّن في منطقة سوس الغربية ، مهبطاً لتزول التجار والمسافرين  
القرن التاسع



١٠. تجبير كسر في الساعد

القرن الحادي عشر





١١. سور مدينة القاهرة الفاطمية

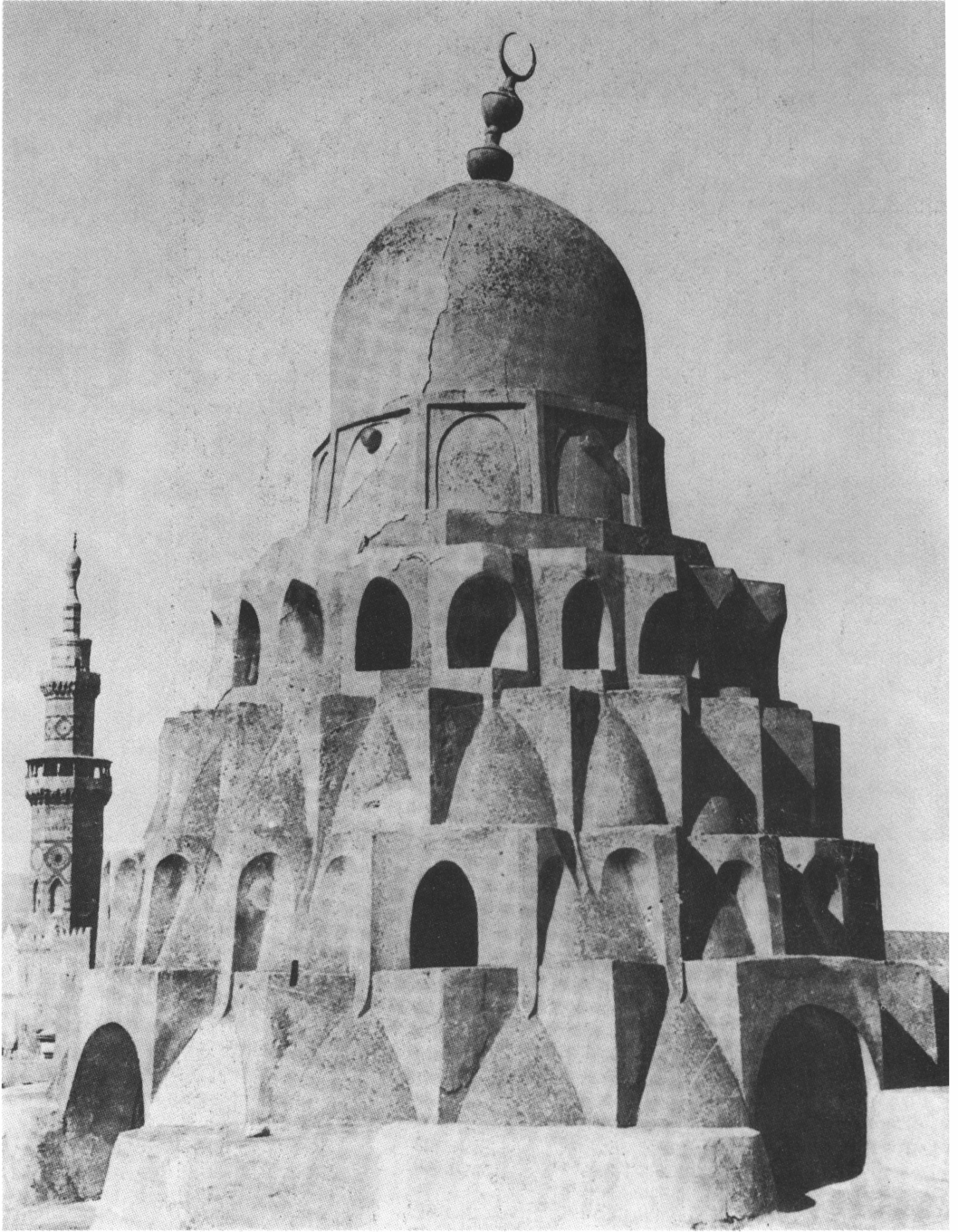
آخر القرن الحادي عشر

مكتبة المخطوطات



١٢. محراب جامع السيّدة نفيسة في القاهرة

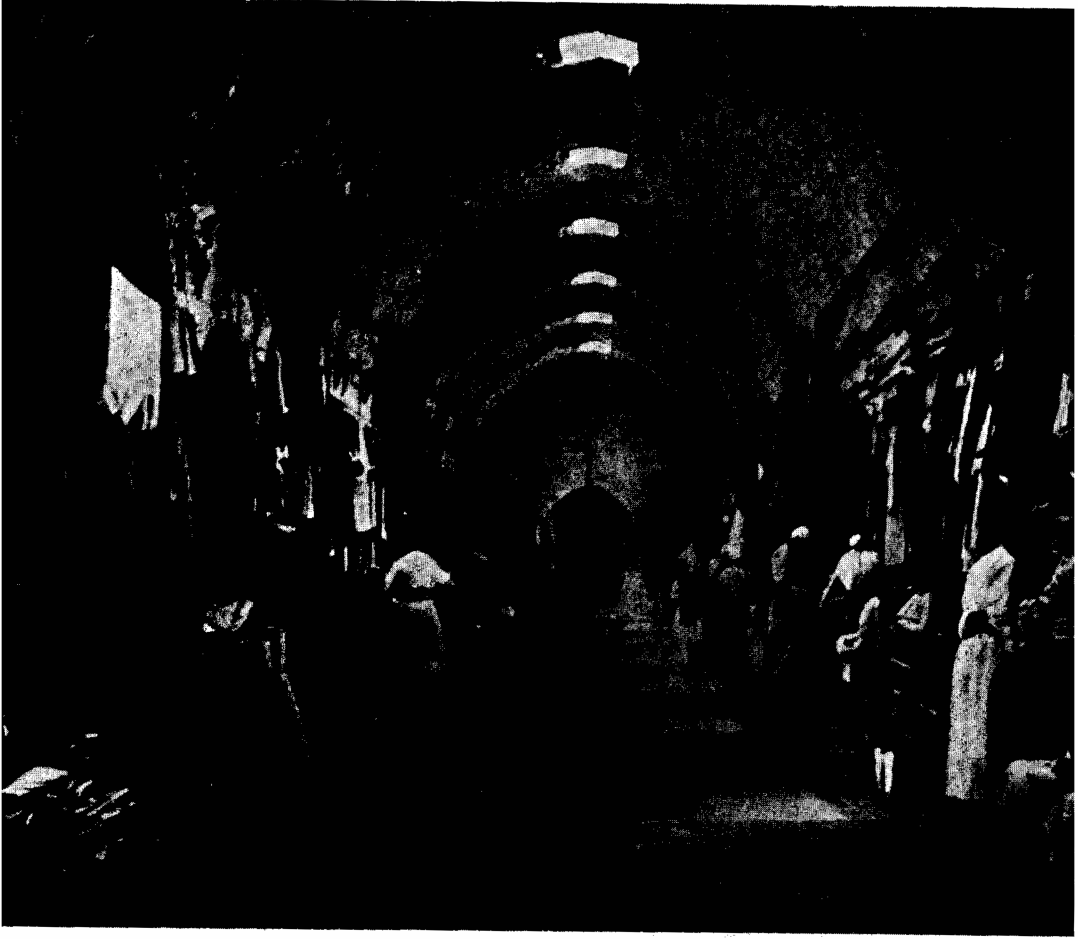
١١٣٨ - ١١٤٥



١٣. المدرسة النورية الكبرى في دمشق

القرن الثاني عشر





سُور

١٤. سوق النسيج في حلب

أواخر القرن الثاني عشر

مكتبة المتحف الوطني بدمشق



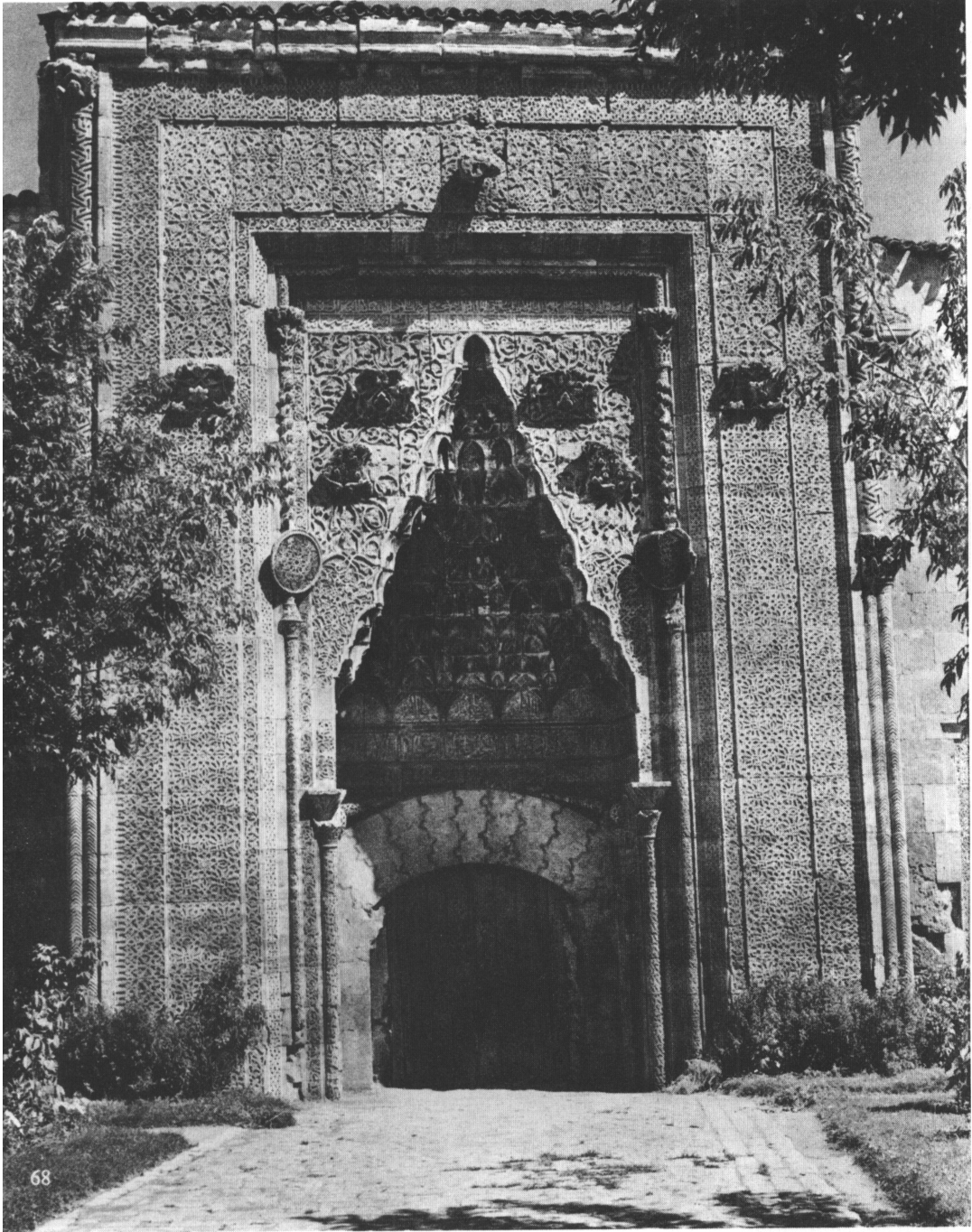
١٥. غلاف كتاب الدرياق - شمالي العراق ١١٩٩

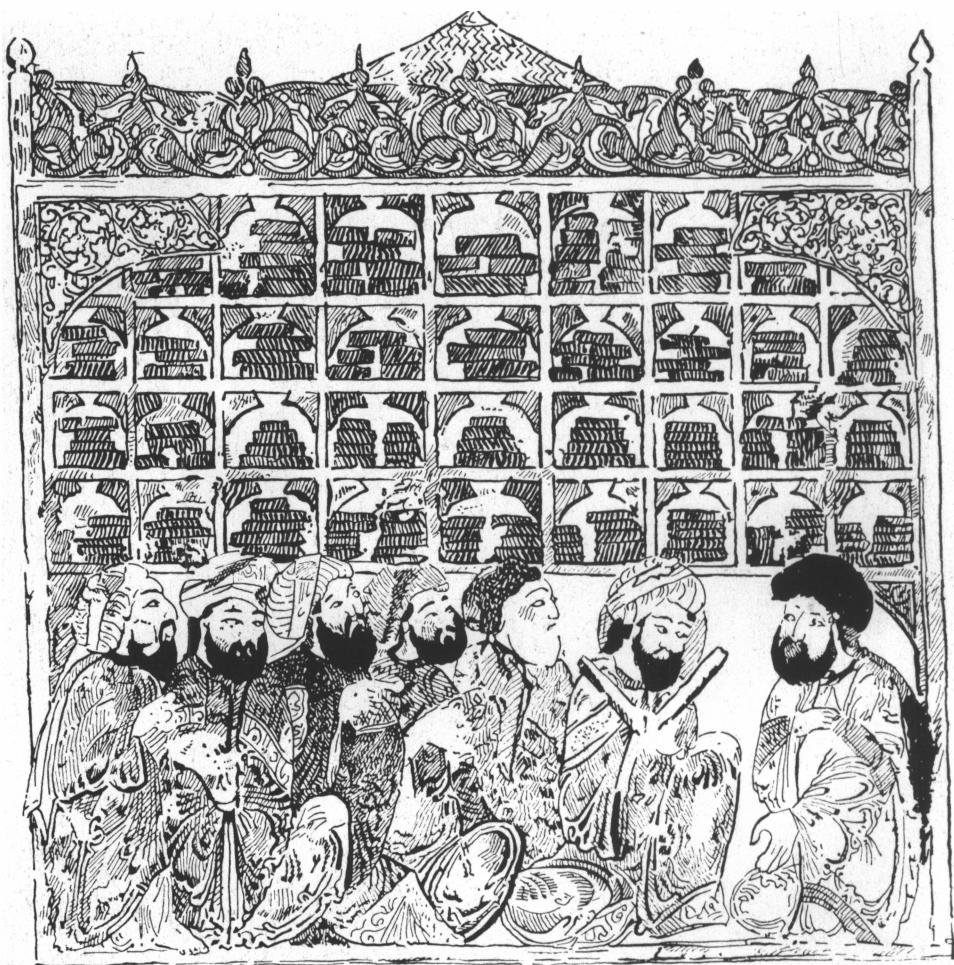


٢٠. الفرسان قبل الاستعراض في بغداد

١٢٣٧

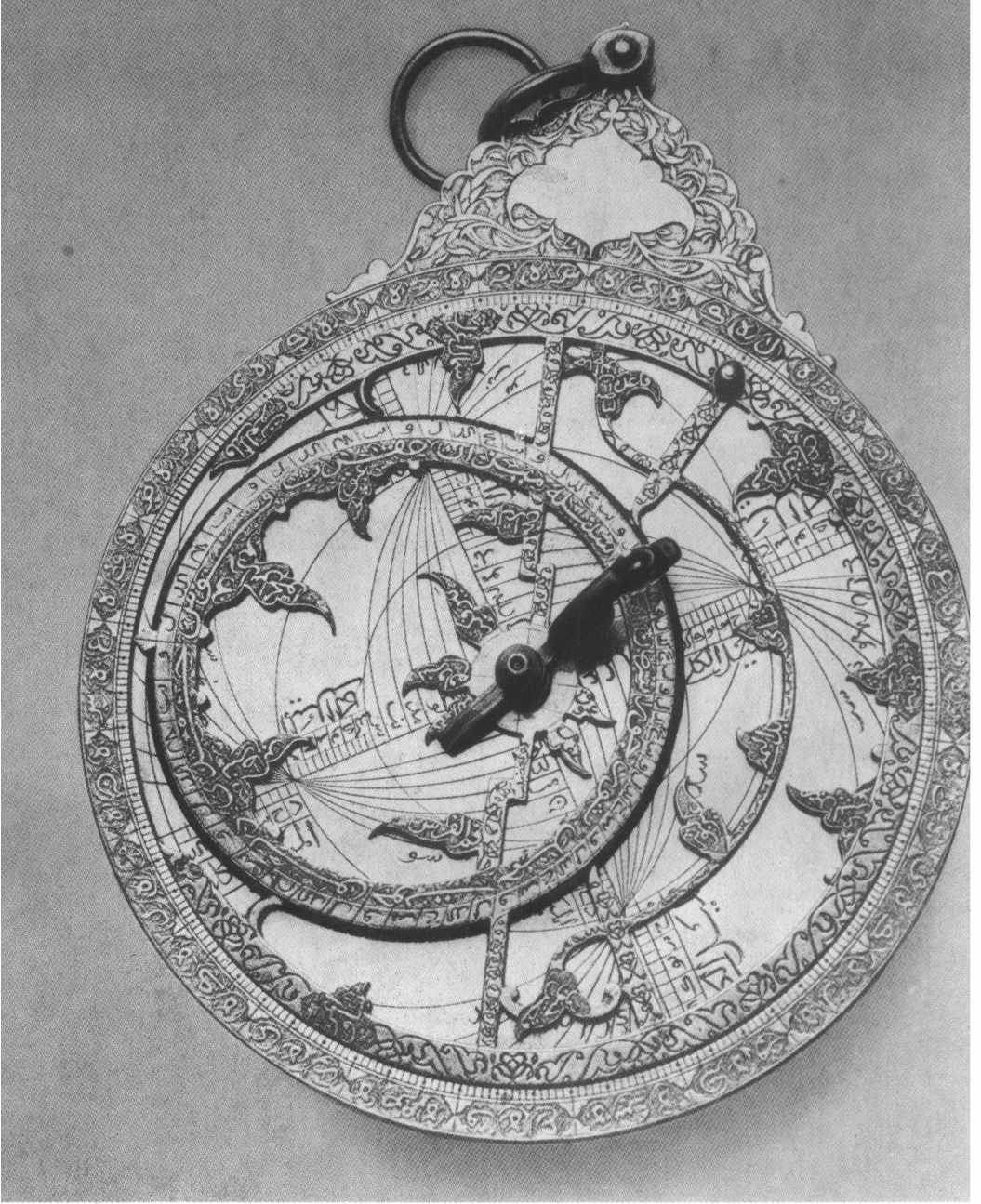






٢٣. خزانة كتب

القرن الثالث عشر



٢٧. أسطرلاب

القرن الثالث عشر

مكتبة المخطوطات في دار الكتب والوثائق القومية



مكتبة  
المفتدين

المَصَادِرُ وَالْمَرَاجِعُ





## المصادر والمراجع المطبوعة

- إبن جبير: رحلة ابن جبير، دار الكتاب اللبناني - دار الكتاب المصري، ١٩٨٢.
- إبن حوقل: المسالك والممالك، ليدن، بريل، ١٨٧٣.
- إبن خرداداذبة: المسالك والممالك، ليدن، بريل، ١٨٨٩.
- إبن الفقيه: كتاب البلدان، ليدن، بريل، ١٨٨٥.
- إبن قتيبة: عيون الأخبار (أربعة أجزاء في مجلدين)، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٥.
- إبن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة (جزآن)، تحقيق صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٢، ١٩٨١.
- إبن مسكويه: تجارب الأمم (ثلاثة أجزاء)، مطبعة شركة التمدن الصناعية بمصر، ١٩١٤-١٩١٥-١٩١٦.
- إبن النديم: الفهرست، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٨.
- إخوان الصفاء: رسائل إخوان الصفاء، دار صادر - بيروت (أربعة مجلدات)، غير مؤرخة.
- إشبنغلر، أوسوالد: تدهور الحضارة الغربية، ترجمة أحمد شياني، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٤.
- الإصطخري: مسالك الممالك، ليدن، بريل، ١٩٢٧.
- الأصفهاني، أبو الفرج: مقاتل الطالبين، منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعها في النجف، ١٩٦٥.
- أمين، أحمد: ضحى الإسلام (ثلاثة أجزاء)، دار الكتاب العربي، بيروت، غير مؤرخ.
- بدوي، عبد الرحمن: التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، دراسات لكبار المستشرقين، ط ٤، وكالة المطبوعات (الكويت)، دار القلم (بيروت)، ١٩٨٠.
- بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، ط ٧، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٧.
- البستاني، فؤاد أفرام: تمازج العناصر البشرية في بغداد العباسيين، مجلة المشرق، م ٣٢، ١٩٣٤.
- بوتمان، الأب هانز اليسوعي: البطريك طيموتاوس الأول أو الكنيسة والاسلام في العصر العباسي الأول، دار المشرق، بيروت، ١٩٧٥.

- بولس ، جواد : التحولات الكبيرة في تاريخ الشرق الأدنى منذ الإسلام ، دار عواد للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٢ .
- التوحيدى ، أبو حيان : الإمتاع والمؤانسة ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، غير مؤرخ .
- الجاحظ : البيان والتبيين ، دار صعب ، بيروت ، ١٩٦٨ .
- الجاحظ : التبصّر بالتجارة ، نشر حسن حسني عبد الوهاب ، دمشق ، ١٩٣٢ .
- الجاحظ : كتاب البلدان ، نشر صالح أحمد العلي ، مطبعة الحكمة ، بغداد ، ١٩٧٠ .
- حتي ، فيليب : تاريخ العرب ، دار غندور ، بيروت ، ١٩٦٧ .
- حسن ، حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٣ ، ط ٧ ، القاهرة ، ١٩٦٥ .
- الدمشقي : الإشارة الى محاسن التجارة ، مطبعة المؤيد ، القاهرة ، ١٩٠٠ .
- الدوري ، عبد العزيز : تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ، ط ٢ ، دار المشرق ، بيروت ، ١٩٧٤ .
- ديورانت ، ول : قصة الحضارة (٣٠ جزءاً) ، الجزء ١٣ ، جامعة الدول العربية ، ترجمة محمد بدران ، ط ٢ ، ١٩٦٤ .
- زيدان ، جرجي : تاريخ آداب اللغة العربية ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧٨ .
- زيدان ، جرجي : تاريخ التمدّن الإسلامي ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٧ .
- السكاف ، أسعد ، ومطرجي ، محمود : تاريخ العلوم عند العرب ، دار مارون عبّود ، ١٩٨٢ .
- السيوطي : تاريخ الخلفاء ، المكتبة التجارية بمصر ، ١٩٧٠ .
- الشابشي : الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، ط ٢ ، منشورات مكتبة المثني ، بغداد ، ١٩٦٦ .
- شيخاني ، سمير : أعلام الحضارة ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ، ج ٣ ، ١٩٨١ .
- الصالح ، صبحي : النظم الإسلامية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٥ ، ١٩٨٠ .
- الطبري : تاريخ الطبري ، الأجزاء ٧-٨-٩-١٠ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٦-١٩٦٩ .
- طوقان ، قلدري حافظ : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ، بيروت ، دار الشروق ، ١٩٧٩ .
- ظفر الإسلام خان : التلمود تاريخه وتعاليمه ، دار النفائس ، بيروت ، ط ٤ ، ١٩٨١ .
- عانوني ، أسامة : كنوز من الفكر العربي ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨١ .
- عبّاس ، إحسان : العرب في صقلية ، ط ٢ ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٥ .
- عبد النور ، جبّور : الجوّاري ، سلسلة «إقرأ» ، رقم ٦٠ ، دار المعارف بمصر ، ط ٢ ، غير مؤرخ .
- العسكري ، سليمان إبراهيم : التجارة والملاحة في الخليج العربي في العصر العبّاسي ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٩٧٢ .
- العقاد ، عبّاس محمود : أثر العرب في الحضارة الأوربيّة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٤٦ .

غارودي، روجيه: حوار الحضارات، ترجمة عادل العوّا، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ١٩٧٨.

الفارقي: تاريخ الفارقي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٤.

قروخ، عمر: تاريخ العلوم عند العرب، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٧.

قديح، عادل: العناصر الاستقلالية للحرف العربي بالقياس الى الفنون التشكيلية العربية، المجلة التربوية، العدد الأول، ١٩٨٢، ص ٤٣ - ٤٧.

قرم، جورج: تعدّد الأديان وأنظمة الحكم، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٩.

قيطانو، أنطوان بشاره: جدول السنين الهجرية وما يوافقها من السنين الميلادية، بيروت، ١٩٦٦.

كرنباوم: الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، ترجمة الدكتور صديقي حمدي، مطبعة أسعد بيغداد، ١٩٦٦.

لوبون، غوستاف: حضارة العرب، نقله الى العربية محمد عادل زعير، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط ٢، ١٩٤٨.

متر، آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، نقله الى العربية محمد عبد الهادي أبو ريده (مجلدان)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٤، ١٩٦٧.

محمصاني، صبحي: الأوزاعي وتعاليمه الإنسانية والقانونية، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٨.

المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، منشورات الجامعة اللبنانية (خمسة أجزاء)، تحقيق شارل بلا، بيروت، ١٩٦٦ - ١٩٧٤.

المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، بريل، ١٨٧٧.

مورينو، مارتينو ماريو: المسلمون في صقلية، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٥٧.

الموسوعة العربية الميسرة: دار الشعب ومؤسسة فرنكلن، بإشراف محمد شفيق غربال، القاهرة، ١٩٦٥.

نخلة، الأب رفايل اليسوعي: غرائب اللغة العربية، ط ٢، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٠.

هونكه، زيفريد: شمس العرب تسطع على الغرب، نقله الى العربية فاروق بيضون وكمال دسوقي، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، ط ٢، ١٩٦٩.

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر: أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية، القاهرة، ١٩٧٠.

ونسنك، أ.ي.؛ ومنسنيج، ي.ب: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي (سبعة مجلدات)، بريل، ليدن، ١٩٣٦ - ١٩٦٩.

ياقوت: معجم البلدان، دار صادر - بيروت، الجزء الأول والخامس، ١٩٥٥.

## المخطوطات

- حتامله ، عبد الكريم عبده : خلافة المعتضد بالله ، أطروحة دكتوراه حلقة ثالثة في التاريخ ، جامعة القديس يوسف ، بيروت ، ١٩٨٢ .
- ديب ، بطرس : محاضرات في النظم الإسلامية ؛ أُلقيت على طلاب معهد المعلمين العالي (الجامعة اللبنانية) ، ١٩٥٥ - ١٩٥٦ .
- فرج ، هولو جودت : البرامكة ، سلبياتهم وإيجابياتهم ، رسالة ماجستير في التاريخ ، جامعة القديس يوسف ، بيروت ، ١٩٨١ .
- الناطور ، شحاده علي : دور الموالي في المجتمع الأموي من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، أطروحة دكتوراه حلقة ثالثة ، جامعة القديس يوسف ، بيروت ، ١٩٨٢ .

## الدوريات

- جريدة العمل اللبنانية ، العدد ٩٤٦٦ ، الأحد ٢٧ شباط ، ١٩٧٧ .
- حولية فرع الآداب العربية ، جامعة القديس يوسف ، ١٩٨٢ .
- مجلة الأسبوع العربي ، العدد ١٠٤٥ ، الاثنين ٢٢ تشرين الأول ، ١٩٧٩ .
- المجلة التربوية ، المركز التربوي للبحوث والإنماء ، العدد الأول ، ١٩٨٢ .
- مجلة الحوادث ، عدد الجمعة ١٩ كانون الثاني ، ١٩٧٩ .
- مجلة الفكر العربي المعاصر ، عدد ١٢ أيار ، ١٩٨١ .
- مجلة المشرق ، م ١٢ ، ١٩٠٩ ؛ وم ٣٢ ، ١٩٣٤ .

## المراجع الأجنبية

- ABDEL NOUR, Antoine, *Introduction à l'histoire urbaine de la Syrie ottomane (XVI<sup>e</sup>-XVIII<sup>e</sup> s.)*, public. de l'Université libanaise, Beyrouth, 1982.
- Arabica*, volume spécial publié à l'occasion du mille deux centième anniversaire de la fondation de Bagdad, E.J. Brill, Leiden, 1962.
- BERQUE, Jacques, *Les Arabes d'hier à demain*, 3<sup>e</sup> édit., Seuil, Paris, 1969.
- Encyclopédie de l'Islam*, nouvelle édition, tome III, Leiden, E.J. Brill.
- FIEY, Jean Maurice, *Chrétiens Syriques sous les abbassides surtout à Bagdad (949-1258)*, Louvain, Belgique, 1980.
- GARAUDY, Roger, *Parole d'homme*, Robert Laffont, 1975.
- , *Pour un dialogue des civilisations*. Denoël, Paris, 1977.

- HUART, Clément, *Histoire des Arabes*, 2 tomes, Librairie Paul Geuthner, Paris, 1912.
- KHOURY, Paul, *Une Lecture de la pensée arabe actuelle*, trois études, Münster, 1981.
- LAMMENS, Henri, *La Syrie*, 2 vol., Imp. Cath., Beyrouth, 1921.
- LAROUÏ, Abdallah, *L'Idéologie arabe contemporaine*, François Maspéro, Paris, 1967.
- LOMBARD, Maurice, *L'Islam dans sa première grandeur (XIII<sup>e</sup>-XI<sup>e</sup> s.)*, Flammarion, Paris, 1971.
- MIELI, Aldo, *La Science arabe et son rôle dans l'évolution scientifique mondiale (du VIII<sup>e</sup> s. à la fin du XIII<sup>e</sup> s.)*, Leiden, E.J. Brill, 1966.
- MIGEON, Gaston, *Manuel d'art musulman, tome premier*, 2<sup>e</sup> édit., Auguste Picard, Paris, 1927.
- MIQUEL, André, *L'Islam et sa civilisation (VII<sup>e</sup>-XX<sup>e</sup> s.)*, Armand Colin, 2<sup>e</sup> édit., Paris, 1977.
- PIRENNE, Jacques, *Les Grands courants de l'histoire universelle*, t. II, Éditions de la Baconnière, Neuchâtel (Suisse), 1959.
- RODINSON, Maxime, *Les Arabes*, Presses universitaires de France, Paris, 1979.
- SKIRA, Albert, *La peinture arabe*, Flammarion, Genève, 1977.
- SOURDEL, Dominique, *L'islam médiéval*, Presses universitaires de France, Paris, 1979.
- SOURDEL, Dominique et Janine, *La civilisation de l'Islam classique*, B. Arthaud, Paris, 1968.



# فهرسُ الأعلام







-أ-

- إبراهيم الخليل : ١٠٥ .  
أبقراط : ١١٨ ، ١٢٠ .  
آلار (ميشال) : ٤١ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٦٨ .  
آل سامان : ٤٠ ، ٨٢ .  
الأبرش (سلام) : ٥٩ .  
الإدريسي (أبو عبدالله) : ١١ ، ١٢٦ ، ١٢٧ .  
الأسطولابي (البديع) : ١٣١ .  
الإسكندر : ١٠٤ ، ١٢٨ .  
الإصطخري : ٣٩ ، ٤٢ ، ٥٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٢٦ ، ١٢٧ .  
الأصفهاني (أبو الفرج) : ٤٨ ، ١٣٦ .  
الأصفهاني (حمزة) : ١٢٦ .  
الأصمعي : ١٧٣ .  
الألوية الحمراء : ٤٥ .  
الأمين (الخليفة) : ١٩ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٦٠ ، ٩٠ ، ١٢٢ ، ١٧٩ .  
الأوزاعي : ١٥٣ ، ١٦٦ ، ١٨١ .  
الأموي (صلاح الدين) : ٤٧ .  
الأموي (الملك الكامل) : ١٢١ .  
إبراهيم بن المهدي : ٢٨ ، ١٣٧ .  
إبن أبي الأشعث : ١١٨ .  
إبن أبي أصيبعة : ١١٦ ، ١٦٧ .  
إبن أبي بردة (بلال) : ٩٠ .  
إبن أبي جعفر (سليمان) : ٤٩ .  
إبن أبي حفصة (مروان) : ٢٧ .  
إبن أبي الساج (يوسف) : ٢٩ .  
إبن أبي سليمان (حماد) : ١٥٠ .  
إبن أبي مريم : ١٤٤ .  
إبن الأثير : ١٢١ .  
إبن إسحق (حنين) : ١٠٦ ، ١١٤ ، ١٤٧ .  
إبن إسحق (محمد) : ١٠٩ .  
إبن إسماعيل (عبدالله) : ١٤٧ .  
إبن إسماعيل (يحيى بن عامر) : ١٤٥ .  
إبن أكرم (يحيى) : ١٢ ، ١٣ .  
إبن الأعرابي : ١٠٨ .  
إبن بختيشوع (جبريل) : ١٠٥ ، ١٦٦ .  
إبن بختيشوع (جورجيس) : ١٠٤ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٩ .  
إبن بشر (ضاعد) : ١١٨ .  
إبن البيطار : ١٢١ .  
إبن تيمية : ١١٥ ، ١٦١ .  
إبن جاني (أسد) : ١١٦ .

- ابن جبير : ٣٦ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ١٢٧ ، ١٢٣ ، ٩٧ .  
 ابن حاتم (يزيد) : ٥٨ .  
 ابن حمدون : ٩١ .  
 ابن حمزة (عمارة) : ٦١ .  
 ابن حنبل (أحمد) : ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٦٦ .  
 ابن حوقل : ١١ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٨١ ، ٨٩ .  
 ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٢٥ ، ١٢٦ .  
 ابن حيّان (جابر) : ١١٣ ، ١٢١ .  
 ابن خرداذبة : ١١ ، ٦٨ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٥ .  
 ٨٩ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨ .  
 ابن الخليل (أحمد) : ٥٠ .  
 ابن دمنة : ٣٠ .  
 ابن رائق (الحسن بن محمد) : ٨٩ .  
 ابن رائق (محمد) : ٨٩ .  
 ابن رباح (بلال) : ٢٣ .  
 ابن رسته : ٧٠ ، ٨٥ ، ١٢٨ .  
 ابن رشد : ١٢٠ .  
 ابن الرومي : ١٢٢ .  
 ابن زائدة (معن) : ٢٤ .  
 ابن الزبير (مصعب) : ١٤٥ .  
 ابن زياد (طارق) : ٥١ .  
 ابن سالم (عقبة) : ٢٤ .  
 ابن سليمان (عفان) : ٨٤ .  
 ابن سليمان (محمد) : ٣٢ .  
 ابن سهل (الحسن) : ٣٣ .  
 ابن سينا : ٦٢ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٨ .  
 ابن شاعر (أحمد بن موسى) : ١٣٠ .  
 ابن شاعر (الحسن بن موسى) : ١٣٠ ، ١٣٢ .  
 ابن شاكر (محمد بن موسى) : ١٣٠ .  
 ابن شاكر (موسى) : ١٢٤ ، ١٣٠ .  
 ابن شهلا (عيسى) : ١٦٧ .  
 ابن طفج (محمد) : ٥٧ ، ٨٤ .  
 ابن طولون (أحمد) : ٥٧ ، ١٣٦ ، ١٨٧ .  
 ابن عباد (الصاحب إسماعيل) : ١٤٩ .  
 ابن عباس (إبراهيم) : ١٩ .  
 ابن عبد الرحمن (نافع) : ١٥١ .  
 ابن عبد الله (إسماعيل) : ٢٠ .  
 ابن عبد الله (علي السفياي) : ٤٩ .  
 ابن عبد المطلب (العبّاس) : ١٤٤ .  
 ابن عثمان (محمد) : ٤٥ .  
 ابن علي (عبدالله) : ٢٧ .  
 ابن عنبسة (عجيف) : ٤٥ .  
 ابن الفرات (علي بن محمد) : ٢٨ .  
 ابن الفضل (عبدالله) : ١٣٥ .  
 ابن فضلان (أحمد) : ١٢٥ .  
 ابن الفقيه : ٦١ ، ٦٦ ، ٨٤ ، ١٠٤ .  
 ابن القاسم الثقفي (محمد) : ١٠٨ .  
 ابن قتيبة : ٢٥ ، ٦٧ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ١٠٧ ، ١١٥ ، ١٤٧ .  
 ابن قرّة (إبراهيم) : ١٠٥ .  
 ابن قرّة (ثابت) : ١٠٥ .  
 ابن قرّة (سنان) : ١٠٥ .  
 ابن قيم الجوزيّة : ١٦١ .  
 ابن كثير : ٥٦ .  
 ابن كليس (يعقوب) : ٥٥ .  
 ابن لوقا (قسطا) : ٥٢ ، ١١٥ ، ١٤٧ .  
 ابن ماجد : ٩٣ .  
 ابن ماسويه (يوحنا) : ١١٤ ، ١١٨ .  
 ابن ماجد : ٨٤ .

- أردشير : ١٠٤ .  
 أرسطو : ١٠٣ ، ١١٩ .  
 أركون (محمد) : ١٤٩ .  
 أرنلديز (روجيه) : ٤١ ، ٤٣ ، ١٣١ .  
 إسطفان (حبيب) : ١٦٧ .  
 إسطفان (فريد) : ١٦٧ .  
 إشبينغلر (أوسوالد) : ٢٢ ، ١٣٣ .  
 أشمونة (القديسة) : ١٥٦ .  
 أشناس : ٥٦ .  
 أفشين : ٤٥ ، ٥٨ ، ٥٩ .  
 أفلاطون : ١٤٨ .  
 أفلوطين : ١٠٦ .  
 أماري (ميشال) : ٥٢ .  
 أمين (أحمد) : ٢٤ ، ٢٥ ، ٦١ ، ١٠١ ، ..  
 ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١٣٤ ، ١٣٧ ،  
 ١٤٦ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ،  
 ١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٢ .  
 أنطيوخس الثالث (الامبراطور) : ١٥٦ .  
 إيتاخ : ٥٩ .  
 إيتنكهاوزن (ريتشارد) : ١٣٤ .
- ب -
- البابا : ٥١ ، ١٧٥ .  
 بابك الخرمي : ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٥٩ .  
 ياسكال (ايدى) : ١٣٩ .  
 پاسكال (بليز) : ٢١ .  
 باكون (روجر) : ١٢٣ .  
 البتاني : ١٠٥ ، ١٣٠ ، ١٣٣ .  
 بدر (مولى المعتضد) : ١٢٠ .  
 بدوي (عبد الرحمن) : ٥٤ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ،  
 ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١٢٠ ،
- ابن محمد (علي) : ٤٦ ، ٤٨ .  
 ابن محمد (مروان) : ١٩ .  
 ابن مسكويه : ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ٤٣ ،  
 ٤٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ١٤٥ ، ١٤٩ .  
 ابن المعتز : ٣٨ ، ٦٦ ، ٨٤ .  
 ابن المقفع : ٦٢ ، ١٤٥ .  
 ابن منبه (وهب) : ١٤٦ .  
 ابن المنجم (علي بن يحيى) : ١٤٧ .  
 ابن النديم : ١٠٣ ، ١١٤ ، ١١٥ .  
 ابن نصير (موسى) : ٥١ .  
 ابن هرون (سهل) : ١١٤ .  
 ابن الهيثم (الحسن) : ١١٣ ، ١٢٣ ، ١٣٢ .  
 ابن وهب (عبيد الله بن سليمان) : ٤٩ .  
 ابن يحيى (علي) : ٥٥ .  
 ابن يونس (علي) : ١٢٣ ، ١٣٠ .  
 أبو البخترى الداودي : ١٦٥ .  
 أبو تمام : ٥٩ .  
 أبو حنيفة : ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ،  
 ١٥٣ ، ١٦٦ .  
 أبو دلامة : ٣٤ .  
 أبو دلف : ١٨٧ .  
 أبو العتاهية : ٣٢ ، ١٥٧ .  
 أبو عبيدة : ١٤٦ .  
 أبو عمرو بن العلاء : ٨٤ .  
 أبو لؤلؤة فيروز : ٧٤ .  
 أبو نواس : ٣٠ ، ٣١ ، ٦٢ ، ٩٠ ، ١١٨ ،  
 ١٢٤ .  
 أبو الوفاء (المهندس) : ٣٣ .  
 أبو يوسف (القاضي) : ١٥٠ ، ١٦٨ .  
 أحمد (محمد خلف الله) : ٥٣ ، ٩٣ .  
 إخوان الصفاء : ٤٧ ، ١٢٦ ، ١٣١ ،  
 ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٣٧ .

٥٧ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٠٨ ، ١٣٣ .

البيهي : ١٣ .

### - ت -

تانغ : ٨٢ .

الترمذي : ١٤٨ .

التوحيدى (أبو حيان) : ٢٠ ، ٣٣ ، ١٦٥ .

تيمور (أحمد) : ١٣٥ .

### - ج -

الجاحظ (عمرو بن بحر) : ٢٥ ، ٣٣ ، ٣٤ ،

٣٥ ، ٣٦ ، ٦٧ ، ٨١ ، ٨٥ ، ١٠٧ ،

١١٦ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٦٩ ، ١٧٧ ،

١٧٩ .

جالينوس : ٩٢ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٠ .

جَبَّور (جبرائيل) : ٢٩ .

جحظة (الشاعر) : ٨٨ .

جرجس ابن ملك النوبة : ١٦٧ .

جرجي (أدورد) : ٢٩ .

جعفر (إحسان) : ٥٠ .

جعفر (الصادق) : ١٥٠ .

الجلالي (بدر الدين) : ٥٥ .

جنكيزخان : ٤١ ، ٧٠ .

الجهشياري : ٢٦ .

جوستنيان الأول : ١٠٦ .

جولدتسير (إجتس) : ١٠٣ ، ١١٥ ،

١١٦ ، ١٤٩ .

جوهر الصقلي : ٥٥ .

الجوهري : ٢٥ .

١٢٥ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٤٣ ، ١٤٨ ،

١٤٩ .

البرامكة : ٢٥ ، ٢٩ ، ٧٦ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ،

١٦٨ .

براهما غوثنا : ١٠٨ .

البريارة : ١٥٦ .

البرمكي (جعفر) : ٢٥ ، ٢٦ ، ٧٦ ، ٧٧ ،

١٦٨ .

البرمكي (فضل) : ١٦٨ .

البرمكي (يحيى) : ٨٤ ، ١٠٩ ، ١٤٣ ،

١٦٨ .

بروكلمان (كارل) : ٤١ ، ٤٣ ، ٥٨ ، ١٣٠ ،

١٥١ .

البستاني (بطرس) : ٥١ .

البستاني (فؤاد أفرام) : ٢١ ، ٩٨ ، ١٢٧ .

بشار بن برد : ١٤٤ ، ١٤٥ .

بطرس (القديس) : ١٧٥ .

بظليموس : ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ .

بِكِر (كارل هينرش) : ١٠٣ ، ١١٨ ،

١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٤٣ ، ١٤٨ .

بَلَا (شارل) : ١٦٩ .

بلاشير (ريچيس) : ٤٢ .

بنو حمدان : ٧٢ .

بهاء الدولة بن بويه : ٦٠ ، ١٤٥ .

بوتمان (هانز) : ٢٢ ، ١٤٧ .

بوران : ٣٣ .

بولس (جواد) : ٢١ .

بولس (القديس) : ١٧٥ .

بيرك (جاك) : ٥٢ ، ١٢٢ .

البيروني : ٦٩ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ،

١٣١ .

بيرين (جاك) : ١٨ ، ١٩ ، ٢٧ ، ٥١ ،

- ح -

- د -

- الحاكم بأمر الله : ١٣٠ ، ١٦٧ .  
 حاتم (عبد الكريم) : ١١٥ .  
 حنّ (فيليب) : ٢٩ ، ٣٣ ، ٤٩ ، ٥١ ،  
 ٥٦ ، ٥٩ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ،  
 ١٠٩ ، ١١٩ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ،  
 ١٣٧ .  
 حدّاد (مارون) : ٩٢ .  
 الحرث بن كلدة : ١٠٤ .  
 الحريري (القاسم بن علي) : ٣٣ .  
 حسن (حسن إبراهيم) : ٣٧ .  
 الحسين بن علي : ٤٨ .  
 حمدي (صديقي) : ١٩ .  
 داريوس الأول : ٩٧ ، ٩٨ .  
 دانييل (باسكال) : ١٣٩ .  
 الدبس (يوسف) : ١٣٤ .  
 دعل (بن علي الخزاعي) : ٢٤ .  
 الدمشقي (أبو الفضل) : ٨٠ .  
 الدورى (عبد العزيز) : ٨٥ .  
 دوقوماس (الأبيه) : ٤٣ .  
 ديب (بطرس) : ١٥٠ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ،  
 ١٧٣ .  
 ديرغيفوتيان (آرام) : ٥٥ .  
 ديورانت (ول) : ١٧٥ .  
 ديوسقوريدس : ١٣٥ ، ١٨٧ .

- خ -

- ر -

- الخازن (أبو جعفر الخراساني) : ١٢٣ .  
 الخازن (أبو منصور عبد الرحمن) : ١٢٤ .  
 الخازن (وليم) : ١٠ ، ١٤ .  
 خالد بن الوليد : ١٦٧ .  
 خالد بن يزيد بن معاوية : ١١٣ ، ١٢٩ .  
 خديجة (زوج الرسول) : ٧٩ .  
 الخراساني (أبو مسلم) : ١٩ ، ٢٧ ، ٤٥ ،  
 ٥٠ ، ٥٨ .  
 الخرمي (أبو يعقوب) : ١٩ ، ٤٧ ، ١٢٢ .  
 الخلنجي : ٩٧ .  
 الخوارزمي (محمد بن موسى) : ١٢٩ ،  
 ١٣٢ .  
 الخوري (بول) : ١٢ .  
 الخيزران (أم الرشيد) : ٢٧ ، ٥٨ ، ١٦٢ .  
 الرازي (أبو بكر) : ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٠ .  
 الراضي بالله : ٨٤ .  
 الراوندية : ٤٥ .  
 ربيعة الرأي : ١٥١ .  
 الرشيد (هرون) : ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ،  
 ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٦ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ،  
 ٥٠ ، ٥١ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٧٦ ، ٧٩ ،  
 ٩٢ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١١٤ ، ١١٧ ،  
 ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٣٠ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ،  
 ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٦٨ ، ١٧٤ .  
 رفائيل : ١٧٥ .  
 روجيه الثاني : ١٢٦ .  
 رودانسون (ماكسيم) : ١١ ، ١٨ ، ١٩ ،  
 ٥٢ ، ٦٢ .

- ز -

٥٨ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ،

٨١ ، ٨٥ ، ٩٣ ، ١١٥ ، ١٣٧ ،

١٤٤ ، ١٤٩ ، ١٦١ .

سيف الدولة : ٦٨ .

السيوطي : ٩٠ .

- ش -

الشاشتي : ٤١ ، ١٥٥ ، ١٥٦ .

شارلمان : ٥٠ ، ٥١ ، ١٢٣ .

الشافعي : ٨٤ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ،

١٥٤ ، ١٧٥ .

شُرَيْم (يوسف) : ١٧ .

الشيبياني (أحمد) : ٢٢ ، ١٣٣ .

الشيبياني (محمد بن الحسن) : ١٥١ ، ١٥٢ .

شيخاني (سمير) : ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ،

١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ .

شيخو (الأب لويس) : ٣٩ ، ١٦٧ .

- ص -

الصائى (إبراهيم أبو إسحق) : ١٠٥ .

الصالح (صبيح) : ٢٦ ، ٧١ ، ٧٩ ، ٨٠ ،

٩٧ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٢ ،

١٥٣ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٨٢ .

صمصام الدولة البويهى : ١٦٥ .

الصولي (أبو بكر) : ١٠٧ .

- ض -

ضيف (شوقي) : ١٣٦ .

- ط -

الطائع : ٦٠ .

زُبَيْدة (زوجة الرشيد) : ٢٧ ، ٣١ ، ١٤٧ .

الزبيدي (محمد مرتضى) : ١٨١ .

زرادشت : ١٠٨ .

الزُرِكَلِي (خير الدين) : ١٣١ .

زرياب (المغني) : ١٣٦ .

الزُرْطُ : ٤٥ ، ٤٦ .

الزنج : ٤٦ .

الزهرابي (خلف بن عباس) : ١١٨ .

الزهري (محمد بن مسلم) : ١٥١ .

زيدان (جرجي) : ٥٩ ، ١١٧ ، ١١٨ ،

١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٥٥ ، ١٧٥ ،

١٧٩ .

- س -

سابور الأول : ١٠٤ .

ساخاو (كارل) : ١٣١ .

سارطون (جورج) : ١١٣ .

السرخسي (أحمد بن الطيب) : ٨٨ ، ١١٥ .

سعد (فاروق) : ١٣٨ .

السفّاح (أبو العباس) : ٢٧ ، ٢٩ ، ١٧٩ .

السكّاف (أسعد) : ١١٣ ، ١١٧ ، ١١٨ ،

١٢٤ .

سُكَيْرَا (ألبير) : ١٣٤ .

سلمان (التاجر) : ١٢٥ .

سوّار (القاضي) : ٣٢ .

السودا (يوسف) : ٤٣ ، ٥٢ .

سورديل (جانين) : ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٥٧ ،

٧٨ ، ١١٥ .

سورديل (دومينيك) : ١٨ ، ٢٣ ، ٢٤ ،

٣٢ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٥٧ ،

- الطبري (محمد بن جرير): ١٩ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩١ ، ١٢٣ ، ١٣٥ ، ١٤٤ ، ١٥٧ ، ١٦٢ ، ١٦٧ ، ١٧٩ .
- الطوسي (نصير الدين): ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٣ .
- طوقان (قدري حافظ): ١١٣ .
- طيموثاوس الأول (البطريك): ٢٢ ، ١٤٧ .
- ظ -
- ظفر الإسلام خان: ٥٥ ، ٦٢ ، ١٢٨ ، ١٦٥ .
- غ -
- غارودي (روجه): ١٨ ، ٢١ ، ٩٥ .
- الغافقي (عبد الرحمن): ١٨ ، ٥١ .
- غاليليو: ١١٣ ، ١٢٣ .
- غريغوار الثالث (البابا): ١٣٤ .
- الغزنويون: ٥٧ .
- الغزولي (علي بن عبد الله): ٧٤ .
- ف -
- الفارابي: ١١٨ ، ١٣٦ .
- الفارقي: ٣٠ ، ٦٠ ، ٧٢ ، ٨٠ ، ٩٦ ، ١٤٤ .
- فرانس (أناتول): ١٨ .
- فرج (هولجودت): ٢٦ .
- قروخ (عمر): ١٠٩ ، ١٢٢ ، ٨٤ ، ٨٣ ، ٨٢ ، ٨٤ .
- العارضي (الوزير أبو عبد الله): ١٦٥ .
- عانوفي (أسامة): ١١٧ ، ١٢٦ ، ١٣٠ .
- عباس (إحسان): ٥٢ .
- العباس بن المأمون: ٥٠ .
- عبد الملك بن مروان: ٨٦ ، ١١٤ .
- عبد النور (أنطوان): ٤٠ ، ٤١ ، ٣٦ .
- عبد النور (جَبَّور): ١٧٦ ، ١٨٢ .
- عثمان بن عفان: ١٤٩ .
- عدنان: ٢٤ .
- العراة: ٤٧ .
- العروي (عبد الله): ١٢ ، ٢٠ .
- العزیز: ٥٥ .
- العسكري (سليمان): ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ .
- عضد الدولة بن بويه: ٩٩ .
- عطالله (جوزف): ١٣٨ .
- العقّاد (عبّاس محمود): ٥٢ ، ٩٥ ، ١٠٥ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٨ .
- عُلبّي (أحمد): ٤٦ .
- علي بن أبي طالب: ٣٩ .
- عُلبّي بنت المهدي: ١٣٧ .
- عمر بن الخطّاب: ١٢ ، ٣٤ ، ٧٤ ، ١٣٦ ، ١٤٦ ، ١٦٧ ، ١٧٥ .
- عمر بن عبد العزيز: ١٠٥ ، ١٦٥ .
- عمر (فاروق): ٤٤ ، ٥٠ ، ٧٩ ، ٩٢ .
- عيسى بن المنصور: ٨٦ .



فرويد : ١١٨ .

كويلر يونغ : ٥٣ .

كييلر : ١٢٣ .

الفزاري (أبو إسحق إبراهيم) : ١٠٨ ، ١٠٩ ،

١٣١ .

- ل -

الفزاري (محمد بن إبراهيم) : ١٠٨ ، ١٢٩ .

قُسبازيان (فلافيوس) : ٩٦ .

لالاند : ١٣٣ .

فيه (جان موريس) : ٥ ، ١٠ ، ٤٢ ، ٥٠ ،

٨٨ ، ١١٤ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٦٢ ،

١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ .

لامنس (هنري) : ٥١ ، ٥٨ ، ٨٦ ، ١٣٦ .

لاون الأرمني (الإمبراطور) : ٥٦ ، ١١٤ .

لاون الثالث (الإمبراطور) : ١٣٤ .

لواساني (حسن) : ٨٦ .

لوپون (غوستاف) : ٤٣ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٦ ،

٧٩ ، ٨٥ ، ١٢٧ ، ١٣٣ .

لومبار (موريس) : ١٧ ، ١٨ ، ٤١ ، ٤٣ ،

٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥٢ ،

٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ،

٧٧ ، ٨٦ ، ٨٧ .

لويس الحادي عشر : ١٦٥ .

- ق -

القادر : ٦٠ .

القاهر بالله : ٥٩ .

قحطان : ٢٤ .

قُدَيْح (عادل) : ١٣٤ .

قرم (جورج) : ١٦٥ ، ١٦٦ .

قرمط (حمدان) : ٤٦ .

- م -

مارتيل (شارل) : ١٨ ، ٥١ .

ماسينيون (لويس) : ٤١ ، ٨٠ .

مالك بن أنس : ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٢ ،

١٥٣ .

مالك (شارل) : ٢١ .

المأمون : ١٢ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٣٣ ،

٤٣ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٦٢ ،

١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١٤ ، ١٢٢ ، ١٣٠ ،

١٤٥ ، ١٤٧ .

الماوردي : ١١٥ .

مايرهوف (ماكس) : ٥٤ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ٧

١٠٦ ، ١١٤ ، ١٢٠ .

المبرد : ١٥٧ .

- ك -

كافور : ٥٥ ، ١٧٨ .

كانار (ماريوس) : ٤١ ، ٥٩ ، ٨١ .

كايسرلينغ : ٢١ .

كرنباوم : ١٩ .

كِرُوس (بول) : ١٠٣ .

كسرى أنو شروان : ١٠٤ .

كعب الأخبار : ١٤٦ .

الْكُمَيْت الأسدي : ٢٤ .

الكندي (عبد المسيح إسحق) : ١٤٧ .

الكندي (يعقوب بن إسحق) : ٥٤ ، ١٠٣ ،

١٢١ .

كوبرنيكوس : ١٢٣ .

كورساكوف (ريمسكي) : ١٣٩ .

- متى الإنجيلي : ١٤٨ .  
متر (آدم) : ١٣ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٢٦ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٢ .  
المتني : ٦٠ .  
المتنبي : ٦٨ ، ١٧٨ .  
المتوكل : ٣١ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٨ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٨٣ ، ١٠٥ ، ١١٤ ، ١٣٥ ، ١٤٤ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ .  
المحاسبي (الحرث بن أسد) : ١٤٨ .  
محمد (الرسول) : ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٤١ ، ٤٨ ، ٦١ ، ٧٠ ، ٧٩ ، ٨٨ ، ١٣٤ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٧٣ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٣ .  
محصاني (صبحي) : ١٥٣ ، ١٦٦ ، ١٧٥ ، ١٨١ .  
مريم العذراء : ١٦٣ .  
المستعين : ٥٦ .  
المستكني : ٩١ .  
المستنصر بالله : ٥٥ .  
المسعودي : ١١ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٤ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٩١ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٤٣ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٧ .  
المسيح : ١٢٨ ، ١٤٨ ، ١٦٣ .  
المشوق (عبدالله) : ١٥٢ .  
مطر جي (محمود) : ١١٣ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٤ .  
الطبيع : ٣٤ .  
المظفر (كاظم) : ٤٨ .  
معاوية بن أبي سفيان : ٤٩ ، ٩٧ ، ١٤٦ .  
المعز : ٢٨ ، ٦٦ ، ١٥٥ .  
المعتصم : ٢٦ ، ٣٦ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٧١ ، ٩٣ ، ١٥٣ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ، ١٨٧ .  
المعتضد : ٣٧ ، ٤٩ ، ٥٩ ، ١١٥ ، ١٢٠ ، ١٥٧ ، ١٦٩ .  
المعتمد : ٣١ ، ٣٦ ، ٤٦ ، ٥٦ ، ١٢٥ .  
معز الدولة بن بويه : ٤٣ .  
المعز لدين الله : ٥٥ .  
المقتدر : ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٦ ، ٨٥ ، ١١٩ ، ١٢٥ .  
المقدس : ٢٦ ، ٣٥ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٦٧ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٨٩ ، ٩٩ ، ١٢٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٦ ، ١٥٧ .  
المقرزي : ٣٦ ، ٩٥ .  
المكتفي : ١٦٩ .  
المنجد (صلاح الدين) : ١١٨ .  
المنذر (إبراهيم) : ١٥٢ .  
المنصور : ٢٠ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ٥٨ ، ٦٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٤ ، ١٢٩ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٩ .  
المهتدي بالله : ١٣٥ .  
المهدي : ٢٢ ، ٢٦ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٥٨ ، ١١٤ ، ١٣٧ ، ١٤٤ .

- ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٥٧ ، ١٦٨ .  
 مورتينو (مارتينو ماريو) : ٥٢ ، ١٢٦ .  
 موسى (النبي) : ٦٢ ، ١٦٢ ، ١٨٠ .  
 الموصللي (إبراهيم) : ١٣٧ ، ١٧٤ .  
 الموصللي (إسحق) : ١٣٦ .  
 الموفق : ٤٦ .  
 مؤنس الخادم : ٢٨ ، ٥٩ .  
 ميجون (غاستون) : ١٣٥ ، ١٣٦ .  
 ميخائيل السرياني : ٣١ .  
 ميسرة : ٧٩ .  
 ميكال (أندريه) : ١٩ ، ٢٥ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٥٥ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٠٨ ، ١٣٠ ، ١٥٣ .  
 ميبلي (ألدو) : ١٨ .
- ن -  
 ناصر الدولة : ٢٦ ، ٤٧ .  
 الناطور (شحاده علي) : ٢٣ ، ٢٦ ، ٧٥ ، ١٣٥ .  
 النبي المقنع : ٤٥ .  
 نيسهايم (أغريافون) : ١٢٠ .  
 نخلة (الأب رفايل) : ٩٥ ، ٩٧ .  
 نصر الدولة (أحمد بن مروان) : ٢٩ .  
 نظام الملك : ٨٦ .  
 النظامي العروضي السمرقندي : ٩ .  
 نقفور بن استبراق : ٢٢ .  
 نلينو (كرلو ألفونسو) : ١٠٣ .
- ه -  
 الهادي : ٥٨ ، ١٣٧ ، ١٤٥ ، ١٦٢ ، ١٦٨ .  
 هلال بن إبراهيم : ١٠٥ .  
 هلال بن الحسين بن إبراهيم : ١٠٥ .  
 الحمداني (بدیع الزمان) : ٣٣ .  
 هوار (كليمون) : ٨٨ .  
 هورس : ٣٩ .  
 هولاكو : ٤١ ، ١٣٠ .  
 هونكه (زيغريد) : ٥٢ ، ٧٧ ، ٨١ ، ١٠٥ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٣٨ .
- و -  
 الواثق : ٣١ ، ١١٦ .  
 الوليد بن عبد الملك : ٥١ ، ١٠٨ .  
 ونسينك (أ. ي.) : ١٣٤ .
- ي -  
 ياقوت : ٣٧ ، ٤١ ، ٥٦ ، ٩١ ، ٩٩ ، ١٢٦ ، ١٢٨ .  
 يزبك (يوسف إبراهيم) : ١٦٧ .  
 اليعقوبي : ٤١ ، ٩٣ ، ٩٤ .  
 يوحنا (الرسول) : ١٤٨ .

فهرس الأماكن والمدن





- أ -

- أسوان : ٣٩ ، ٦٨ ، ٩٤ .  
أسوج : ٨٥ .  
أشروسة : ٥٦ ، ٦٨ .  
أصفهان : ٦٨ ، ٨٠ .  
أفريقية : ٥١ ، ٥٨ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ،  
٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٩٤ ، ١٢١ ،  
١٢٧ ، ١٥٤ ، ١٥١ ، ١٧٥ .  
أفغانستان : ٦٩ ، ٧٠ .  
أقور : ٣٠ ، ٩٩ .  
إكس لاشايل : ٥١ .  
ألمانية : ٥١ ، ٧٨ ، ١٧٥ .  
أمودريا : ٨٨ .  
أميركة : ١٢٦ ، ١٢٨ .  
الأناضول : ٣٩ ، ٤٦ .  
الأندلس : ٤١ ، ٥١ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ٩٨ ،  
١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٥١ ، ١٥٤ .  
أنطاكية : ٦٦ ، ٨٠ ، ٩٣ ، ١٠٥ .  
الأهواز : ٤٦ ، ٦٢ ، ٨٨ ، ٩٦ .  
أورشليم : ٦٢ .  
أوروبا : ١٨ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٨ ،  
٦٥ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٩٢ ، ٩٣ ،  
١١٥ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣٨ .  
أوغاريت : ٣٨ .  
أوكسوس : ٨٨ .
- آذربيجان : ٢٩ ، ٤٥ ، ٨٩ .  
آسية السوفياتية : ٨٨ .  
آسية الشرقية : ٩٢ .  
آسية الصغرى : ٥١ ، ١٠٥ ، ١٣٧ .  
آسية الوسطى : ٥٨ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٨١ ،  
١٢٢ ، ١٥٤ .  
آمد : ٣٠ .  
الأبلّة : ٤٦ ، ٧٣ ، ٩٠ .  
الأبواب : ٩١ .  
الاتحاد السوفياتي : ٨٩ ، ٩٨ .  
أثينا : ١٠٦ .  
أخيدير : ١٨٧ .  
أرجان : ٣٦ .  
الأردن : ٩٩ .  
أرمينية : ٢٩ ، ٤٥ ، ٨٣ ، ٨٩ ، ٩٠ .  
أزبكستان : ٦٩ .  
إسبانية : ٢٠ ، ٥١ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٠ ،  
١١٩ .  
أسترالية : ١٢٨ .  
الإسكندرية : ٨٠ ، ٨١ ، ٩٨ ، ١٠٤ ،  
١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٢٢ ، ١٢٩ .  
إسكندrinaقية : ١١ ، ٧٩ .

- إيران : ٣٩ ، ٤١ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٨ ، ٧٩ ،  
البردان : ٧٤ ، ٨٨ .  
برنستون : ٥٣ .  
إيطالية : ٥٥ ، ٧٧ ، ١١٩ ، ١٧٥ .  
البصرة : ٣٢ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٦ ،  
٤٨ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٤ ، ٨١ ، ٨٣ ،  
٨٥ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٩٥ ،  
- ب -  
باب البصرة : ١٤٥ ، ١٤٧ .  
باب الشعير : ١٤٥ .  
باب الشَّامِسيَّة : ١٤٧ .  
بابل : ١٠٣ .  
بادية الشام : ٩٩ .  
بادية العراق : ٩٩ .  
باريس : ٨١ ، ١٤٩ .  
بالوسا : ١٠٦ .  
پامير : ٨٨ .  
بحر آرال : ٨٨ .  
البحر الأحمر : ٨٢ ، ٨٣ ، ٩٢ ، ٩٤ .  
بحر البلطيق : ٧٨ .  
بحر الزنج : ٩٤ .  
بحر عُمان : ٨٢ .  
البحر الفارسي : ٩٤ .  
بحر قزوین : ٧٩ .  
البحر المتوسط : ٧٨ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٨٨ ،  
٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١١٩ ، ١٨٣ .  
البحرين : ٢٤ ، ٤٦ ، ٩٥ .  
بحيرة أرمية (بحيرة رضائية) : ٦٨ .  
بحيرة شاد : ٦٨ .  
بحيرة طبرية : ٧٠ .  
بحيرة وان : ٦٨ .  
بُخارى : ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٨ ، ٦٩ ،  
٧٣ ، ٨٧ ، ٩٨ .  
البَدَّ : ٤٥ .  
البرازيل : ٨٣ .  
بلاد الإسلام : ٢٣ .  
بلاد التتر : ٥١ .  
بلاد الرافدين : ١١ .  
بلاد الروم : ٧١ ، ٧٣ .  
البلاد السلافية : ٧٩ .  
بلاد السوس : ٩٨ .  
بلاد الشام : ٣٩ ، ٩٩ .  
بلاد الصُّغد : ٩٨ .  
بلاد النوبة : ٦٥ ، ٦٨ .  
بلجيكا : ١١٩ .  
بَلَنخ : ٧٠ ، ١٨٧ .  
البلقان : ٤٦ .  
بِمَّ : ٧٢ .

- بمبا : ٨٢ .  
بنجهير : ٦٨ .  
البندقية : ٩٠ ، ٩٣ ، ١٢٢ .  
بواتيه : ١٨ ، ٥١ .  
بوهيميا : ٤٦ .  
بيروت : ٣٩ ، ٥٦ ، ٦٩ ، ٨٤ ، ١٤٧ ، ١٥٣ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٧ .  
بيزا : ١٢٢ .  
بيزنطية : ٤٣ ، ٥٢ ، ٧٧ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ١١٩ ، ١٣٥ ، ١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٧٥ ، ١٧٩ .
- ح -  
الحبشة : ٥١ ، ٦٧ ، ٩٤ .  
الحجاز : ٢٠ ، ٩٢ .  
الحديثة : ٧٤ .  
حران : ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ .  
حضر موت : ٨٢ .  
حلب : ٣٦ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٨٧ .  
حاة : ٩٨ .  
حمص : ٩٨ ، ٩٩ ، ١٤٦ .  
حيدر آباد : ٢١ .  
الحيرة : ٧٣ .
- خ -  
خان فو : ٧٩ .  
خراسان : ١٩ ، ٢٠ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٦٩ ، ١٥١ .  
الخليج العربي (الفارسي) : ١٠ ، ٦٩ ، ٨٣ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ١٢٥ .  
خوزستان : ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٩ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩ .
- د -  
الدامارك : ٨٥ .  
تاذجيكستان : ٦٩ .  
نار (صحراء) : ٢١ .  
تركستان : ٢٠ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ١٣٠ ، ١٧٥ .  
تركية : ٥١ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٨ ، ١٠٦ .  
تشيكوسلوفاكيا : ٤٦ .  
تكرت : ٧٤ ، ٩٦ .  
تترانيا : ٨٢ .  
تنغانيكا : ٨٢ .  
تئيس : ٧٢ ، ٩٢ ، ٩٣ .  
تور : ٥١ .  
تونس : ٨٠ ، ٩٤ ، ١٧٥ .
- ج -  
جبل قاسيون : ١٣٠ .  
جدة : ٦٧ ، ٨٤ .  
جرجان : ٤٥ ، ٨٩ .  
الجرجمة (الجرجمة) : ١٣٦ .  
جزيرة ابن عمر : ٤٠ .  
الجزيرة الخضراء : ٩٨ .



- دبيق : ٧٢ .  
 دجلة : ٤١ ، ٤٢ ، ٧٤ ، ٨٣ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٦ ، ١٠٦ ، ١٥١ .  
 دمشق : ١٩ ، ٥٥ ، ٧٦ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٢١ ، ١٨٧ .  
 دمياط : ٧٢ ، ٩٣ .  
 ديار بكر : ٢٩ ، ٨٠ .  
 ديار العرب : ٩٩ .  
 دَيْبِل : ٩٤ .  
 دير أشموني : ١٥٦ .  
 دير باعربا : ٩٦ .  
 دير الثعالب : ١٥٦ .  
 دير درمالس : ١٥٦ .  
 دير سالو : ١٥٦ .  
 دير مديان : ١٥٦ .  
 دير يوحنا : ٩٦ .  
 دي غاما (فاسكو) : ٩٣ .
- ذ -  
 الذهبي : ١٥١ .
- ر -  
 الرحاب : ٩٩ .  
 الرّس : ٨٨ .  
 الرّقة : ٣٠ ، ١٠٥ .  
 الرملة : ٦٧ ، ٩٨ ، ٩٩ .  
 الرها : ٣٠ ، ١٠٦ .  
 روسية : ٨٢ ، ٨٥ ، ٩٨ .  
 روغن : ٧٨ .  
 رومية : ١٨ ، ١٣٦ ، ١٧٥ .  
 الرون : ٨٢ .
- الرّي : ٩٨ .  
 - ز -  
 زنجبار : ٨٢ ، ٩٤ .
- س -  
 سابور (إقليم) : ٧٣ .  
 سالرنو : ١١٩ .  
 سامرا : ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٥ ، ٥٦ ، ٦٦ ، ٩١ ، ١٠٨ ، ١٨٧ .  
 سان مارتان (متحف) : ١٢٧ .  
 سجستان : ٧٤ ، ٧٥ .  
 سجلماسة : ٧٠ .  
 سردينية : ٨٠ .  
 سرنديب (سيلان) : ٦٩ .  
 السعودية : ١٥٤ .  
 سُغالة : ٩٤ .  
 سُفْطرة : ٩٤ .  
 سلوقية : ٩٣ .  
 سمرقند : ٥٦ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٨ ، ٩٨ ، ١٨٨ .  
 سُبْساط : ٨٩ .  
 سنجة : ٩٦ .  
 السند : ٢١ ، ٤٠ ، ٦٧ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ٩٩ ، ١٠٨ ، ١٢٦ .  
 سهل الهندوس : ٢١ .  
 السودان : ٦٨ ، ٨٧ ، ١٥٤ .  
 سورية : ٣٩ ، ٤٢ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٧١ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨٦ ، ١٠٤ ، ١١٩ .  
 سوس : ١٨٧ .  
 السويس : ٩٢ .

## - ط -

- سِيحَان : ٨٨ .  
 سِيرَاف : ٩٤ ، ١٢٥ .  
 سِينَاء : ٦٢ ، ٩٢ .  
 طَاق كَسْرَى : ٤٢ .  
 طَبْرِقَة : ٦٩ .  
 طَبْرِقَة : ٧٦ ، ٨٤ ، ٩٣ ، ٩٤ .  
 طَحَا : ٧٢ .  
 طَرَابِلِس الشَّام : ٧٦ ، ٨٤ ، ٩٣ ، ٩٤ .  
 طَرَابِلِس الْغَرْب : ٩٨ .  
 طَرْسُوس : ٦٦ ، ٨٨ .  
 طَلَّس : ٧٦ .  
 طُورُوس : ١٣٦ .  
 الشَّام : ١١ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٨٣ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٣٧ ، ١٤٦ ، ١٥٣ ، ١٦٧ .  
 الشَّرْق الْأَدْنَى : ٧١ .  
 الشَّرْق الْأَقْصَى : ٧٨ ، ١٢٢ ، ١٢٨ .  
 شَط الْعَرَب : ٧٤ ، ٨٣ ، ٨٩ ، ٩٥ .  
 الشَّمَّاسِيَّة : ١٣٠ .  
 شِيرَاز : ٣٥ ، ٣٨ ، ٦٧ ، ٧٣ ، ٩٦ ، ٩٩ .

## - ع -

- عَمَّادَان : ٧٣ ، ٩٥ .  
 عَدَن : ٦٧ ، ٦٩ ، ٩٤ .  
 الْعُدَيْب : ٩٨ .  
 الْعِرَاق : ٢٠ ، ٣٩ ، ٤٥ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٩ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٣٧ ، ١٥٠ ، ١٥٤ .  
 عَسْكَر الْمَهْدِي : ٤٣ .  
 عَكْبَرَا : ٧٤ .  
 عَلَث : ٩١ .  
 عُثَان : ٢٤ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٩٣ ، ٩٤ .  
 عَمُورِيَّة : ٥٠ ، ٥٩ ، ١٧٥ .  
 عَيْذَاب : ٩٤ .  
 عَيْن جَالُوت : ٤١ .

## - ص -

- الصَّعِيد : ٣٩ ، ٧٢ .  
 صَقْلِيَّة : ٥١ ، ٥٢ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ١٢٦ ، ١٧٥ .  
 صَنْعَاء : ١٤٦ .  
 صُور : ٩٤ .  
 صَيْدَا : ٨٤ .  
 الصِّين : ٢١ ، ٥١ ، ٥٧ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١١٦ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٨ .

## - غ -

- الْغَرْب : ١١ ، ١٨ .  
 غَزَّة : ١٥٢ .

## - ض -

- الضَّبِّي (المَفْضَل بن مُحَمَّد) : ١٠٨ .

قطيعة النصارى : ١٤٧ .

قفصة : ٧٠ .

القلزم : ٩٢ ، ٦٧ .

قنسرين : ٩٩ .

قوص : ٩٤ .

القيروان : ٩٤ ، ٩٨ .

قيليقيا : ٨٨ .

غزنة : ٥٧ .

غوطة دمشق : ١٣٠ .

## - ف -

القاتيكان : ١٧٥ .

فارس : ٤٠ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٢ ،

٧٣ ، ٧٦ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٧ ،

٨٩ ، ٨٤ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ،

١٠٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٦٨ .

الفرات : ٤٢ ، ٦٧ ، ٨٣ ، ٨٨ ، ٨٩ ،

٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٦ .

فرغانة : ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٨٤ ، ٨٩ .

الفرما : ٩٢ .

فرنسة : ٥١ ، ٧٧ ، ١١٩ .

القسطاط : ٣٩ ، ٧٣ ، ٧٤ .

فلسطين : ٦٧ ، ٩٩ .

القولغا : ١٢٥ .

القيوم : ٧٢ .

فينيقية : ١٠٣ .

قيينا : ١٣١ .

## - ك -

كابل : ٦٩ .

كاتانيا : ٥٢ .

كازرون : ٧٢ .

كانتون : ٧٩ ، ٩٥ .

الكرخ : ٤١ ، ٤٣ ، ١٤٧ ،

كرمان : ٤٠ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٤ ، ٧٥ ،

٩٤ ، ٩٩ .

كورسيكا : ٨٠ .

كوريا : ٧٩ .

الكوفة : ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٧٣ ، ٨٩ ،

٩٨ ، ١٠٨ ، ١٢٣ ، ١٥٠ ، ١٥٣ .

## - ل -

اللاذقية : ٣٨ .

لاهور : ٥٣ .

لبنان : ٤٣ .

اللكام : ١٣٦ .

لندن : ٨١ .

لوفان : ١١٩ .

ليدن : ١٨ ، ٤٤ ، ٥٠ ، ١٣٤ .

## - ق -

القاهرة : ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٠ ، ٩٤ ، ٩٨ ،

١١٩ ، ١٣٦ ، ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٨٧ .

القدس : ٥١ ، ٩٩ ، ١٣٦ ، ١٦٧ .

قرطاج : ٨٠ .

قرطبة : ٤١ ، ٦٠ ، ١١٩ .

قرغيز : ٦٩ .

القسطنطينية : ١٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ١٣٤ .

قسطليلية : ٧٠ .

قطر : ٨٣ .

## - م -

ماردين : ٦٩ .

## - ن -

- المالابار : ١٢٢ .  
 مالقة : ١٢١ .  
 المتحف البريطاني : ٧٥ .  
 المحيط الأطلسي : ٩٨ ، ٦٨ ، ٥١ .  
 المحيط الهندي : ٩٢ ، ٨٥ ، ٨٢ ، ١٠ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١٢٥ .  
 المدينة : ٦٠ ، ١٤٦ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٣ .  
 مراغة : ١٣٠ .  
 مرعش : ٨٨ .  
 مرو : ٩٨ ، ٧٢ .  
 المشرق : ١٧ ، ١٨ ، ٤٠ ، ٧٣ ، ٨٢ ، ٩٩ .  
 مصر : ٢٠ ، ٢٩ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٩ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٣٧ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ .  
 مرمز : ٩٤ .  
 همذان : ٩٨ .  
 الهند : ٢٠ ، ٢١ ، ٤٥ ، ٥١ ، ٥٧ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٩ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٦ ، ١٥٤ .  
 هندكوش : ٦٨ .

## - ه -

- هرمز : ٩٤ .  
 همذان : ٩٨ .  
 الهند : ٢٠ ، ٢١ ، ٤٥ ، ٥١ ، ٥٧ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٩ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٦ ، ١٥٤ .  
 هندكوش : ٦٨ .  
 مرمز : ٩٤ .  
 مضيق هرمز : ٨٣ .  
 المغرب : ١١ ، ٤٠ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ٨٢ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٥٤ .  
 مكة : ٣٧ ، ٦٧ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦٤ .  
 مملكة الإسلام : ٩٩ .  
 منبج : ٩٨ .  
 مهران : ٨٨ .  
 موزنبق : ٩٤ .  
 الموصل : ٣٠ ، ٣٩ ، ٤٧ ، ٥٧ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٩٠ ، ٩٨ ، ١٢٣ .  
 مونبيليه : ١١٩ .  
 ميافارقين : ٨٠ ، ٣٠ .

## - و -

- واسط : ٤٦ ، ٧٣ ، ٩١ ، ٩٦ .  
 وشنطن : ٥٣ .

اليمن : ٢٤ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٨٣ .

الولايات المتحدة الأمريكية : ٥٣ .

٩٢ ، ٩٤ ، ١٤٦ ، ١٥٣ .

- ي -

اليونان : ٥٧ ، ١١٩ ، ١٢٥ ، ١٢٦ .

بأجوج ومأجوج : ١٢٨ .



المطبعة الكاثوليكية شمل  
عاريثا - لبنان



PUBLICATIONS DE L'UNIVERSITÉ LIBANAISE  
SECTION DES ÉTUDES HISTORIQUES

XXVII

# LA CIVILISATION ABBASSIDE

PAR

WILLIAM EL-KHAZEN



BEYROUTH 1984

---

*Distribution:* LIBRAIRIE ORIENTALE, B.P. 1986, Beyrouth, Liban